

## سُورَةُ الْأَعْرَافِ

مَكِّيَّةٌ، غَيْرُ ثَمَانِ آيَاتٍ: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ...﴾،  
إِلَى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ...﴾  
وَهِيَ مَائَتَانِ وَسِتُّ آيَاتٍ [نَزَلَتْ بَعْدَ صر]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْمَصَّ ۝١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ. وَذِكْرَى  
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

﴿كِتَابٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي: هو كتاب، و﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾: صفة له، والمراد بالكتاب السورة: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي: شك منه<sup>(١)</sup>؛ كقوله: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]، وسمي الشك حرجاً؛ لأن الشاك ضيق الصدر حرجه، كما أن المتيقن منشراح الصدر منفسحه، أي: لا تشك في أنه منزل من الله، ولا تخرج من تبليغه<sup>(٢)</sup>؛ لأنه كان يخاف قومه، وتكذيبهم له، وإعراضهم عنه وأذاهم، فكان يضيق صدره من الأذى، ولا ينسبط له، فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم.

فإن قلت/ ٢٣٣ب: بم تعلق قوله: ﴿لِتُنذِرَ﴾؟

(١) قال محمود: «الحرج: الشك... إلخ» قال أحمد: ويشهد له قوله تعالى ﴿فَلَا تُكُونُوا مِنَ الْمُكْفِرِينَ﴾ ولهذه النكتة ميز إمام الحرمين بين العلم والاعتقاد الصحيح، بأن «العقد» ربط الفكر بمعتقد. و«الاعتقاد» افتعال منه، والعلم يشعر بانحلال العقود وهو الانشراح والتبليغ والثقة. وما أحسن تنبيهه بقوله: والاعتقاد افتعال منه. يريد: إذا كان العقد مبانياً للعلم، فما ظنك بالاعتقاد؛ لأن صيغة الافتعال أبلغ معنى. ومنه الاعتماد والاحتمال. ومن ثم ورد في الخير «كسب» وفي نقيضه «اكتسب» لأن النفوس في الشهوات والمخالفات واتباع الأهواء أجدر منها في الطاعات وقمع الأغراض، وعلى ذلك جاء ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ وإن كان «العلم» من «الأعلم» المأخوذ من «العلمة» بالتحريك، وهي انشراح الشفة وانشقاقها؛ فالذي ذكره الإمام حينئذ نهاية في نوعه، والله الموفق.

(٢) عاد كلامه. قال: «أو ولا تخرج من تبليغه، لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له... إلخ» قال أحمد: ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَأْتَاكَ بِهِ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَاحِبٌ بِإِذْنِ اللَّهِ لَمَّ بِيَدِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ كِتَابًا أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ...﴾ الآية.

قلت: بـ «أنزل»، أي: أنزل إليك لإني أذكرك به أو بالنهي؛ لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم، وكذلك إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار؛ لأن صاحب اليقين جسور متوكل على ربه، متكل على عصمته.

فإن قلت: فما محل ذكرى؟ قلت: يحتمل الحركات الثلاث، النصب بإضمار فعلها، كأنه قيل: لتنذر به وتذكر تذكيراً؛ لأن الذكرى اسم بمعنى التذكير، والرفع عطفاً على كتاب، أو بأنه خبر مبتدأ محذوف، والجر للعطف على محل أن تنذر، أي: للإنذار وللذكر.

فإن قلت: النهي في قوله: «فلا يكن» متوجه<sup>(١)</sup> إلى الحرج فما وجهه؟

قلت: هو من قولهم: لا أرينك ههنا.

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم﴾: من القرآن والسنة، ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ﴾: من دون الله، ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ أي: ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس، فيحملوكم على عبادة الأوثان، والأهواء، والبدع، ويضلوكم عن دين الله، وما أنزل إليكم، وأمركم باتباعه، وعن الحسن: يا ابن آدم، أمرت باتباع كتاب الله، وستة محمد - ﷺ - والله ما نزلت آية إلا وهو يحب أن تعلم فيم نزلت، وما معناها؟ قرأ مالك بن دينار: «ولا تبتغوا»، من الابتغاء، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾، ويجوز أن يكون الضمير في: «من دونه»: لما أنزل، على: ولا تتبعوا من دون دين الله دين أولياء، ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره، وقرىء: تذكرون، بحذف التاء، ويتذكرون، بالياء، و«قليلًا»: نصب يتذكرون، أي: تذكرون تذكراً قليلاً، و(ما) مزيدة؛ لتوكيد القلة.

﴿وَكُم مِّن قَرِيْبٍ أَهْلَكْتَهَا فَمَجَاءَهَا بِأَسْنًا بَيْنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾

﴿فَمَجَاءَهَا﴾: ف جاء أهلها، ﴿بَيْنًا﴾: مصدر واقع موقع الحال، بمعنى بائتين، يقال: بات بياتاً حسناً، وبيته حسنة، وقوله: ﴿هُم قَائِلُونَ﴾: حال معطوفة<sup>(٢)</sup> على «بياتاً»، كأنه

- (١) عاد كلامه. قال: «فإن قلت النهي في قوله فلا يكن متوجه إلى الحرج، فما وجهه؟ قلت: هو من قولهم لا أرينك ههنا» قال أحمد: يريد أن الحرج منهي في الآية ظاهراً والمراد النهي عنه، والله أعلم.
- (٢) عاد كلامه. قال: «وقوله ﴿هُم قَائِلُونَ﴾ حال معطوفة على «بياتاً» كأنه قيل، لجاههم... إلخ» قال أحمد: الاكتفاء بالضمير في الجملة الاسمية الواقعة حالاً ضعيف. والأفصح دخول الواو؛ كما =

قيل: فجاءهم بأسنا بائتين أو قائلين.

فإن قلت: هل يقدر حذف المضاف الذي هو الأهل قبل: ﴿قَرِيْبَةٍ﴾، أو قبل الضمير في ﴿أَقْلَكْنَهَا﴾؟

قلت: إنما يقدر المضاف للحاجة ولا حاجة؛ فإن القرية تهلك كما يهلك أهلها، وإنما قدرناه قبل الضمير في: ﴿فَجَاءَهَا﴾ لقوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾.

فإن قلت: لا يقال: جاءني زيد هو فارس، بغير واو، فما بال قوله ﴿هُم قَائِلُونَ﴾؟

قلت: قدر بعض النحويين الواو محذوفة، ورده الزجاج، وقال: لو قلت: جاءني زيد راجلاً، أو هو فارس، أو جاءني زيد هو فارس، لم يحتج فيه إلى واو؛ لأن الذكر قد عاد إلى الأول، والصحيح: أنها إذا عطفت على حال قبلها، حذفت الواو استثقلاً، لاجتماع حرفي عطف؛ لأنَّ واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل، فقولك: جاءني زيد راجلاً أو هو فارس/ ٢٣٤، كلام فصيح وارد على حذوه، وأما: جاءني زيد هو فارس، فخيث.

= اختاره الزمخشري. وأما الزجاج وغيره فيجعلون أحد الأمرين كافياً في الاسم، إما الواو وإما الضمير. وأما قول الزمخشري: إن الجملة المعطوفة إنما حذفت منها واو الحال كراهية لاجتماعها وهي واو عطف أيضاً مع مثلها، ففيه نظر. وذلك أن واو الحال لا بد أن تمتاز عن واو العطف بمزية. ألا تراها تصحب الجملة الاسمية عقيب الفعلية في قولك جاءني زيد وهو راكب، ولو كانت عاطفة مجردة لاستقبح توسطها بين المتغاييرين وإن لم يكن قبيحاً، فالأصح خلافه، فلما رأيتها تتوسط بينهما والكلام حينئذ هو الأوضح أو المتعين، علمت أنها ممتازة بمعنى وخاصة عن واو العطف، وإذا ثبت امتيازها عن العاطفة، فلا غرو في اجتماعها معها، وإن كان فيها معنى العطف مضافاً إلى تلك الخاصة. فأما أن تسلبه حينئذ لإغناء العاطف عنها، أو تستمر عليه، كما تجتمع الواو. ولكن لما فيها من زيادة معنى الاستدراك في مثل قوله ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فعلى هذا كان من الممكن أن تجتمع واو الحال مع العاطف بلا كراهية، والذي يدل على ذلك أنك لو قلت: سبح الله وأنت راكب، أو وأنت ساجد؛ لكان فصيحاً لا خيب فيه ولا كراهية، فالتحقيق - والله أعلم - في الجملة المعطوفة على الحال: أن المصحح لوقوعها حالاً من غير واو، هو العاطف؛ إذ يقتضي مشاركة الجملة الثانية لما عطفت عليه في الحال، فيستغني عن واو الحال، كما أنك تعطف على المقسم به فتدخله في حكم القسم من غير واو موقعة في مثل ﴿وَأَلَيْكَ إِذَا يَتَخَنَّ﴾ ١١١ ﴿وَأَلَيْكَ إِذَا يَجْمَلُ﴾ ١١٢ وفي مثل ﴿فَلَا أَقِيمُ بِمَنْشَرٍ﴾ ١١٣ ﴿أَلْجَوَارِ الْكُنْزِ﴾ ١١٤ ﴿وَأَلَيْكَ إِذَا عَمَّسَ﴾ ١١٥ ولو قلت في غير التلاوة: وبالليل إذا عمس، لجاز، ولكن يستغني عن تكرار حرف القسم لنيابة العاطف منابه. فهذا والله أعلم سبب استغناء الجملة المعطوفة على الحال عن الواو المصححة للحالية، فالحاصل من هذا أنك إن أتيت بواو الحال مصاحباً للعاطف، لم تخرج عن حد الفصاحة إلى الاستثقال، بل أفدت تأكيداً. وإن لم تأت بها فكذلك في الفصاحة مع إفادة الاختصار، والله الموفق للصواب.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا فَبَاءََهَا بَأْسُنَا﴾ والإهلاك إنما هو بعد مجيء البأس؟

قلت: معناه: أردنا إهلاكها؛ كقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: ٦]، وإنما خصص هذان الوقتان: وقت البيات، ووقت القيلولة؛ لأنهما وقت الغفلة والدعة، فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأفظع، وقوم لوط أهلكوا بالليل وقت السحر، وقوم شعيب وقت القيلولة.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٥﴾

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾: ما كانوا يدعونه من دينهم، ومنتحلونه من مذهبهم إلا اعترافهم ببطلانه وفساده، وقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾: فيما كنا عليه، ويجوز: فما كان استغاثتهم إلا قولهم هذا؛ لأنه لا مستغاث من الله بغيره، ومن قولهم دعواهم: «يا لكعب»، ويجوز، فما كان دعواهم ربهم إلا اعترافهم، لعلمهم أن الدعاء لا يفعهم، وأن لات حين دعاء، فلا يزيدون على ذم أنفسهم، وتحسرهم على ما كان منهم، «ودعواهم»: نصب خبر لكان، و﴿أَنْ قَالُوا﴾: رفع اسم له، ويجوز العكس.

﴿فَلَنَسْتَأَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بَعَثَهُمْ وَمَا كُنَّا

غَائِبِينَ ﴿٧﴾

﴿فَلَنَسْتَأَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾: «أرسل»: مسند إلى الجار والمجرور وهو «إليهم»، ومعناه: فلنستألن المرسل إليهم وهم الأمم، يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم، كما قال: ﴿يَوْمَ يُدْعِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٦٥﴾ [القصص: ٦٥]، ويسأل المرسلين عما أجيبوا به، كما قال: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ﴾ [المائدة: ١٠٩]، ﴿فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ﴾: على الرسل، والمرسل إليهم ما كان منهم، ﴿بَعَثَهُمْ﴾: عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة، وأقوالهم وأفعالهم، ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾: عنهم وعما وجد منهم.

فإن قلت: فإذا كان عالماً بذلك، وكان يقصه عليهم، فما معنى سؤالهم؟

قلت: معناه: التوبيخ، والتفريع، والتقرير إذا فاهوا به بألسنتهم، وشهد عليهم أنبيأؤهم.

﴿وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُطْلُحُونَ﴾ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ

فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

﴿وَالْوِزْنَ بِوَمِيزِ الْحَقِّ﴾ يعني: وزن الأعمال، والتمييز بين راجحها، وخفيفها، ورفعها على الابتداء، وخبره: «يومئذ»، و«الحق»: صفته، أي: والوزن يوم يسأل الله الأمم<sup>(١)</sup>، ورسلمهم الوزن الحق، أي: العدل، وقرىء: «القسط»، واختلف في كيفية الوزن، فقيل: توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان، تنظر إليه الخلائق؛ تأكيداً للحجة، وإظهاراً للنصفة، وقطعاً للمعذرة، كما يسألهم عن أعمالهم فيعترفون بها بألسنتهم، وتشهد بها عليهم أيديهم، وأرجلهم، وجلودهم، وتشهد عليهم الأنبياء، والملائكة، والأشهاد، وكما ثبتت في صحائفهم فيقرؤونها في موقف الحساب.

وقيل: هي عبارة عن القضاء السوي والحكم العادل، ﴿فَمَنْ تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ﴾: جمع ميزان أو موزون، أي: فمن رجحت أعماله الموزونة التي لها وزن رقدر، وهي الحسنات، أو ما توزن به حسناتهم، وعن الحسن: وحق لميزان توضع فيه الحسنات أن يثقل/ ٢٣٤ب، وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف، ﴿يَكَايِنُنَا يَظْلُمُونَ﴾: يكذبون بها ظلماً؛ كقوله: ﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣].

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ (١٠)

﴿مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً، أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيِشًا﴾: جمع معيشة، وهي ما يعاش به من المطاعم، والمشارب، وغيرها، وما يتوصل به إلى ذلك، والوجه: تصريح الباء، وعن ابن عامر: أنه همز، على التشبيه بصحائف.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (١١)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ يعني: خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور، ثم صورناه بعد ذلك؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ...﴾ الآية ﴿مِنَ السَّاجِدِينَ﴾: ممن سجد لآدم.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ (١٢)

(١) قوله: «أي والوزن يوم يسأل الله الأمم» هذا إنما ينبي على أن يومئذ متعلق بالوزن، والحق خير. أما على ما قاله، فالتقدير: ويوم يسأل الخ، ويمكن أن مراده: والوزن كائن يوم يسأل الله الأمم ورسلمهم، أي الوزن الحق، وكان الأقرب: أي والوزن الحق يوم يسأل... الخ.

﴿أَلَا تَسْجُدُ﴾: «لا» في: (أن لا تسجد): صلة؛ بدليل قوله: «ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي»، ومثلها: (لثلا يعلم أهل الكتاب)، بمعنى: ليعلم.

فإن قلت: ما فائدة زيادتها؟

قلت: تأكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه، وتحقيقه، كأنه قيل: ليتحقق علم أهل الكتاب، وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك؟ ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ لأن أمري لك بالسجود أوجه عليك إيجاباً وأحتمه عليك، حتماً لا بد لك منه.

فإن قلت: لم سأله عن المانع من السجود، وقد علم ما منعه؟

قلت: للتوبيخ، ولإظهار معاندته، وكفره، وافتخاره بأصله، وازدرائه بأصل آدم، وأنه خالف أمر ربه معتقداً أنه غير واجب عليه، لما رأى أنّ سجود الفاضل للمفضول خارج من الصواب.

فإن قلت: كيف يكون قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ جواباً لما منعك، وإنما الجواب أن يقول: منعي كذا؟

قلت: قد استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم، وبعلة فضله عليه، وهو أنّ أصله من نار، وأصل آدم من طين، فعلم منه الجواب وزيادة عليه، وهي إنكار للأمر، واستبعاد أن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله، كأنه يقول: من كان على هذه الصفة، كان مستبعداً أن يؤمر بما أمر به.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ من السماء التي هي مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة، إلى الأرض التي هي مقر العاصين المتكبرين من الثقلين، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾: فما يصح لك، ﴿أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾: وتعصى، ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾: من أهل الصغار، والهوان على الله، وعلى أوليائه؛ لتكبرك، كما تقول للرجل: قم صاغراً، إذا أهنته، وفي ضده: قم راشداً؛ وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار، وعن عمر - رضي الله عنه -: من تواضع لله رفع الله حكيمته<sup>(١)</sup>، وقال: انتعش أنعشك الله، ومن تكبر وعدا طوره، وهسه<sup>(٢)</sup> الله إلى الأرض (٥٩٤).

٥٩٤ - أخرجه ابن أبي شيبة (٩٦/٧) رقم (٣٤٤٦١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» رقم (٨١٤٠) عن عمر =

(١) قوله: «رفع الله حكيمته» في الصحاح: حكمة اللجام ما أحاط بالحنك.

(٢) قوله: «وهسه الله إلى الأرض»، وهسه: أي غمزه إلى الأرض. والوهص: كسر الشيء الرخو =

﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

فإن قلت: لم أجيب إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم؟<sup>(١)</sup>

قلت/ ١٢٣٥: في ذلك من ابتلاء العباد، وفي مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف، وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركب في الأنفس من الشهوات؛ ليمتنح بها عباده.

﴿ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

﴿ فِيمَا أُغْوِيَنِي ﴾: فبسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم، وهو تكليفه إياه ما وقع به في الغي، ولم يثبت كما ثبتت الملائكة، مع كونهم أفضل منه، ومن آدم أنفساً ومناصب<sup>(٢)</sup>، وعن الأصم: أمرتني بالسجود، فحملتني الأنف على معصيتك، والمعنى: فبسبب وقوعي

-----  
= وقد ورد بعضه مرفوعاً من حديث ابن عباس، أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢١٨/١٢ - ٢١٩) رقم (١٢٩٣٩) من طريق علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «ما من آدمي إلا في رأسه حكمة بيد ملك فإذا تواضع قيل للملك: ارفع حكمته، وإذا تكبر قيل للملك: ضع حكمته». وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/٨٥) وقال: رواه الطبراني في «الكبير» وإسناده حسن.

قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه. حدثنا أبو خالد الأحمر وعبد الله بن إدريس وسفيان ابن عتبة عن ابن عجلان عن بكير بن الأشج عن معمر بن أبي حية عن عبيد الله بن عبيد الله بن عدي بن الخيار قال: قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكمته وقال: انتعش أنتعشك الله. فهو في نفسه صغير، وفي أنفاس الناس كبير. وإن العبد إذا تعظم وعدا طوره، وضعه الله إلى الأرض. وقال: أحسأ حسأك الله فهو في نفسه كبير وفي أنفاس الناس صغير، لهو أحقر عندهم من خنزير»، وأخرجه البيهقي في الشعب من طريق علي بن المديني عن سفيان. وقد روي بعضه مرفوعاً، أخرجه الدارقطني في العلل من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما من آدمي إلا وملك أخذ بحكمته. فإذا رفع نفسه قيل للملك: ضع حكمتك - وإذا وضع نفسه قيل للملك: ارفع حكمتك، قال: لا يثبت. فيه علي بن زيد وهو ضعيف. انتهى.

-----  
= وشدة الوطء على الأرض، كذا في الصحاح.

(١) قال محمود: «فإن قلت: لم أجيب إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عباده... إلخ» قال أحمد: وهذا السؤال إنما يورده ويلتزم الجواب عنه القدرية الذين يوجبون على الله تعالى رعاية المصالح في أفعاله. وأما أهل السنة فقد أصغوا حق الإصغاء إلى قوله تعالى ﴿لَا يَسْتَلِ عَنَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ فلا يورد أحد منهم هذا السؤال ولا يجيب عنه من يورده، والله الموفق.

(٢) قوله: «ومن آدم أنفساً ومناصب» هذا عند المعتزلة، أما عند أهل السنة فآدم أفضل منهم.

في الغي، لأجتهدن في إغوائهم<sup>(١)</sup> حتى يفسدوا بسببي، كما فسدت بسببهم.

فإن قلت: بم تعلق الباء؛ فإن تعلقها بالأقعدن يصد عنه لام القسم، لا تقول: والله بزيد لأمرن؟

قلت: تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره: فيما أغويتني أقسم بالله لأقعدن، أي: فيسبب إغوائك أقسم<sup>(٢)</sup>، ويجوز أن تكون الباء للقسم، أي: فأقسم بإغوائك لأقعدن، وإنما أقسم بالإغواء؛ لأنه كان تكليفاً، والتكليف من أحسن أفعال الله؛ لكونه تعريضاً لسعادة الأبد، فكان جديراً بأن يقسم به، ومن تكاذيب المجبرة، ما حكوه<sup>(٣)</sup> عن طاوس

(١) قال محمود: «والمعنى: فسبب وقوعي في الغي لأجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي... إلخ» قال أحمد: تحت كلام الرمخشري هذا نزغتان من الاعتزال خفيتان:

إحدهما: تحريفه الإغواء إلى التكليف، لأنه يعتقد أن الله تعالى لم يغوه، أي لم يخلق له الغي بناء على قاعدة التحسين. والتبحيح والصلاح والأصلح، فيضطره اعتقاده إلى حمل الإغواء على تكليفه بالسجود، لأنه كان سبباً في غيه. وكثيراً ما يؤول أفعال الله تعالى إذا أسندها إلى ذاته حقيقة إلى التسبب، ويجعل ذلك من مجاز السببية، لأن الفعل له ملاسبات بالفاعل والمفعول والزمان والمكان والسبب، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وإسناده إلى بقيتها مجاز ويجعل الفعل مسنداً إلى الله - تعالى - لأنه مسببه لا أنه فاعله. وقد استدل على ذلك فيما سلف بقول مالك بن دينار لرجل رآه مقيداً محبوساً في مال عليه: هذه وضعت القيود في رجلك، وأشار إلى سلة فيها أخبصة وألوان مختلفة رآها عند المسجون، أي اعتناؤك بهذه الأطعمة كان سبباً في تذيير المال الذي آل بك إلى وضع القيود في رجلك. فعلى هذا يروم حمل هذه الآية، يعني بما كلفني من التكليف الذي كان سبباً في خلقي الغي لنفسي لأقعدن، فيجعل إبليس هو الفاعل في الحقيقة. وأما إسناد الفعل إلى الله تعالى فمجاز. هذه إحدى النزغتين.

والأخرى: جعله التكليف من جملة الأفعال، لأنه يزعم أن كلام الله تعالى محدث من جملة أفعاله، لا صفة من صفاته، والتكليف من الكلام، فهاتان زلتان جمع القدرية بينهما. وإبليس لعنه الله لم يرض واحدة منهما، لأنه نسب الإغواء إلى الله تعالى، إذ هو خالق كل شيء، فما الظن بطائفة ترضى لنفسها من خفي الشرك ما لم يسبق به إبليس؟ نعوذ بالله من التعرض لسخط الله.

(٢) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «وما ذكره من أن اللام تصد عن تعلق الباء بـ «لأقعدن» ليس حكماً مجمعاً عليه، بل في ذلك خلاف قلت: أما الخلاف فنعم، لكنه خلاف ضعيف لا يعتد به أبو القاسم، والشيخ نفسه قد قال - عند قوله تعالى: ﴿لَنْ يَمَعَكَ مِنْهُمْ لِأَمَلًا﴾ في قراءة من كسر اللام في «لَمَنْ» -: «إن ذلك لا يجيزه الجمهور». وسيأتي لك مبيناً إن شاء الله تعالى. انتهى. الدر المصون.

(٣) قوله: «ومن تكاذيب المجبرة ما حكوه» يعني أهل السنة. وسامهم المعتزلة بذلك. لقولهم: إن خالق أفعال العباد ولو قبيحة هو الله تعالى، فيكون العبد مجبوراً فيها؛ فكيف يصح تكليفه؟! ولكنهم أثبتوا للعبد الكسب في أفعاله، ولذلك صح تكليفه. أما الجبر المنافي للتكليف، فهو أن لا يكون للعبد دخل في فعله أصلاً، بحيث يكون كالريشة المعلقة في الهواء؛ وبه قالت المجبرة الحقيقية، كما هو مذكور في أواخر المواقف.

أنه كان في المسجد الحرام، فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمي بالقدر، فجلس إليه، فقال له طائوس: تقوم أو تقام، فقام الرجل، فقيل له: أتقول هذا لرجل فقيه؟ فقال: إيليس أفقه منه، قال: «رب بما أغويتني»، وهذا يقول: أنا أغوي نفسي، وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبائح إلى الله سبحانه، أن لفقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين<sup>(١)</sup>، وقيل: «ما»: للاستفهام؛ كأنه قيل: بأي شيء أغويتني؟ ثم ابتداء لأقعدن، وإثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على «ما» الاستفهامية، قليل شاذ، وأصل «الغي» الفساد، ومنه: غوى الفصيل، إذا بشم، والبشم: فساد في المعدة، لأقعدن لهم صراطك المستقيم: لأعترضن لهم على طريق الإسلام، كما يعترض العدو على الطريق، ليقطعه على السابلة وانتصابه على الظرف؛ كقوله: [من الكامل]

..... كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الشُّغْلَبُ<sup>(٢)</sup>

وشبهه الزجاج بقولهم: ضرب زيد للظهر والبطن، أي: على الظهر والبطن، وعن رسول الله - ﷺ -: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِأَيِّنِ آدَمَ بِأُطْرُقَةٍ: قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ: تَدْعُ دِينَ آبَائِكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهَجْرَةِ، فَقَالَ لَهُ: تَدْعُ دِينَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ فَقَالَ لَهُ: تَقَاتِلُ فَتُقْتَلُ فَيُقَسِّمُ مَالَكَ وَتُنَكِّحُ أُمَّرَأَتَكَ،

(١) عاد كلامه. قال: «ومن تكاذيب المجبرة: ما حكوه عن طائوس أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرمي بالقدر، فجلس إليه فقال له طائوس تقوم أو تقام؟ فقام الرجل. فقيل له: أتقول هذا لرجل فقيه؟ فقال: إيليس أفقه منه، قال رب بما أغويتني. وهذا يقول: أنا أغوي نفسي. انتهى كلام طائوس على زعمهم. وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبائح إلى الله سبحانه وتعالى أن لفقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين» انتهى كلامه. قال أحمد: وإنما أوردت مثل هذا من كلامه وإن كان غير محتاج إلى التنبيه على فساده وحيدته عن العقائد الصحيحة لتبليغ الحجة في وجوب الرد عليه وتعينه على من هداه الله إليه. ولقد صدق طائوس رضي الله عنه. وأما قول الزمخشري في أهل السنة الذين سماهم مجبرة أنهم يتهاكون في نسبة القبائح إلى الله تعالى، فحاصله: أنهم يخلصون التوحيد حتى لا يؤمنون بخالق غير الله، ولكي يصدقوا قوله تعالى متمدحاً ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ لا كالتقديرية الذين هم يتهاكون حتى هم يشركون ويحرفون الكلم عن مواضعه، فيؤولون الفاعل بالمسبب، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، والله الموفق للصواب.

(٢) لدن بهز الكف يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الشعلب لساعدة بن جوية، يصف رمحاً بأنه لين يضطرب صلبه في الكف بسبب هزه، فلا يبس فيه، كما عسل أي اضطرب الشعلب في الطريق، فحذف الجار من الثاني للضرورة، واغتر لذكره في الأولى. وفي عسل معنى الدخول بسرعة. ينظر: ديوان الهذليين ١/٩٠١، الكتاب ١/١٦، الخصائص ٣/٣١٩، أمالي ابن الشجري ١/٤٢، الهمع ١/٢٠٠، الدرر ١/١٦٩، الدر المصون ٣/٢٤٢.

فَعَصَاهُ فَقَاتَلَ (٥٩٥) ﴿هُمْ لِأَيِّئُهُمْ﴾ : من الجهات الأربع، التي يأتي منها العدو في الغالب، وهذا مثل لوسوسته/٢٣٥ ب إليهم، وتسويله ما أمكنه وقدر عليه؛ كقوله: ﴿وَأَسْتَنْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

فإن قلت: كيف قيل: ﴿هُنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ بحرف الابتداء، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ بحرف المجاوزة؟

قلت: المفعول فيه عدّي إليه الفعل، نحو تعديته إلى المفعول به، فكما اختلفت حروف التعدية في ذلك، اختلفت في هذا، وكانت لغة تؤخذ، ولا تقاس، وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط، فلما سمعناهم يقولون: جلس عن يمينه، وعلى يمينه، وعن شماله، وعلى شماله، قلنا: معنى: «على يمينه»: أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلى من المستعلى عليه، ومعنى: «عن يمينه»: أنه جلس متجافياً عن صاحب اليمين، منحرفاً عنه، غير ملاصق له، ثم كثر حتى استعمل في المتجافي وغيره، كما ذكرنا في: «تعال»، ونحوه من المفعول به قولهم: «رميت عن القوس»، وعلى القوس، ومن القوس؛ لأن السهم يبعد عنها، ويستعليها إذا وضع على كبدها للرمي، ويبتدىء الرمي منها؛ كذلك قالوا: جلس بين يديه، وخلفه، بمعنى فيه؛ لأنهما ظرفان للفعل، ومن بين يديه ومن خلفه؛ لأن الفعل يقع في بعض الجهتين، كما تقول: جتته من الليل، تريد بعض الليل.

وعن شقيق: ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراصد: من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، أما من بين يدي فيقول: لا تخف؛ فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: ﴿وَأَيُّ لَقَاءٍ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [طه: ٨٢]، وأما من خلفي: فيخوفني الضيعة على مخلفي، فأقرأ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وأما من قبل يميني: فيأتيني من قبل الشاء، فأقرأ: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، وأما من قبل شمالي، فيأتيني من قبل الشهوات فأقرأ: ﴿وَجَلَّ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبا: ٥٤] ﴿وَلَا يَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ : قاله تظنيماً؛ بدليل قوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَهِسُ ظَنُّهُمْ﴾ [سبا: ٢٠]، وقيل:

٥٩٥ - أخرجه الثَّسَنِي (٢١/٦): كتاب الجهاد باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، وأحمد (٤٨٣/٣)، والطبراني في معجمه الكبير (١٣٨/٧)، حديث (٦٥٥٨)، وابن جبان (٤٥٣/١٠) حديث (٤٥٩٣).

قال الحافظ: أخرجه الثَّسَنِي وأحمد وابن جبان وأبو يعلى والطبراني من حديث سيرة بن الفاكه وابن أبي الفاكه به وأثم منه.  
 (تنبيهان) أحدهما: قوله: «بأطرقه» ضبطه ثابت في الدلائل بكسر الراء، بمشناه، وبضم الراء وبهاء.  
 ثانيهما: قوله «بأطرقته» وقع عند الطيبي، رواه الثَّسَنِي من حديث سيرة بن معبد وهو وهم. انتهى.

سمعه من الملائكة بإخبار الله - تعالى - لهم .

﴿ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا وَمَا مَذْمُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لِأَمَلَانَ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٨)

﴿ مَذْمُومًا ﴾: من: ذأمه إذا ذمّه، وقرأ الزهري: «مذوماً» بالتحفيف، مثل مسول في مسئول، واللام في: ﴿ لَمَنْ تَبِعَكَ ﴾: موطئة للقسم، و﴿ لِأَمَلَانَ ﴾: جوابه، وهو ساذ مسدّ جواب الشرط، ﴿ مِنْكُمْ ﴾: منك ومنهم، فغلب ضمير المخاطب؛ كما في قوله: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مَجْهُلُونَ ﴾، وروى عصمة عن عاصم: «لمن تبعك»، بكسر اللام، بمعنى: لمن تبعك منهم هذا الوعيد، وهو قوله: ﴿ لِأَمَلَانَ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، على أن «لأملان»: في محل الابتداء، و«لمن تبعك»: خبره.

﴿ وَبَنَادِمٌ أَشْكَنُ أَنْتَ وَرَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٩) فَوْسُوسٌ لَمَّا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهَا مَا وُورَى عَنْهَا مِنْ سَوْءِ بَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَذَلَّلَهُمَا يَفِرُّوهُ قَلَمًا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهَا سَوْءُ بَيْهَمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ

مُؤَيِّنٌ ﴿٢٢﴾

﴿ وَبَنَادِمٌ ﴾: وقلنا يا آدم، وقرئ: هذي الشجرة، والأصل البياء، والهاء بدل منها، ويقال: «وسوس»، إذ اتكلم كلاماً خفياً يكرره، ومنه وسوس الحلبي، وهو فعل غير متعد، كولت المرأة ووعود الذئب، ورجل موسوس / ٢٣٦ بكسر الواو - ولا يقال موسوس بالفتح، ولكن موسوس له، وموسوس إليه، وهو الذي تلقى إليه الوسوسة، ومعنى: وسوس له: فعل الوسوسة لأجله، وسوس إليه: ألقاها إليه، ﴿ لِيُبْدِيَ ﴾: جعل ذلك غرضاً له ليسوءهما إذا رأيا ما يؤثران ستره ألا يطلع عليه مكشوفاً؛ وفيه دليل على أن كشف العورة من عظام الأمور<sup>(١)</sup>، وأنه لم يزل مستهجنًا في الطباع مستقبلاً في العقول.

(١) قال محمود: «فيه دليل على أن كشف العورة من عظام الأمور... الخ» قال أحمد: وفي هذه الكلمات أيضاً جنوح إلى قاعدة الاعتزال في أمرين، أحدهما: قوله إن كشف العورة لم يزل مستقبلاً في العقول، فإنه ينشأ عن اعتقاده أن القبح والتحسين بالعقل وإن جاز أن يصدر هذا الكلام من المعتقد لعقيدة السنة، إلا أنه لا يريد به ظاهره، إذ التحسين والتقبيح إنما يدركان بالشرع والسمع لا بالعقل. ومعنى هذا الإطلاق ولو صدر من سني: أن العقل يدرك المعنى الذي لأجله حسن الشرع والستر وقبح الكشف. الأمر الثاني: استدلاله على تفضيل الملائكة على الأنبياء وقد =

فإن قلت: ما للواو المضمومة في: ﴿وَأُورِي﴾ لم تقلب همزة كما قلت في أو يصل؟

قلت: لأن الثانية مدة كألف واري، وقد جاء في قراءة عبد الله: «أوري»، بالقلب، ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾: إلا كراهة أن تكونا ملكين، وفيه دليل على أن الملكية بالمنظر الأعلى، وأن البشرية تلمح مرتبتها كلا ولا، وقرئ: «ملكين»، بكسر اللام؛ كقوله: ﴿وَمَا لِي لَا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]. ﴿مِنَ الْخَالِدِينَ﴾: من الذين لا يموتون ويبقون في الجنة ساكنين، وقرئ: «من سواتهما»، بالتوحيد، «وسواتهما»، بالواو المشددة، ﴿وَأَقْسَمَهُمَا﴾: وأقسم لهما، ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

فإن قلت: المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك<sup>(١)</sup>، تقول: قاسمت فلاناً حالفته، وتقسما تحالفا، ومنه قوله تعالى: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ﴾ [النمل: ٤٩].

قلت: كأنه قال لهما: أقسم لكما إني لمن الناصحين، وقال له: أتقسم بالله إنك لمن الناصحين؟ فجعل ذلك مقاسمة بينهم، أو أقسم لهما بالنصيحة، وأقسما له بقبولها<sup>(٢)</sup>، أو أخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة، لأنه اجتهد فيه اجتهد المقاسم، ﴿فَدَلَّهُمَا﴾ فنزلهما إلى الأكل من الشجرة، ﴿بِزُورٍ﴾: بما غرهما به من القسم بالله، وعن قتادة: وإنما يخدع المؤمن بالله، وعن ابن عمر - رضي الله عنه - : أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة، أعتقه، فكان عبيده يفعلون ذلك؛ طلباً للعتق، ف قيل له: إنهم يخدعونك، فقال:

-----  
٥٩٦ - أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/٢٩٤ - ٢٩٥) من طريق عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر به. وأخرجه أيضاً ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٤/١٢٥ - ١٢٦) من طريق عبد

-----  
مضى أن ذلك معتقد المعتزلة وإن كان بعض أهل السنة قد مال إليه، والجواب ممن يعتقد تفضيل الأنبياء أنه لا يلزم من اعتقاد إبليس ذلك ووسوسته بأن الملائكة أفضل أن يكون الأمر كذلك في علم الله تعالى. ألا ترى إبليس لعنه الله قد أخبر أن الله تعالى منعهما من الشجرة حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين؟ وهو في ذلك كاذب مبطل، فلا دليل فيه، إذ ليس في الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك ولا تصديقه فيه، بل ختمت الآية بما يدل على أنه كذب لهما وجرهما، إذ قال الله تعالى عه ﴿فَدَلَّهُمَا بِزُورٍ﴾ فلعل تفضيله الملكية على النبوة من جملة غروره، والله أعلم.  
(١) عاد كلامه. قال: «فإن قلت: المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك... إلخ» قال أحمد: ويكون في الكلام حينئذ لف، لأن آدم وحواء عليهما السلام لا يقسمان له بلفظ المتكلم، ولكن بالخطاب، فجعل القسم من الجانبين كلاماً واحداً مضافاً لإبليس.

(٢) عاد كلامه. قال: «أو أقسم لهما على النصيحة وأقسما له على قبولها» قال أحمد: وهذا التأويل يتم لوجود المقاسمة عن ذكر المقسم عليه. وأما حيث جعل المقسم عليه هو النصيحة لا غير، فيبعد التأويل المذكور؛ إلا أن يحمل الأمر على أنه سمي قبول النصيحة نصيحة للمشاكلة والمقابلة، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ أنه سمي التزام موسى للوفاء والحضور للميعاد ميعاداً، فأسند التعبير بالمفاعلة، والله أعلم.

من خدعنا بالله انخدعنا له (٥٩٦)، ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾: وجدا طعمها آخذين في الأكل منها، وقيل: «الشجرة» هي «السنبلة»، وقيل: «شجرة الكرم» ﴿بَدَّتْ لَمَّا سَوَّاهُمَا﴾ أي: تهافت عنهما اللباس، فظهرت لهما عوراتهما، وكانا لا يريانها من أنفسهما، ولا أحدهما من الآخر، وعن عائشة - رضي الله عنها -: ما رأيت منه، ولا رأى مني (٥٩٧).

وعن سعيد بن جبير: كان لباسهما من جنس الأظفار.

وعن وهب: كان لباسهما نوراً يحول بينهما وبين النظر، ويقال: طفق بفعل كذا،

-----  
= العزيز بن أبي رواد به.

قال الحافظ: أخرجه ابن سعد من رواية نافع قال: «كان ابن عمر إذا اشتد عجه بشيء من ماله قربه لربه - وكان رقيقه قد عرفوا ذلك منه. فربما شمر أحدهم فيلزم المسجد، فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنه أعتقه. فيقول له أصحابه. فذكره. وأخرجه أبو نعيم في الحلية من هذا الوجه. انتهى.

٥٩٧ - عزاه الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٤٥٨/١) إلى أبي يعلى في مسنده، ومن طريقه ابن الجوزي في الوفا ولفظه: «ما أتى رسول الله ﷺ أحداً من نسائه إلا متقناً يرخي الثوب على رأسه، ولا رأيت من رسول الله ﷺ ولا رأه مني».

وضعه الحافظ في «تخريج الكشاف».

وللحديث طريق آخر عن عائشة:

أخرجه الدارقطني في «غرائب مالك» من طريق محمد بن كامل بن ميمون الزيات ثنا زيد بن الحسن ثنا مالك بن أنس عن الزهري عن عروة عن عائشة قالت: «ما نظرت إلى فرج رسول الله ﷺ ولا نظر إلى فرجي قط».

قال الدارقطني: محمد بن كامل وزيد بن حسن ضعيفان، ولا يصح هذا عن مالك ولا عن الزهري.

ينظر «تخريج الكشاف» للزيلعي (٤٥٨/١).

وله طريق ثالث عن عائشة:

أخرجه ابن ماجه (٢١٧/١) كتاب الطهارة: باب النهي أن يرى عورة أخيه حديث (٦٦٢)، والترمذي في «الشمائل المحمدية» (٣٦٠) من طريق موسى بن عبد الله بن يزيد عن مولى لعائشة عن عائشة قالت: «ما نظرت أو ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط».

وإسناده ضعيف. لجهالة مولى عائشة.

قال الحافظ: أخرجه أبو يعلى من رواية كامل أبي العلاء عن أبي صالح - رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قالت عائشة «ما أتى رسول الله ﷺ أحداً من نسائه إلا متقناً مرخي الثوب على رأسه، وما رأيت من رسول الله ﷺ. ولا رأه مني - تعني الفرغ» إسناده ضعيف. وروى الترمذي وابن ماجه وأحمد وابن أبي شيبة من رواية عبد الله بن يزيد عن مولى عائشة قالت: «ما رأيت فرج رسول الله ﷺ قط» وروى الدارقطني في «غرائب مالك» عن الزهري ورواه الطبراني في الصغير من رواية أنس عن عائشة مثله - وزاد: «ولا نظر إلى فرجي قط»، وفي إسناده زيد بن الحسن عن مالك. وهو ضعيف. وقال: لا يصح هذا عن مالك ولا عن الزهري. وروى الطبراني في الصغير من رواية أنس عن عائشة نحوه. وفي إسناده بركة بن محمد الحلبي، وهو متروك. انتهى.

بمعنى: جعل يفعل كذا، وقرأ أبو السمال: «طفقاً» بالفتح، ﴿يَخْصِفَانِ﴾: ورقة فوق ورقة على عوراتهما ليستترا بها، كما يخصف النمل، بأن تجعل طرقة على طرقة، وتوثق بالسيور، وقرأ الحسن: «يخصفان»، بكسر الخاء وتشديد الصاد، وأصله «يختصفان»، وقرأ الزهري: «يخصفان»، من أخصف، وهو منقول من خصف، أي: يخصفان أنفسهما، وقرئ/ ٢٣٦ب: «يخصفان»، من خُصِفَ بالتشديد ﴿مِنْ رَزَقِ الْجَنَّةِ﴾: قيل: كان ورق التين، ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾: عتاب من الله - تعالى - وتوبيخ، وتنبيه على الخطأ؛ حيث لم يتحذرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس، وروي: أنه قال لآدم: «ألم يكن لك فيما منحتك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة؟» فقال: بلى وعزتك، ولكن ما ظننت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً. قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض، ثم لا تنال العيش إلا كذاً»، فأهبط وعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث فحرث، وسقى، وحصد، وداس، وذرى، وطحن، وعجن، وخبز.

﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّآ تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

وسميا ذنبهما وإن كان صغيراً، مغفوراً، ظلماً لأنفسهما<sup>(١)</sup>، وقالوا: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾: على عادة الأولياء، والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات، واستصغارهم العظيم من الحسنات.

﴿قَالَ أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ  
وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿أَهْبَطُوا﴾: الخطاب لآدم، وحواء، وإبليس، و﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: في موضع الحال، أي: متعادين يعاديهما إبليس ويعاديانه، ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: استقرار، أو موضع استقرار، ﴿وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾: وانتفاع بعيش إلى انقضاء آجالكم، وعن ثابت البناني: لما أهبط آدم وحضرته الوفاة، أحاطت به الملائكة، فجعلت حواء تدور حولهم، فقال لها: خلي ملائكة ربي، فإنما أصابني الذي أصابني فيك، فلما توفي، غسلته الملائكة بماء، وسدر، وترأ،

(١) قال محمود: «سميا ذنبهما ظلماً وإن كان صغيراً مغفوراً... إلخ» قال أحمد: وهذا أيضاً اعتزال خفي، لأنهم يزعمون أن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر وإن لم يتب العبد منها. فهذا معنى قول الزمخشري: وإن كان صغيراً مغفوراً. وإنما سمت هذا الاعتزال بالخفاء، لأن هذا الكلام يستقيم وروده عن أهل السنة، لكنهم يعنون بكونه مغفوراً: أن الله تعالى تفضل بغفرانه، ولو شاء لأخذ به وإن كان الأنبياء معصومين من الكبائر، لا كما يزعمه المعتزلة من وجوب مغفرته، والله الموفق.

وحنطته، وكفتته في وتر من الثياب، وحفروا له ولحدوا، ودفنوه بسرنديب بأرض الهند، وقالوا لبيه: هذه ستكم بعده.

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تِكْمٍ وَرَيْشًا وَرِبَاسًا التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ  
ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

جعل ما في الأرض منزلاً من السماء؛ لأنه قضى ثم وكتب، ومنه: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ  
الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَرْوِجَ﴾، والريش لباس الزينة، استعير من ريش الطير؛ لأنه لباسه وزينته،  
أي: أنزلنا عليكم لباسين: لباساً يوارى سؤآتكم، ولباساً يزيناكم؛ لأن الزينة غرض  
صحيح، كما قال: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨]. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النحل: ٦]، وقرأ  
عثمان - رضي الله عنه -: «وريشاً»، جمع ريش، كشعب وشعاب، ﴿وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾:  
لباس الورع، والخشية من الله - تعالى - وارتفاعه على الابتداء، وخبره إما الجملة التي  
هي: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾، كأنه قيل: ولباس التقوى هو خير؛ لأن أسماء الإشارة تقرب من  
الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر، وأما المفرد الذي هو خير؛ وذلك صفة للمبتدأ، كأنه  
قيل: ولباس التقوى المشار إليه خير، ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس  
التقوى، أو أن تكون إشارة إلى اللباس الموارى للسؤأة؛ لأن مواراة السؤأة من التقوى،  
تفضيلاً له على لباس الزينة، وقيل: لباس التقوى خير مبتدأ محذوف، أي: وهو لباس  
التقوى، ثم قيل: ذلك خير، وفي قراءة عبد الله وأبي: «ولباس التقوى خير»، وقيل:  
المراد/ ٢٣٧ ألباس التقوى: ما يلبس من الدروع، والجواشن، والمغافر<sup>(١)</sup>، وغيرها مما  
يتقى به في الحروب، وقرئ: «ولباس التقوى»، بالنصب عطفاً على «لباساً» و«ريشاً»،  
﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ﴾: الدالة على فضله ورحمته على عباده، يعني: إنزال اللباس،  
﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: فيعرفوا عظيم النعمة فيه، وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب  
ذكر بدو السؤآت، وخصف الورق عليها؛ إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس، ولما في  
العري وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب  
التقوى.

﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا  
سَوْءَ تِهْمًا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا  
يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

(١) قوله: «الجواشن والمغافر» الجواشن: هي ما ينسج من الدروع على قدر الصدر. والمغافر: ما  
ينسج منها على قدر الرأس، يلبس تحت القلنسوة.

﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾: لا يمتحننكم بالأ تداخلوا الجنة، كما محن أبويكم بأن أخرجهما منها، ﴿يَزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾: حال، أي: أخرجهما نازعاً لباسهما، بأن كان سبباً في أن نزع عنهما، ﴿إِنَّهُ يَرِنُّكُمْ هُوَ﴾: تعليل للنهي، وتحذير من فتنته، بأنه بمنزلة العدو المداجي<sup>(١)</sup>، يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون، وعن مالك بن دينار: إن عدواً يراك، ولا تراه، لشديد المؤنة إلا من عصم الله، ﴿وَقَبِيلُهُ﴾: وجنوده من الشياطين، وفيه دليل بين أن الجن لا يرون<sup>(٢)</sup>، ولا يظهرون للإنس، وأن إظهارهم أنفسهم ليس في استطاعتهم، وأن زعم من يدعي رؤيتهم زور، ومخرقة، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: خلينا بينهم وبينهم<sup>(٣)</sup> لم نكفهم عنهم حتى تولوهم، وأطاعوهم فيما سؤلوا لهم من الكفر والمعاصي، وهذا تحذير آخر أبلغ من الأول.

فإن قلت: علام عطف «وقبيله»؟

قلت: على الضمير في «يراكم» المؤكد بـ «هو» والضمير في «أنه» للشأن والحديث، وقرأ البيهقي: (وقبيله): بالنصب، وفيه وجهان: أن يعطفه على اسم «إن»، وأن تكون بمعنى «مع»، وإذا عطفه على اسم «إن»، وهو الضمير في أنه، كان راجعاً إلى إبليس.

﴿وَرِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ

أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

الفاحشة: ما تبالغ في قبحه من الذنوب، أي: إذا فعلوها اعتذروا بأن آباؤهم كانوا يفعلونها فاققدوا بهم، وبأن الله تعالى أمرهم بأن يفعلوها، وكلاهما باطل من العذر<sup>(٤)</sup>؛

(١) قوله: «العدو المداجي» في الصحاح «المداجاة» المداراة. يقال: داجيته، إذا، داريته، كأنك سائرته العداوة.

(٢) قال محمود: «وفيه دليل بين أنهم لا يرون... إلخ» قال أحمد: أين يذهب به عما ورد في الحديث الصحيح، من اعتراض إبليس رأسهم ومقدمهم للنبي ﷺ يروم أن يشغله عن صلته، حتى أمكنه الله منه فأخذ - عليه الصلاة والسلام - فدغنه وأراد أن يربطه إلى سارية من سوارى المسجد يلعب به الصبيان، حتى ذكر دعوة سليمان عليه السلام فتركه. وإذا جاز ذلك للنبي - عليه الصلاة والسلام - كان جائزاً لأولياء الله والمتبعين لسنة رسول الله ﷺ كرامة، لكن الزمخشري يصدده عن ذلك جحدته لكرامة الأولياء، لأنه عقيدة إخوانه، إذ الكرامة إنما يؤتاها الولي الصادق، فكيف ينالها من يشك في إسلامه، فإنهم لفي عذر من جحدتها والتكذيب بها. رزقنا الله الإيمان بالكرامات إن لم نكن لها أهلاً، والله الموفق.

(٣) قوله: «أي خلينا بينهم وبينهم» فسر الجعل بذلك؛ لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة. وعند أهل السنة يخلق كالخير.

(٤) قال محمود: «وكلاهما باطل من العذر لأن أحدهما... إلخ» قال أحمد: وهذا أيضاً من الاعتزال الخفي، وغرضه أن يمهد قاعدة التحسين والتفحيح، ومراعاة الصلاح والأصلح، واستحالة مخالفة =

لأن أحدهما تقليد، والتقليد ليس بطريق للعلم.

والثاني: افتراء على الله، وإلحاد في صفاته، كانوا يقولون: لو كره الله منا ما فعله، لنقلنا عنه، وعن الحسن: إن الله - تعالى - بعث محمداً - ﷺ - إلى العرب، وهم قدرية مجبرة<sup>(١)</sup>، يحملون ذنوبهم على الله؛ وتصديقه قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قَالُوا فَجِئْنَا قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلُوبُنَا إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾؛ لأن فعل القبيح مستحيل عليه<sup>(٢)</sup>؛ لعدم الداعي، ووجود الصارف، فكيف يأمر بفعله، ﴿أَنْقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: إنكار لإضافتهم القبيح إليه، وشهادة على أن مبنى قولهم على الجهل المفرط، وقيل: المراد بالفاحشة: طوافهم بالبيت عراة.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩)

﴿بِالْقِسْطِ﴾: بالعدل، وبما قام/ ٢٣٧ب في النفوس أنه مستقيم حسن عند كل مميز، وقيل: بالتوحيد، ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ﴾: «أقيموا وجوهكم» أي: اقصدا عبادته مستقيمين إليها، غير عادلين إلى غيرها، ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: في كل وقت سجود، أو في كل مكان سجود، وهو الصلاة، ﴿وَادْعُوهُ﴾: واعبدوه، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: الطاعة، مبتغين بها وجه الله خالصاً، ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾: كما أنشأكم ابتداء يعيدكم؛ احتج عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق، والمعنى: أنه يعيدكم، فيجازيكم على أعمالكم، فأخلصوا له العبادة.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ يُخَسِّبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٠)

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾: وهم الذين أسلموا، أي: وفقهم للإيمان، ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾: أي كلمة الضلالة، وعلم الله أنهم يضلون ولا يهتدون، وانتصاب قوله:

= ذلك على الله تعالى، ولا يتم من ذلك غرض؛ لأن المنكر عليهم: دعواهم أن الله تعالى أمرهم بالفحشاء، وهم كاذبون في هذه الدعوى، ولا يلزم من سلب الأمر الإرادة، لأن الله تعالى يأمر بما لا يريد، ويريد ما لا يأمر به.

(١) قوله: «وهم قدرية مجبرة»، أي: كالمجبرة يعني أهل السنة، لقولهم: إن الله يريد الشر كالخير، والإرادة هي الأمر عند المعتزلة، لكنها غيره عند أهل السنة، فالفحشاء بإرادته تعالى، لكنه لا يأمر بها. وتحقيقه في التوحيد.

(٢) قوله: «فعل القبيح مستحيل عليه» يريد أن الله لا يريد فعل القبيح؛ وهي عقيدة المعتزلة. أما عند أهل السنة فالله يريد القبيح والحسن «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن».

﴿وَقَرِيبًا﴾: بفعل مضمر يفسره ما بعده، كأنه قيل: وخذل فريقاً حق عليهم الضلالة، ﴿إِنَّهُمْ﴾: إن الفريق الذي حق عليهم الضلالة، ﴿اتَّخَذُوا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: تولوهم بالطاعة فيما أمرهم به؛ وهذا دليل على أن علم الله لا أثر له في ضلالهم، وأنهم هم الضالون باختيارهم، وتوليهم الشياطين دون الله.

﴿يَنْبَغِيءَ آدَمَ حُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

### الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

﴿حُذُوا زِينَتَكُمْ﴾ أي: ريشكم، ولباس زينتكم، ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: كلما صليتم أو طفتم، وكانوا يطوفون عراة، وعن طاوس، لم يأمرهم بالحرير، والديباج؛ وإنما كان أحدكم يطوف عرباناً ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهي عليه، ضرب، وانتزعت عنه، لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذننا فيها، وقيل: تفاؤلاً ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب، وقيل: الزينة المشط، وقيل: الطيب، والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة، وكان بنو عامر في أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتاً، ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجهم، فقال المسلمون: فإننا أحق أن نفعل، فقيل لهم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف، ومخيلة (٥٩٨)، ويحكى أن الرشيد كان له طيب نصراني حاذق، فقال لعلي بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء، والعلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان، فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، فقال النصراني: ولا يؤثر من رسولكم شيء في الطب؟ فقال: قد جمع رسولنا ﷺ - الطب في ألفاظ يسيرة، قال: وما هي؟ قال: قوله: «الْمَعْدَةُ بَيْتُ الدَّاءِ، وَالْحَمِيَّةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ، وَأَعْطَى كُلَّ بَدَنٍ مَا عَوَّدْتَهُ» فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً (٥٩٩).

٥٩٨ - علقه البخاري موقوفاً على ابن عباس (٢٦٤/١٠) كتاب اللباس: باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِبِئَابِهِ﴾، قال الحافظ: ووصله ابن أبي شيبة والدينوري. وأخرجه الثنائي في السنن الكبرى (٤١/٢) حديث (٢٣٤٠)، وابن ماجه (١١٩٢/٢): كتاب اللباس: باب البس ما شئت، ما أخطأك سرف أو مخيلة، حديث (٣٦٠٥)، وأحمد (١٨١/٢)، (١٨٢)، والحاكم في المستدرک (١٣٥/٤) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعاً إلى النبي ﷺ. قال الحافظ: أخرجه ابن أبي شيبة حدثنا سفيان عن إبراهيم بن ميسرة عن عطاء وطاوس عنه بهذا؛ لكن قال: «خلتان». وروى الثنائي وابن ماجه وأحمد والحاكم من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رفعه: «كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم تخالطوا إسرافاً ولا مخيلة». انتهى.

٥٩٩ - ذكره الزيلعي في «تخریج الکشاف» (٤٦٠/١) وقال: غريب جدا.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُعْمَلُونَ﴾ (٣٢)

﴿زِينَةَ اللَّهِ﴾: من الثياب، وكل ما يتجمل به، ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾: المستلذات من المآكل والمشارب، ومعنى الاستفهام في من: إنكار تحريم هذه الأشياء / ٢٣٨، قيل: كانوا إذا أحرموا حرّموا الشاة، وما يخرج منها من لحمها، وشحمها، ولبنها، ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ غير خالصة لهم؛ لأنّ المشركين شركاؤهم فيها، ﴿خَالِصَةٌ﴾: لهم، ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: لا يشركهم فيها أحد.

فإن قلت: هلا قيل: «هي للذين آمنوا ولغيرهم».

قلت: لينبه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الأصالة، وأن الكفرة تبع لهم؛ كقوله تعالى: ﴿ومن كفر فأمته قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار﴾ [البقرة: ١٣٦] وقرئ: «خالصة» بالنصب على الحال، وبالرفع على أنها خبر بعد خبر.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ﴾ (٣٣)

﴿الْفَوَاحِشَ﴾: ما تفاحش قبحه، أي: تزايد، وقيل: هي ما يتعلق بالفروج، ﴿وَالْإِثْمَ﴾: عام لكل ذنب، وقيل: شرب الخمر، ﴿وَالْبَغْيَ﴾: الظلم والكبر، أفردته بالذكر؛ كما قال: ﴿وَيَسْتَعْنِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالنُّكْرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]. ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾: فيه تهكم؛ لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره<sup>(١)</sup>، ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾: وأن

-----  
= وقال الحافظ: لم أجد له إسناداً.

قال الحافظ: لم أجد، وروى العقيلي في الضعفاء من رواية إبراهيم بن جريج الرهاوي عن زيد بن أبي أنيسة عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة - رفعه: «المعدة حوض البدن. والعروق إليها واردة: فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة، وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالسقم»، وقال: حديث باطل لا أصل له. وقال الدارقطني لا يصح ولا يعرف من كلام النبي ﷺ لسند إبراهيم بن جريج غير هذا وكان طيباً، فجعل له إسناداً». انتهى.

(١) قال محمود: «في هذا تهكم؛ لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره، قال أحمد: وإنما يعني التهكم منه لأن الكلام جرى مجرى ماله سلطان، إلا أنه لم ينزل؛ لأنه إنما نفى تنزيل السلطان به ولم ينف أن يكون له سلطان، وكان أصل الكلام: وأن تشركوا بالله ما لا سلطان به فينزل فيكون على طريقة [من الطويل]:»

على لا حب لا يهتدي بمناره .....

تقولوا عليه، وتفتروا الكذب من التحريم وغيره.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٢٤)

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالأمم، وقرىء: «إِذَا جَاءَ أَجَالُهُمْ»، وقال: ﴿سَاعَةً﴾؛ لأنها أقل الأوقات في استعمال الناس، يقول المستعجل لصاحبه: في ساعة، يريد أقصر وقت وأقربه.

﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنْ أَتَقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٥) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦)

﴿إِمَامًا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾: هي «إن»: الشرطية ضمت إليها «ما» مؤكدة لمعنى الشرط؛ ولذلك لزمت فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة.

فإن قلت: فما جزاء هذا الشرط؟

قلت: الفاء وما بعده من الشرط والجزاء، والمعنى: فمن اتقى وأصلح منكم، والذين كذبوا منكم.

وقرىء: «تَأْتِيَنَّكُمْ»، بالتاء.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكُفْرَانِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَقَّوهُمْ قَالُوا آيِنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (٢٧)

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾: فمن أشنع ظلماً ممن تقول على الله ما لم يقله، أو كذب ما قاله، ﴿أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكُفْرَانِ﴾ أي: مما كتب لهم من الأرزاق، والأعمار، ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا﴾: حتى غاية ليلهم نصيبهم واستيفائهم له، أي: إلى وقت وفاتهم، وهي: «حتى» التي يتبدأ بعدها الكلام، والكلام هنا الجملة الشرطية، وهي إذا جاءتهم رسلنا قالوا، و﴿يَتَوَقَّوهُمْ﴾: حال من الرسل، أي: متوفيهم، والرسل: ملك الموت وأعوانه، «وما»: وقعت موصولة بأين في خط المصحف، وكان حقها أن تفصل؛ لأنها موصولة بمعنى: أين الآلهة الذين تدعون، ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾: غابوا عنا، فلا نراهم، ولا ننتفع بهم؛ اعترافاً منهم بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه، وأنهم لم يحمده في العاقبة.

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْتُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَاؤُنَا فَآتَيْنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنَّ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَتْ أُولَهُمْ لِأُخْرَيْتُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قَالَ ادْخُلُوا﴾ أي: يقول الله - تعالى - يوم القيامة لأولئك الذين قال فيهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وهم كفار العرب، ﴿فِي أُمَمٍ﴾: في موضع الحال، أي: كائنين في جملة أمم، وفي غمارهم مصاحبين لهم، أي: ادخلوا في النار مع أمم، ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾: وتقدم زمانهم زمانكم، ﴿لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾: التي ضلت بالافتداء بها، ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا﴾ / ٢٣٨ ب أي: «تداركوا» بمعنى: تلاحقوا واجتمعوا في النار، ﴿قَالَتْ أُخْرَيْتُمْ﴾: منزلة، وهي الأتباع، والسفلة، ﴿لِأَوْلَادِهِمْ﴾: منزلة وهي القادة والرؤس، ومعنى «الأولادهم»: لأجل أولادهم؛ لأن خطابهم مع الله لا معهم، ﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾: مضاعفاً ﴿لِكُلِّ ضِعْفٍ﴾؛ لأن كلاً من القادة والأتباع كانوا ضالين مضلين، ﴿وَلَكِنَّ لَا تَعْلَمُونَ﴾: قرىء بالياء والتاء، ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾: عطفوا هذا الكلام على قول الله - تعالى - للسفلة، «لكل ضعف»، أي: فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا، وأنا متساوون في استحقاق الضعف، ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾: من قول القادة، أو من قول الله لهم جميعاً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾: لا يصعد لهم عمل صالح، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَنْبِيَاءِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿٤١﴾﴾ [المطففين: ١٨].

وقيل: إن الجنة في السماء، فالمعنى: لا يؤذن لهم في صعود السماء، ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة.

وقيل: لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين.

وقيل: لا تنزل عليهم البركة، ولا يغاثون، «بفتحنا أبواب السماء، وقرىء: «لا تفتح»، بالتشديد، ولا «يفتح» بالياء، «ولا تفتح»، بالتاء، والبناء للفاعل، ونصب

الأبواب، على أَنَّ الفعل للآيات، وبالياء على أن الفعل لله، عز وجل.

وقرأ ابن عباس: «الجمال»، بوزن القمل، وسعيد بن جبير: «الجمال»، بوزن النفر.

وقرىء: «الجمال»: بوزن القفل، و«الجمال»: بوزن النصب، و«الجمال»: بوزن الحبل، ومعناها: القلس الغيظ؛ لأنه حبال جمعت وجعلت جملة واحدة.

وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: إنَّ الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمال، يعني: أن الحبل مناسب للخيط الذي يسلك في سم الإبرة والبعير لا يناسبه، إلا أن قراءة العامة أوقع؛ لأن سم الإبرة مثل في ضيق المسلك، يقال: أضيق من خرت الإبرة، وقالوا للدليل الماهر: خريت، للاهتمام به في المضائق المشبهة بأخرات الإبر، و«الجمال»: مثل في عظم الجرم، قال: [من البسيط]

جِسْمُ الْجَمَالِ وَأَحْلَامُ الْعَصَافِيرِ<sup>(١)</sup> .....

إن الرجال ليسوا يجزر تراد منهم الأجسام، فقيل: لا يدخلون الجنة، حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان الذي لا يلج إلا في باب واسع، في ثقب الإبرة.

وعن ابن مسعود أنه سئل عن الجمال؟ فقال: زوج الناقة؛ استجهالاً للسائل، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف.

وقرىء: ﴿فِي سَيْرٍ﴾: بالحركات الثلاث، وقرأ عبد الله: «في سم المخيط»، والمخيط كالحزام والمحزم: ما يخاط به وهو الإبرة، ﴿وَكَذَلِكَ﴾: ومثل ذلك الجزاء

(١) حار بن عمرو ألا أحلام تزجركم  
لا بأس بالقوم من طول ومن عظم  
كأنهم قصب جوف أسافلهم  
عنا وأنتم من الجوف الجماخير  
جسم الجمال وأحلام العصافير  
مشقبة نفخت فيه الأعاصير

لحسان. و«حار» مرخم حارث، مبنى على الضم؛ لأنه منادى حذف قبله ياء النداء. و«الأحلام» جمع حلم بالضم: العقول. و«الجوف» بالضم: جمع أجوف، أي واسع الجوف. و«الجماخير» جمع جمخور؛ أي عظيم الجسم. يقول: كيف لا يكون لكم أحلام وأنتم عظام الأجرام، ثم بين ذلك بقوله: لا بأس ولا ضرر يعتري هؤلاء من جهة الطول والغلط، يعني: لا نقص بهم من ذلك. وفيه تهكم بهم. أو لا يستنكفون من ذلك فهم أحقاء به، أو لا بأس يعتريك بسبب القوم من أجل طولهم وغلظهم فأجسامهم كأجسام الجمال، وعقولهم كعقول العصافير إن كان لها عقل، يعني أنه لا عقل لهم. ويروى «جسم البغال» وشبههم في فراغ أجوافهم من العقل والشجاعة بالقصب: إذا انشقت أجواف أسافلهم فأعالیه أكثر. وشبه منافذ حواسهم بثقوبه الخالية عن الحس. و«الأعاصير» جمع إعصار، وهي ریح تهب مستديرة ذاهبة نحو السماء. واستعار النفخ لإدخالها الهواء فيه بقوة كالنفخ. وفي القافية الإقواء، لاختلاف حركة الروي بالكسر والضم.

ينظر: الكتاب (٧٤/٢)، الخزانة (٧٢/٤)، الدر المصون (٢٦٩/٣).

الفضيع، ﴿تَجْرِي الْمَجْرِمِينَ﴾: ليؤذن أن الإجرام هو السبب الموصل إلى العقاب، وأن كل من أجرم عوقب، وقد كرره فقال: ﴿وَكَذَلِكَ تَجْرِي الْقَلْبَمِينَ﴾؛ لأن كل مجرم ظالم لنفسه، ﴿مَهَادٌ﴾: فراش، ﴿غَوَاشٍ﴾: أغطية.

وقرىء: «غواش». بالرفع / ٢٣٩؛ كقوله تعالى: ﴿وله الجوار المنشآت﴾ [الرحمن: ٢٤] في قراءة عبد الله.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢)

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾: جملة معترضة بين المبتدأ والخبر؛ للترغيب في اكتساب ما لا يكتنه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع، وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان، والعمل الصالح، وقرأ الأعمش: «لا تكلف نفس».

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٤٣)

من كان في قلبه غل على أخيه في الدنيا، نزع منه، فسلمت قلوبهم، وطهرت، ولم يكن بينهم إلا التواضع والتعاطف، وعن علي - رضي الله عنه -: «إني لأرجو أن أكون أنا، وعثمان، وطلحة، والزبير، منهم (٦٠٠)، ﴿هَدَانَا لِهَذَا﴾ أي: وفقنا لموجب هذا الفوز العظيم، وهو الإيمان، والعمل الصالح، ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾: اللام: لتوكيد النفي<sup>(١)</sup>،

٦٠٠ - أخرجه الطبري (٤٩٣/٥) رقم (١٤٦٦٨)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٥٤٤/٧) رقم (٣٧٨٢١) من طريق ربعي بن حراش عن علي.

وأخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٨٤/٣) من طريق جعفر بن محمد عن أبيه عن علي به. قال الحافظ: أخرجه ابن سعد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه. والطبري من رواية معمر عن قتادة عن علي وكلاهما منقطع. وفي ابن أبي شيبة من رواية ربعي عن علي. وهو متصل. انتهى.

(١) قال محمود: اللام لتوكيد النفي يعنون وما كان يستقيم... إلخ» قال أحمد: وهذه تكفح وجوه القدرية بالرد، فإنها شاهدة شهادة تامة مؤكدة باللام على أن المهتدي من خلق الله له الهدى، وأن غير ذلك محال أن يكون، فلا يهتدي إلا من هدى الله، ولو لم يهده لم يهتد، وأما القدرية فيزعمون أن كل مهتد خلق لنفسه الهدى، فهو إذا مهتد وإن لم يهده الله، إذ هدى الله للعبد خلق الهدى له - وفي زعمهم أن الله تعالى لم يخلق لأحد من المهتدين الهدى، ولا يتوقف ذلك على =

ويعنون: وما كان يستقيم أن نكون مهتدين، لولا هداية الله وتوفيقه، وفي مصاحف أهل الشام: «ما كنا لنهتدي» بغير واو، على أنها جملة موضحة للأولى، ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾: فكان لنا لطفاً وتنبهاً على الاهتداء، فاهتدينا، يقولون ذلك سروراً، واغتراباً بما نالوا، وتلذذاً بالتكلم به لا تقرباً وتعبداً؛ كما نرى من رزق خيراً في الدنيا، يتكلم بنحو ذلك، ولا يتمالك ألا يقول للفرح، لا للقرية، ﴿أَنْ تَلْكُمُ الْجَنَّةُ﴾: أن مخففة من الثقلية، تقديره: ونودوا بأنه تلکم الجنة، ﴿أُورِثُوهَا﴾: والضمير ضمير الشأن، والحديث أو تكون بمعنى أي؛ لأن المناداة من القول، كأنه قيل: وقيل لهم: «أي تلکم الجنة أورثتموها»<sup>(١)</sup> ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: بسبب أعمالكم لا بالتفضل، كما تقول المبطل<sup>(٢)</sup>.

﴿وَنَادَى أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّ مُؤَذِّنًا بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَسْتَوْنَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

= خلقه - تعالى الله عما يقولون - ولما فطن الزمخشري لذلك، جرى على عادته في تحريف الهدى من الله تعالى إلى اللطف الذي بسببه يخلق العبد الاهتداء لنفسه، فأنصف من نفسك واعرض قول القائل: المهتدي من اهتدى بنفسه من غير أن يهديه الله - أي يخلق له الهدى، على قوله تعالى حكاية عن قول الموحدين في دار الحق ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ وانظر تباين هذين القولين، أعني قول المعتزلي في الدنيا، وقول الموحد في الآخرة في مقعد صدق. واختار لنفسك أي الفريقين تقتدي به، وما أراك - والخطاب لكل عاقل تعدل بهذا القول المحكي عن أولياء الله في دار السلام منوهاً به في الكتاب العزيز، قول قدرى ضال تذبذب مع هواه وتعصبه في دار الغرور والزوال، نسأل الله حسن المآب والمآل.

(١) عاد كلامه. قال: «وقوله تعالى ﴿وَوُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ المراد بسبب أعمالكم، لا بالتفضل كما تقول المبطل» قال أحمد: يعني بالمبطل قوماً سمعوا قوله عليه الصلاة والسلام «لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ولكن بفضل الله وبرحمته. قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتخمدني الله بفضل منه ورحمة» فقالوا صدق رسول الله ﷺ، وهؤلاء هم أهل السنة. قيل لهم: فما معنى قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؟ قالوا: الله تفضل بأن جعل الجنة جزاء العمل، فضلاً منه ورحمة، لا أن ذلك مستحق عليه وواجب للعباد وجوب الديون التي لا اختيار في أدائها، جمعاً بين الدليلين على وجه يطابق دليل العقل، الدال على أن الله تعالى يستحيل أن يجب عليه شيء، فانظر أيها المنصف، هل تجد في هذا الكلام من الباطل ما يوجب أن يلقب أصحابه بالمبطل؟ وحاكم نفسك إليها، ثم إذا وضع أنهم برآء في هذا البر، فاعرضه على قوم زعموا أنهم يستحقون على الله تعالى حقاً بأعمالهم التي لا ينتفع بوجودها ولا يتضرر بتركها - تعالى وتقدس عن ذلك - ويطلقون القول بلسان الجراءة أن الجنة ونعيمها أقطاعهم بحق مستحق على الله تعالى لا تفضل له عليهم فيه. بل هو بمثابة دين تقاضاه بعض الناس من مديانه. وانظر أي الفريقين المذكورين أحق بلقب المبطل، والسلام.

(٢) قوله: «كما تقول المبطل» يريد أهل السنة القائلين: دخولها بالتفضل، واقتسامها بالأعمال، كما في الحديث.

«أن» في ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا﴾: يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة، وأن تكون مفسرة كالتي سبقت آنفاً، وكذلك: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، وإنما قالوا لهم ذلك، اغتباطاً بحالهم، وشماتة بأصحاب النار، وزيادة في غمهم؛ لتكون حكايته لطفاً لمن سمعها؛ وكذلك قول المؤذن بينهم: لعنة الله على الظالمين، وهو ملك يأمره الله فينادي بينهم نداء يسمع أهل الجنة، وأهل النار.

وقرىء: «أَنْ لعنة الله»، بالتشديد، والنصب.

وقرأ الأعمش: «إن لعنة الله»، بكسر «إن» على إرادة القول، أو على إجراء «أذن» مجرى «قال».

فإن قلت: هلا قيل: «ما وعدكم ربكم»، كما قيل: «ما وعدنا»<sup>(١)</sup> ربنا؟.

قلت: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة وعدنا عليه، ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل ما وعد الله من البعث، والحساب، والثواب، والعقاب، وسائر أحوال القيامة؛ لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع، ولأن الموعود كله مما ساءهم، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم؛ فأطلق لذلك<sup>(٢)</sup>.

(١) عاد كلامه: قال: فإن قلت هلا قيل ما وعدكم ربكم كما قيل ما وعدنا... إلخ قال أحمد: ولقائل أن يقول: ولو ذكر المفعول حسب ذكره في الأول فليل: فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، لكان الفصل مطلقاً أيضاً باعتبار الموعود به، لأنه لم يذكر، فكان يتناول كل موجود من البعث والحساب والعقاب، الذي هو أنواع من جملتها التحسر على نعيم أهل الجنة، فليس ذلك خاصاً بحذف المفعول الواقع على الموعودين، فالوجه أن حذفه إيجاز وتخفيف واستغناء عنه بالأول. والله أعلم.

(٢) قال السمين الحلبي: قُلْتُ: قوله: «ولقائل... إلى آخره» هذا الجواب لا يطابق سؤاله؛ لأن المدعي حذف المفعول الأول، وهو ضمير المخاطبين، والجواب وقع بالمفعول الثاني الذي هو: الحساب والعقاب وسائر الأحوال، فهذا إنما يناسب لو سئل عن حذف المفعول الثاني، لا المفعول الأول. و«نَعَمْ» حرف جواب كأَجَلٍ وإِي وَجَبَزٍ وَبَلَى. ونقيضتها «لا». و«نَعَمْ» تكون لتصديق الإخبار، أو إعلام استخبار، أو وعد طالب. وقد يجاب بها النفي المقرون باستفهام، وهو قليل جداً، كقوله [من الوافراً]:

أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو      وَإِيَّانَا، فَذَلِكَ بَيِّنًا تَدَانِي؟  
نَعَمْ، وَتَرَى الْهَلَالَ كَمَا أَرَاهُ      وَيَغْلِبُهَا الشَّهَارُ كَمَا عَلَانِي

فأجاب قوله: «أَلَيْسَ» بـ «نَعَمْ»، وكان من حقه أن يقول: «بَلَى»، ولذلك يُرَوَى عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ لو قالوا: نَعَمْ لكفروا وفيه بحث يأتي إن شاء الله تعالى قريباً. وتكسر عينها، وبها قرأ الكسائي والأعمش ويحيى بن وثاب، وهي لغة كنانة، وطعن أبو حاتم عليها، وقال: «ليس الكسر بمعروف». واحتج الكسائي لقراءته بما يُحْكِي عن عمر بن الخطاب أنه سأل قوماً، فقالوا: نَعَمْ، بالفتح، فقال: «أما النَعَمْ فالإبل، فقولوا: نَعِم». أي بالكسر. قال أبو عبيد: «ولم تَرِ العَرَبَ يعرفون ما روه عن عمر، ونراه مولداً». قُلْتُ: هذا طعن في المتواتر، فلا =

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا سِيسِمَهُمْ ۖ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾؛ يعني: بين الجنة والنار، أو بين الفريقين، وهو السور المذكور في قوله تعالى: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ يَسُورًا﴾ [الحديد: ١٣]. ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ﴾: وعلى أعراف الحجاب، وهو السور المضروب بين الجنة والنار، وهي أعاليه، جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك، ﴿رِجَالٌ﴾: من المسلمين من آخرهم دخولا في الجنة؛ لقصور / ٢٣٩ ب أعمالهم، كأنهم المرجون لأمر الله، يحبسون بين الجنة والنار إلى أن يأذن الله لهم في دخول الجنة، ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾: من زمر السعداء والأشقياء، ﴿سِيسِمَهُمْ﴾: بعلامتهم التي أعلمهم الله - تعالى - بها، يلهمهم الله ذلك، أو تعرفهم الملائكة.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصُرُهُمْ إِلَيْكَ أَعْيَبَ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ يَادَى أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْتَوْلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا يَخُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا أَنْتُمْ تُحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

إذا نظروا إلى أصحاب الجنة نادوهم بالتسليم عليهم، ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصُرُهُمْ إِلَيْكَ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ﴾: ورأوا ما هم فيه من العذاب، استعاذوا بالله، وفرغوا إلى رحمته ألا يجعلهم معهم، ونادوا رجالاً من رؤوس الكفرة يقولون لهم: ﴿أَهْتَوْلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾: إشارة لهم إلى أهل الجنة، الذين كان الرؤساء يستهينون بهم، ويحتقرونهم؛ لفقيرهم، وقلة حظوظهم من الدنيا، وكانوا يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة، ﴿أَدْخَلُوا

= يقبل. وتبدل عينها حاء، وهي لغة فاشية، كما تُبَدَّلُ حاء «حَتَّى» عيناً. وقوله: «بَيْنَهُمْ» يجوز أن يكون منصوباً بـ «أَذُنْ»، أو بـ «مُؤَذَّنْ»، وأن يكون متعلقاً بمحذوف، على أنه صفة لـ «مُؤَذَّنْ». قال مكي - عند إجازته هذا الوجه -: «ولكن لا يعمل «أَنْ» في «مُؤَذَّنْ»، إذ قد نعته؛ يعني أن قوله: «أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ» لا يجوز أن تكون معمولة لـ «مُؤَذَّنْ»، لأنه موصوف، واسم الفاعل متى وصف لم يعمل. قُلْتُ: هذا يوهم أنا إذا لم نجعل «بَيْنَهُمْ» نعناً لـ «مُؤَذَّنْ» جاز أن يعمل في «أَنْ»، وليس الأمر كذلك، لأنك لو قلت: «ضرب ضَارِبٌ زَيْدًا»، فإنك تنصب «زيداً» بـ «ضَرَبَ»، لا بـ «ضَارِبَ»، لكني قد رأيت الواحدي أجاز ما أجاز مكي من كون «مُؤَذَّنْ» عاملاً في «أَنْ»، وإذا وصفته امتنع ذلك، وفيه ما تقدم، وهو حسن. و «أَنْ» يجوز أن تكون الْمُفَسَّرَة، وأن تكون المخففة، والجملة الاسمية بعدها الخير، فلا حاجة هنا لفاصل. وقرأ الأخوان وابن عامر والبيزي: «أَنْ» بفتح الهمزة وتشديد النون، ونصب «اللجنة» على أنها اسمها، و«عَلَى الظَّالِمِينَ» خبرها، وكذلك في النور «أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴿حُفَّتْ «أَنْ» ورفع «اللجنة» نافعٌ وحده والباقون بالتشديد والنصب. وقرأ عصمة عن الأعمش «إِنَّ» بالكسر والتشديد، وذلك إما على إضمار القول عند البصريين، وإما على إجراء النداء مُجْرَى القول عند الكوفيين. انتهى. الدر المصون.

الْجَنَّةَ ﴿: يقال لأصحاب الأعراف: «ادخلوا الجنة»، وذلك بعد أن يجلسوا على الأعراف، وينظروا إلى الفريقين، ويعرفوهم بسيماهم، ويقولوا ما يقولون؛ وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدّم والتأخر على حسنهما، وأن أحداً لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه، وليرغب السامعون في حال السابقين، ويحرصوا على إحراز قصبتهن، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيماه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر، فيرتدع المسيء عن إساءته، ويزيد المحسن في إحسانه، وليعلم أنّ العصاة يوبخهم كل أحد حتى أقصر الناس عملاً، وقوله: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ﴾: فيه أن صارفاً يصرف أبصارهم؛ لينظروا، فيستعيدوا، ويوبخوا.

وقرأ الأعمش: «وإذا قلبت أبصارهم».

وقرىء: «أدخلوا الجنة»، على البناء للمفعول.

وقرأ عكرمة: دخلوا الجنة.

فإن قلت: كيف لآءم هاتين القراءتين قوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾؟

قلت: تأويله: «أدخلوا»، أو دخلوا الجنة مقولاً لهم: «لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون».

فإن قلت: ما محل قوله: لم يدخلوها وهم يطمعون؟

قلت: لا محل له؛ لأنه استئناف، كأن سائلاً سأل عن حال أصحاب الأعراف، ف قيل: لم يدخلوها وهم يطمعون، يعني: حالهم أنّ دخولهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة، فلم يدخلوها؛ لكونهم محبوسين وهم يطمعون لم يياسوا، ويجوز أن يكون له محل، بأن يقع صفة لرجال، ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾: المال، أو كثرتمكم، واجتماعكم، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾: واستكباركم عن الحق وعلى الناس.

وقرىء: تستكبرون، من الكثرة.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِتَائِبِينَ﴾  
يَجْحَدُونَ ﴿٥٦﴾

﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا﴾: فيه دليل على أن الجنة فوق النار، ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾: من غيره

من الأشربة؛ لدخوله في حكم الإفاضة، ويجوز أن يراد/ ٢٤٠أ: أو ألقوا علينا مما رزقكم الله، من الطعام، والفاكهة؛ كقوله: [من الرجز]

عَلَفْتَهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا<sup>(١)</sup>

وإنما يطلبون ذلك مع بأسهم من الإجابة إليه حيرة في أمرهم، كما يفعل المضطر لممتحن، ﴿حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾: منعهم شراب الجنة، وطعامها، كما يمنع المكلف ما يحرم عليه ويحظر؛ كقوله: [من الطويل]  
حَرَامٌ عَلَى عَيْنِي أَنْ تَطْعَمَ الْكَرَى<sup>(٢)</sup>

﴿فَالْيَوْمَ نَسْتَهْتُمْ﴾: نفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عبيدهم من الخير، لا يذكرونهم به، ﴿كَمَا سَأُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾: كما فعلوا بلقائه فعل الناسين، فلم يخطروه بيالهم ولم يهتموا به.

﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْوٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُمْ يَقُولُ الْذَّيْبُ سَوْهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾

(١) لما حططت الرحل عنها واردة علفتها تبناً وماء باردا

يقول: لما حططت الرحل عن الناقة حال كونها واردة للماء، علفتها تبناً وسقيتها ماء بارداً، على حذف العامل في ماء. ويحتمل أن المعنى: ناولتها تبناً وماء على التجوز في العلف، وذلك لأن الماء لا يكون معلوقاً لها. ويجوز أن يكون مفعولاً معه، أي: علفتها تبناً مصاحباً للماء، فلا يلزم أن يكون الماء معلوقاً، ومنعه لأن الماء لا يصاحب التبن في العلف، فيه نظر؛ لجواز أنه وضع لها التبن ووضع لها ماء معه، لتناول ما شاءت. ورواية الفراء هكذا:

علفتها تبناً وماء بارداً حتى شتت همالة عينها

وشتوت بموضع كذا: أقمت به زمن الشتاء، أي حتى كانت زمن الشتاء همالة: أي كثيرة الدموع عينها؛ فهالة: نصب على الحال، وعيناها: فاعل به. ويروى: حتى غدت، وحتى بدت. البيت ينظر: مشاهد الإنصاف ٨٥/٢، حاشية الشهاب ١٧٢/٤، الدر المصون ٢٧٨/٣.

(٢) حرام على عيني أن تطعم الكرى وأن ترقأ حتى ألقىك يا هند

«الكرى» النعاس، وهو أول النوم. يقال: كرى يكرى كرى، من باب تعب إذا نعس. وشبه بالمطعم على طريق المكنية. و«أن تطعم» أي تذوقا تخييل. ورقاً الدمع والدم - بالهمز -: سكن. وإسناده للعين مجاز عقلي، لأنه للدمع. ويحتمل أنه استعار ترقأً لغمضا، لأن فيه سكون الجفون. يقول: ممتنع على المكلف، ففيه استعارة تصريحية حتى ألقىك يا هند، وأنال من نوالك. وفي النداء معنى التفجع.

﴿فَصَلَّنُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: عالمين كيف نفصل أحكامه، ومواعظه، وقصصه، وسائر معانيه، حتى جاء حكيمًا قيمًا غير ذي عوج.

وقرأ ابن محيصة: «فضلناه»، بالضاد المعجمة، بمعنى: فضلناه على جميع الكتب، عالمين أنه أهل للتفضيل عليها، و﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾: حال من منصوب «فضلناه»، كما أن على علم حال من مرفوعه، ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾: إلا عاقبة أمره، وما يؤول إليه من تبين صدقه، وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد، ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: تبين وصح أنهم جاؤا بالحق، ﴿نُزُودًا﴾: جملة معطوفة على الجملة التي قبلها، داخلة معها في حكم الاستفهام؛ كأنه قيل: هل لنا من شفاء، أو هل نرد، ورافعه وقوعه موقعاً يصلح للاسم، كما تقول ابتداء: هل يضرب زيد؟ ولا يطلب له فعل آخر يعطف عليه، فلا يقدر: هل يشفع لنا شافع أو نرد.

وقرأ ابن أبي إسحاق: «أو نرد»، بالنصب عطفًا على «يفشفعوا لنا»، أو تكون «أو» بمعنى «حتى أن» أي: يشفعوا لنا حتى نرد فنعمل، وقرأ الحسن بنصب: «نرد»، ورفع «فنعمل» بمعنى: فنحن نعمل.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ  
الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ  
تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿يُغْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ﴾، وقرئ «يغشى» بالتشديد، أي: يلحق الليل النهار، والنهار بالليل يحتملها جميعاً؛ والدليل على الثاني قراءة حميد بن قيس: «يغشى الليل النهار»، بفتح الياء، «ونصب الليل»، «ورفع النهار»<sup>(١)</sup>، أي: يدرك النهار الليل، ويطلبه حيثاً، حسن الملازمة لقراءة حميد، ﴿بِأَمْرِهِ﴾: بمشيئته، وتصريفه، وهو متعلق بمسخرات، أي: خلقهن جاريات بمقتضى حكمته، وتدبيره، وكما يريد أن يصرفها سمي ذلك أمراً على التشبيه، كأنهن مأمورات بذلك.

وقرئ: «والشمس والقمر والنجوم مسخرات»، بالرفع، ولما ذكر أنه خلقهن

(١) قال السمين الحلبي: وقد روى الزمخشري قراءة حميد، كما رواها أبو الفتح، فإنه قال: «يغشى» بالتشديد، أي: يلحق الليل بالنهار، أو النهار بالليل، يحتملها جميعاً، والدليل على الثاني قراءة حميد بن قيس «يغشى» بفتح الياء، ونصب «الليل»، ورفع «النهار» انتهى. وفيما قاله أبو القاسم نظر، لما ذكرت لك من أن الآية الكريمة مما يجب فيها تقديم الفاعل المعنوي، وكان أبا القاسم تبع أبا الفتح في ذلك، فلم يلتفت إلى هذه القاعدة المذكورة سهواً. انتهى. الدر المنصور.

مسخرات بأمره قال: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي: هو الذي خلق الأشياء كلها، وهو الذي صرفها على حسب إرادته.

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا نِّقَالًا سَفَقْنَاهُ لِبَدًا فَمِيتٌ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) ﴿

﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾: نصب على الحال، أي: ذوي تضرع وخفية، وكذلك خوفًا، وطمعًا، والتضرع تفعل من الضراعة<sup>(١)</sup>، وهو الذل، أي تذللًا وتملقًا.

وقرىء: «وخفية»<sup>(٢)</sup> وعن الحسن - رضي الله عنه -: إن الله يعلم القلب التقى، والدعاء الخفي، إن كان/ ٢٤٠ ب الرجل لقد جمع القرآن، وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير، ولا يشعر الناس به، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة، وعنده الزور، وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرين على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدأ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم؛ وذلك أن الله - تعالى - يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وقد أثنى على زكريا، فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَاؤُهُ خَفِيًّا﴾ (٣) [مریم: ٣]، وبين دعوة السر، ودعوة العلانية سبعون ضعفاً، ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي:

- (١) قال محمود: «التضرع تفعل من الضراعة وهي الذل... إلخ» قال أحمد: وحسبك في تعين الأسرار في الدعاء اقتترانه بالتضرع في الآية. فالإخلال به كالإخلال بالضراعة إلى الله في الدعاء وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى «فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح في الدعاء، خصوصاً في الجوامع حتى يعظم اللغط ويشتد، وتستد المسامع وتستد، ويهتز الداعي بالناس، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين: رفع الصوت في الدعاء، وفي المسجد. وربما حصلت للعوام حينئذ رقة، لا تحصل مع خفض الصوت ورعاية سمت الوقار وسلوك السنة الثابتة بالآثار، وما هي إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال، ليست خارجة عن صميم الفؤاد، لأنها لو كانت من أصل لكانت عند اتباع السنة في الدعاء وفي خفض الصوت به أوفر وأوفى وأزكى، فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثير من الخلق، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.
- (٢) قوله: «وقرىء: وخفية» لعل هذه بالكسر.

المجاورين ما أمروا به في كل شيء من الدعاء وغيره، وعن ابن جريج: هو رفع الصوت بالدعاء، وعنه: الصياح في الدعاء مكروه وبدعة، وقيل: هو الإسهاب في الدعاء، وعن النبي - ﷺ -: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَغْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ، وَحَسْبُ الْمَرْءِ أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ» (٦٠١) ثم قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّ الْمُنْتَدِينَ﴾ ﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾؛ كقوله: ﴿وَإِنِّي لَفَقَارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [طه: ٨٢]. وإنما ذكر: (قريب) على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة موصوف محذوف، أي: شيء قريب، أو على تشبيهه بفعيل الذي هو بمعنى: «مفعول» كما شبه ذلك به، فقيل: قتلاء وأسراء، أو على أنه بزنة المصدر، الذي هو النقيض والضعيف<sup>(١)</sup>، أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي.

قرىء: «نشراً» وهو مصدر نشر، وانتصابه: إمّا لأن أرسل ونشر متقاربان، فكأنه قيل: نشرها نشرأ، وإمّا على الحال بمعنى منتشرات، و«نشرأ» جمع نشور، و«نشرأ» تخفيف نشر، كرسل ورسل.

وقرأ مسروق: «نشرأ»، بمعنى: منشورات، فعل بمعنى مفعول، كنقض وحسب، ومنه قولهم: «ضم نشره»، وبشرأ جمع بشير، وبشرأ بتخفيفه، وبشرأ - بفتح الباء - مصدر من بشره بمعنى بشره، أي: باشرات، وبشرى، ﴿بَيْتٌ يَدْعَى رَحْمَتَهُ﴾: أمام رحمته، وهي

٦٠١ - أخرجه أبو داود (٧٧/٢) كتاب الصلاة: باب الدعاء حديث (١٤٨٠)، وأحمد (١٧٢/١)، (١٨٣)، وابن أبي شيبة (٢٨٨/١٠)، والطبراني في «الدعاء» (٥٥، ٥٦) من حديث سعد بن أبي وقاص به. قال الحافظ:

أخرجه أبو يعلى من رواية شعبة عن زياد بن مهران عن قيس بن عنان عن مولى لسعد بن سعد سمع ابناً له يقول: «اللهم إني أسألك الجنة وغرفها وكذا وكذا. وأعوذ بك من النار وأغلالها وكذا وكذا. فقال: لقد سألت الله خيراً وتعوذت به من شر كثير. وإني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: سيكون قوم يعتدون في الدعاء وبحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة - الخير - وقال في آخره: لا أدري قوله: وبحسبك إلى آخره من قول سعد أو من قول النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -.

ورواه أبو داود الطيالسي والبيهقي في الدعوات من طريقه. عن سعد بسنده، إلا أنه قال: «وبحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك من الخير كله ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم، وفي الباب عن عبد الله بن معقل أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن جبان والحاكم. انتهى.

(١) قوله: «هو النقيض والضعيف» النقيض: هو صوت العقاب وصوت المحمل، والضعيف: صوت الأرنب.

الغيث الذي هو من أتمّ النعم، وأجلها، وأحسنها أثراً، ﴿أَقَلَّتْ﴾: حملت ورفعت، واشتقاق الإقلال من القلة؛ لأنّ الرافع المطبق يرى الذي يرفعه قليلاً، ﴿سَكَابًا ثِقَالًا﴾: سحاب ثقلاً بالماء، جمع سحابة، ﴿سُقْنَةُ﴾: الضمير للسحاب على اللفظ، ولو حمل على المعنى كالثقال لأنت، كما لو حمل الوصف على اللفظ لقليل: ثقيلاً، ﴿إِلَكِدْرٍ مَيِّنَةٍ﴾: لأجل بلد ليس فيه حيّاً ولسقيه.

وقرىء: «ميت»، ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ﴾: بالبلد، أو بالسحاب، أو بالسوق، وكذلك: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ... كَذَلِكَ﴾: مثل / ٢٤١ ذلك الإخراج، وهو إخراج الثمرات، ﴿مُخْرِجُ الْمَوْتِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فيؤذيكم التذكر إلى أنه لا فرق بين الإخراجين، إذ كل واحد منهما إعادة للشيء بعد إنشائه، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾: الأرض العذبة الكريمة التربة، ﴿وَالَّذِي خَبِثَ﴾: الأرض السبخة التي لا تنبت ما ينتفع به، ﴿بِأَذْنِ رَبِّهِ﴾: بتيسيره، وهو في موضع الحال، كأنه قيل: يخرج نباته حسناً وافياً؛ لأنه واقع في مقابلة ﴿نَكَدًا﴾، والنكد الذي لا خير فيه. وقرىء: يخرج نباته، أي: يخرج البلد وينبته. وقوله: «والذي خبث»: صفة لـ «البلد»، ومعناه: والبلد الخبيث لا يخرج نباته إلا نكداً، فحذف المضاف الذي هو النبات، وأقيم المضاف إليه الذي هو الراجع إلى البلد مقامه، إلا أنه كان مجروراً بارزاً، فانقلب مرفوعاً مستكناً؛ لوقوعه موقع الفاعل، أو يقدر: «نبات الذي خبث».

وقرىء: «نكداً»، بفتح الكاف على المصدر، أي: ذا نكد، ونكداً، بإسكانها للتخفيف؛ كقوله: نزه عن الريب، بمعنى: نزه، وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ، والتنبيه من المكلفين، ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك، وعن مجاهد: آدم وذريته منهم خبيث وطيب.

وعن قتادة: المؤمن سمع كتاب الله، فوعاه بعقله، وانتفع به، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت، والكافر بخلاف ذلك، وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر المطر، وإنزاله بالبلد الميت، وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد، ﴿كَذَلِكَ﴾: مثل ذكر التصريف، ﴿صُرْفُ الْآيَاتِ﴾: نرددها ونكرتها، ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾: نعمة الله وهم المؤمنون، ليفكروا فيها ويعتبروا بها.

وقرىء: «يصرف»، بالياء، أي: يصرفها الله.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ

عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾: جواب قسم محذوف.

فإن قُلْتُ: ما لهم لا يكادون ينطقون بهذه اللام، إلا مع «قد»، وقُلْ عنهم؛ نحو قوله: [من الطويل]

حَلَفْتُ لَهَا بِاللهِ حِلْفَةً فَاجِرٍ لَنَامُوا.....<sup>(١)</sup>

قلت: إنما كان ذلك؛ لأن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيداً للجملة المقسم عليها، التي هي جوابها، فكانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو معنى «قد» عند استماع المخاطب كلمة القسم.

قيل: أرسل نوح - عليه السلام - وهو ابن خمسين سنة، وكان نجاراً، وهو نوح بن ملك بن متوشلخ بن أخنوخ، وأخنوخ اسم إدريس النبي عليه السلام.

(١) فقالت سبأك الله إنك فاضحي  
حلفت لها بالله حلفة فاجر  
فأصبحت معشوقاً وأصبح بعلها  
يغط غطيظ البكر شد خناقه  
أبقتلني والمشرقي مضاجعي  
ألست ترى السمار والنار أحوالي  
لناموا فما إن من حديث ولا صال  
عليه قتام كاسف الظن والبال  
ليقتلني والمرء ليس بقتال  
ومسنونة زرق كأنياب أغوال

لامرئ القيس. يقول: ضجرت محبوبتي سلمى حين ترقبتها ليلاً مع أن الرقباء حولها. والسمار: جمع سامر، بمعنى المتحدث ليلاً. وأحوال: جمع حول، بمعنى جانب، فيفيد كثرة الناس وانتشارهم في جوانبها. والمنقول أنه على صورة الجمع وليس جمعاً، وكذا تثنيته، لأنه حول الشيء وحوليه وأحواله وأحواليه وحواله وحواليه، كلها بمعنى جانبه المحيط به، ويمكن أن يراد بالمفرد: مطلق الجانب مجازاً، فيثنى ويجمع حقيقة، والكثير في الماضي المجاب به القسم قرنه بقَد، بل قيل: إن لم توجد فيه قدرت قيل، لأن الجواب مظنة للتوقع الذي هو معنى «قد» لسماع القسم أولاً. و«إن» و«من» زائدتان للتوكيد، والحديث: بمعنى المتحدث ليطابق ما بعده. والصالى: المصطلى بالنار. وهاننا حذف دل عليه المقام. أي فسمحت فنلت منها مرادي، فأعجبته فأصبحت معشوقاً وقد كنت عاشقاً، وأصبح زوجها عليه قتام: وهو الغبار وسواد الوجه، كاسف الظن: منعكسه، فهو مجاز. وكاسف البال: حزين القلب، أو سيء الحال. والغطيظ: ارتفاع صوت النفس عند الخنق والنعاس ونحو ذلك. والبكر: الفتى من الإبل. والخناق: حبل يخنق به كالحزام لما يتحزم به، والإسار لما يربط به الأسير. وقوله: ليس بقتال، أي كما يزعم أنه شجاع. والمشرقي: السيف، نسبة إلى مشارف جمع مشرف كجعفر، وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف وشبهه بالمضاجع لامتداده بجانبه وملازمته له، والمسنونة النبال: المحددة الأطراف. والزرق: جمع زرقاء، الصافيات اللون. وشبهها بأنياب الأغوال في حدة الأطراف، واستشاع كل عند النفوس. وهذا لا يستلزم وجود الغول ورؤية نابها، وإن زعمته العرب.

ينظر ديوانه ص ٣٢، والأزهية ص ٥٢، والجنى الداني ص ١٣٥، وخزانة الأدب ٧١/١٠، ٧٣، ٧٤، ٧٧، ٧٩، والدرر ١٠٦/٢، ٢٣١/٤، وسر صناعة الإعراب ٣٧٤/١، ٣٩٣، ٤٠٢، وشرح شواهد المغني ٣٤١/١، ٤٩٤، وشرح المفضل لابن يعيش ٢٠/٩، ٩٧، ولسان العرب (حلف)، وبلا نسبة في جواهر الأدب ص ٧٧، ووصف المباني ص ١١٠، ومغني اللبيب ١٧٣/١، وهمع الهوامع ١٢٤/١، ٤٢/٢.

وقرىء: «غيره»، بالحركات الثلاث، فالرفع على المحل؛ كأنه قيل: ما لكم إله غيره، والجبر على اللفظ، والنصب على الاستثناء، بمعنى: ما لكم من إله إلا إياه؛ كقولك: ما في الدار من أحد إلا زيد أو غير زيد.

فإن قلت: فما موقع الجملتين بعد قوله: «اعبدوا الله»؟

قلت: الأولى بيان لوجه اختصاصه بالعبادة.

والثانية: بيان للداعي إلى عبادته؛ لأنه هو المحذور عقابه دون ما كانوا يعبدونه/ ٢٤١ ب من دون الله، واليوم العظيم: يوم القيامة، أو يوم نزول العذاب عليهم، وهو الطوفان.

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَ يَفْقَهُم لَيْسَ بِي ضَلَالٌ وَلَا كِنَى رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ أَبْلَغَكُمْ رَسُولٌ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

﴿الْمَلَأُ﴾: الأشراف والسادة، وقيل: الرجال ليس معهم نساء، ﴿فِي ضَلَالٍ﴾: في ذهاب عن طريق الصواب والحق، ومعنى الرؤية: رؤية القلب.

فإن قلت: لم قال: ﴿لَيْسَ بِي ضَلَالٌ﴾، ولم يقل: ضلال<sup>(١)</sup> كما قالوا؟

قلت: الضلالة أخص من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه؛ كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل لك: ألك تمر، فقلت: مالي تمر.

فإن قلت: كيف وقع قوله ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ﴾ استدراكاً للانتهاء عن الضلالة؟

قلت: كونه رسولاً من الله، مبلغاً رسالاته، ناصحاً، في معنى كونه على الصراط المستقيم، فصح لذلك أن يكون استدراكاً للانتهاء عن الضلالة.

وقرىء: «أبلغكم»، بالتخفيف.

(١) قال محمود: «إن قلت لم قال ليس بي ضلالة ولم يقل ضلال... إلخ؟ قال أحمد: تعليقه كون نفيها أبلغ من نفي الضلال بأنها أخص منه، غير مستقيم والله أعلم، فإن نفي الأخص أعم من نفي الأعم، فلا يستلزمه ضرورة أن الأعم لا يستلزم الأخص، بخلاف العكس. ألا تراك إذا قلت: هذا ليس بإنسان، لم يستلزم ذلك أن لا يكون حيواناً. ولو قلت: هذا ليس بحيوان، لاستلزم أن لا يكون إنساناً، فنفي الأعم كما ترى أبلغ من نفي الأخص. والتحقيق في الجواب أن يقال: الضلالة أدنى من الضلال وأقل، لأنها لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة منه. وأما الضلال فينتقل على القليل والكثير من جنسه، ونفي الأدنى أبلغ من نفي الأعلى، لا من حيث كونه أخص، وهو من باب التنبه بالأدنى على الأعلى، والله أعلم.

فإن قلت: كيف موقع قوله: «أبلغكم»<sup>(١)</sup>؟

قلت: فيه وجهان: أحدهما: أن يكون كلاماً مستأنفاً بياناً لكونه رسول رب العالمين.  
والثاني: أن يكن صفة لـ «رسول».

فإن قلت: كيف جاز أن يكون صفة، والرسول لفظه لفظ الغائب؟

قلت: جاز ذلك؛ لأن الرسول وقع خبراً عن ضمير المخاطب، وكان معناه: كما  
قال: [من الرجز]

أنا الذي سمّنتي أمي حيدرة<sup>(٢)</sup>

(١) قال محمود: «إن قلت كيف موقع قوله (أبلغكم)؟ قلت فيه وجهان... إلخ» قال أحمد: وقد  
استدرك ابن جنى قول أبي الطيب:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

عدولاً عن لفظ الغيبة لو كان إلى أدبه، وهذه الآية والرجز العلوي كفيلاً بتحسين ما ارتكبه أبو  
الطيب.

(٢) أنا الذي سمّنتي أمي حيدرة كليلث غابات كرية المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندره أضربكم ضرباً يبين الفقره

للإمام علي - رضي الله عنه - حين بارز مرجبا اليهودي يوم خيبر، فقال مرجبا [من الرجز]:

قد علمت خيبر أنني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلتهب

فأجابه علي بذلك «وكانت أمه فاطمة بنت أمّ سمته كاسم أبيها، لأن «حيدرة» من أسماء الأسد،  
فلما حضر أبو طالب سماه علياً. وسمى الأسد «حيدرة» لشدة انحداره على من يصلو عليه.  
والليث: اسم جامد له، واشتقوا منه، لايته إذا عامله معاملة الليث. والغابة: بيته الذي يغيب فيه.  
والسندرة: اسم امرأة كانت تبيع البر وتوفي الكيل، أو مكيال كبير. وكان الظاهر أن يقول: الذي  
سمته أمه ليطابق الضمير مرجعه وهو الموصول في الغيبة. ولكن أتى بضمير المتكلم ذهاباً إلى  
المعنى. وحسنه تقدم ضمير المتكلم، أي أنا الشجاع الذي ظهرت على أمانة الشجاعة من صغري،  
فسمّنتي أمي باسم الأسد، ولا أكذبها في ظنها، وأنا كليلث غابات منظرته كرية لعبوسي في وجه  
عدوي، ثم قال: أو في الأعداء، أي أعطيهم عطاء وافيّاً. وكيل السندرة: نصب به على المفعول  
المطلق، أو بمقدر: أي أكيل لهم مثل كيل تلك المرأة في الوفاء، أو أعطيهم بالصاع الصغير كيل  
المكيال الكبير. ويروى: أوفيهم بالسيف. وهذا من باب الاستعارة التمثيلية التهكمية، شبه هيئة  
إيصاله الطعام إلى الأعداء بكثرة في مقابلة مكروه يفرط منهم. بهيئة إيصال البر بالكيل في مقابلة  
ثمنه، وإن كان البر محبوباً والظمن مكروهاً، والتفت مفسراً ذلك بقوله أضربكم ضرباً يبين، أي  
يفصل الفقرة: جمعها فقار، وفقرات. وهي عظام الظهر، وقد علمت خيبر، أي أهلها. وشاكي  
السلاح. حاده وثلمه. يجوز أنه نعت مرحب. ويجوز أنه خبر بعد خبر. وبطل مجرب: خبر بعد  
خبر لا غير. واستعار الالتهاب لاشتداد الحروب على طريق التصريح.

ينظر ديوانه ص ٧٧، ولسان العرب (حدر)، (سندر)، وتاج العروس (غيب)، (قسر)، وأساس =

﴿رسالات ربي﴾: ما أوحى إليّ في الأوقات المتطاولة، أو في المعاني المختلفة من الأوامر والنواهي، والمواعظ والزواجر، والبشائر والنذائر، ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جدّه إدريس، وهي ثلاثون صحيفة، ومن صحف شيث وهي خمسون صحيفة، ﴿وَأَصْحُ لَكُمُ﴾: يقال: نصحت له، ونصحت له، وفي زيادة اللام مبالغة، ودلالة على إمحاض النصيحة، وأنها وقعت خالصة للمنصوح له، مقصوداً بها جانبه لا غير. فرب نصيحة ينتفع بها الناصح، فيقصد النفعين جميعاً، ولا نصيحة أمحض من نصيحة الله - تعالى - ورسله - عليهم السلام - ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: من صفات الله وأحواله، يعني: قدرته الباهرة، وشدة بطشه على أعدائه، وأن بأسه لا يرذ عن القوم المجرمين.

وقيل: لم يسمعوا بقوم حلّ بهم العذاب قبلهم فكانوا آمنين لا يعلمون ما علمه نوح بروحي الله إليه، أو أراد: وأعلم من جهة الله أشياء لا علم لكم بها قد أوحى إليّ بها.

﴿أَوْ عَجَبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٦٣)

﴿أَوْ عَجَبْتُمْ﴾ الهمزة: للإنكار، والواو: للعطف، والمعطوف عليه محذوف، كأنه قيل: أكنذبتم وعجبتم، ﴿أَنْ جَاءَكُمْ﴾: من أن جاءكم، ﴿وَذِكْرِي﴾: موعظة، ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾: على لسان رجل منكم؛ كقوله: ﴿مَا وَعَدْنَا عَلَى رُسُلِكِ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، وذلك أنهم يتعجبون من نبوة نوح - عليه السلام - ويقولون: ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين، يعنون إرسال البشر، ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة / ٢٤٢، ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا﴾: ليحذركم عاقبة الكفر، وليوجد منكم التقوى، وهي الخشية، بسبب الإنذار، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

عَمِينَ﴾ (٦٤)

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ قيل: كانوا أربعين رجلاً، وأربعين امرأة.

وقيل: تسعة، بنوه: سام، وحام، ويافث، وستة ممن آمن به.

= البلاغة (قسر)، وأدب الكاتب ص ٧١، وخرانة الأدب ٦/٦٢، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٦٧، والدرر ١/ ٢٨٠، وبلا نسبة في خزانة الأدب ٢/٢٩٤، ٩٠/٦، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١٠٧٨، وجمع الهوامع ٨٦/١.

فإن قلت: ﴿فِي الْفَلَكِ﴾ بم يتعلق؟

قلت: هو متعلق بمعه، كأنه قيل: والذين استقروا معه في الفلك أو صحبوه في الفلك، ويجوز أن يتعلق بفعل الإنجاء، أي: أنجيناها من السفينة من الطوفان، ﴿عَمِي﴾: عمي القلوب غير مستبصرين.

وقرىء: «عامين»، والفرق بين العمي والعامي، أن «العمي» يدل على عمى ثابت، و«العامي» على عمى حادث؛ ونحوه قوله ﴿وَصَافِقُ يَوْمَ صَدْرِكَ﴾ [هود: ١٢].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِ هُودٍ﴾ قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٦﴾ قَالَ يَنْقُورِ لَيْسَ بِ سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ أَيْلَعُكُمْ رَسُولَتِي رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿١٩﴾

﴿أَخَاهُمْ﴾: واحداً منهم، من قولك: يا أخا العرب، للواحد منهم، وإنما جعل واحداً منهم؛ لأنهم أفهم عن رجل منهم، وأعرف بحاله في صدقه وأمانته، وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح، وأخاهم: عطف على نوحا، و﴿هُوداً﴾: عطف بيان له.

فإن قلت: لم حذف العاطف من قوله: ﴿فَقَالَ يَنْقُورِ﴾، ولم يقل: «فقال» كما في قصة نوح<sup>(١)</sup>؟

قلت: هو على تقدير سؤال سائل قال: فما قال لهم هود؟ فقيل: قال يا قوم، اعبدوا الله، وكذلك: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾.

فإن قلت: لم وصف الملاء ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ دون الملاء من قوم نوح؟

(١) قال محمود: «فإن قلت: لم حذف العاطف من قوله تعالى في قصة هود هذه: ﴿قَالَ يَنْقُورِ﴾ ولم يقل (فقال)؟ قلت لأنه أخرج الكلام جواباً عن سؤال سائل، كأنه قيل: فما قال هود حينئذ؟ قيل: قال يا قوم، وكذلك قال الملاء، قال أحمد: وحذف العاطف من المقابلة. ألا ترى قوله في سورة الشراء حكاية عن تقاويل موسى - عليه السلام - وفرعون، كيف أسقط ذكر العاطف منه على كثرة الأقوال المعددة فيها. والسر في ذلك - والله أعلم - أن العاطف ينتظم الجمل حتى يصيرها كالجملة الواحدة «فاجتنب لإرادة استقلال كل واحدة منها في معناها» والله أعلم.

قلت: كان في أشرف قوم هود من آمن به، منهم مرثد بن سعد الذي أسلم، وكان يكتُم إسلامه، فأريدت التفرقة بالوصف، ولم يكن في أشرف قوم نوح مؤمن<sup>(١)</sup>؛ ونحوه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِفَاءِ الْآخِرَةِ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذم لا غير، ﴿فِي سَفَاهَةٍ﴾: في خفة حلم وسخافة عقل؛ حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر، وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز: أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها، وفي إجابة الأنبياء - عليهم السلام - من نسبهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم، والإغضاء، وترك المقابلة، بما قالوا لهم، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم - أدب حسن وخلق عظيم، وحكاية الله - عز وجل - ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء، وكيف يغضون عنهم، ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم ﴿نَاصِحَ أَمِينٍ﴾ أي: عرفت فيما بينكم بالنصح والأمانة، فما حقي أن أنهم، أو أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه، أمين على ما أقول لكم لا أكذب فيه، ﴿خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: خلفتموه في الأرض، أو جعلكم ملوكاً في الأرض قد استخلفكم فيها بعدهم، ﴿فِي الْخَلْقِ بَعْضَةً﴾: فيما خلق من أجرامكم ذهاباً في الطول/ ٢٤٢ب والبدانة.

قيل: كان أقصرهم ستين ذراعاً، وأطولهم مائة ذراع، ﴿فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾: في استخلافكم، وبسطة أجرامكم، وما سواهما من عطايها، وواحد الآلاء «إلى» نحو: إني وإناء، وضلع وأضلاع، وعنب وأعتاب.

فإن قلت: «إذ» في قوله: ﴿إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ﴾، ما وجه انتصابه؟

قلت: هو مفعول به، وليس بظرف، أي: اذكروا وقت استخلافكم.

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٥) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أَنْتَجِدُلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٧٦)

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر؛ لقوله تعالى: ﴿لَنْ يُؤْمِرَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾، ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. ويحتمل أن حال مخاطبة نوح لقوم لم يؤمن منهم أحد بعد، ثم آمنوا بخلاف قصة هود، فإنه حال الخطاب كان فيهم مؤمن، ويحتمل أن يكون صفة لمجرد الذم من غير قصد تمييز بها. انتهى. الدر المصون.

﴿أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾: أنكروا، واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة، وترك دين الآباء، في اتخاذ الأصنام شركاء معه، حباً لما نشأوا عليه، وألفاً لما صادفوا آباءهم يتدينون به.

فإن قلت: ما معنى المجيء في قوله: ﴿أَجِئْنَا﴾؟

قلت: فيه أوجه؛ أن يكون ليهود - عليه السلام - مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه، كما كان يفعل رسول الله - ﷺ - بحراء قبل المبعث (٦٠٢) فلما أوحى إليه، جاء قومه يدعوهم، وأن يريدوا به الاستهزاء؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الله - تعالى - لا يرسل إلا الملائكة، فكانهم قالوا: أجئتنا من السماء كما يجيء الملك، وألاً يريدوا حقيقة المجيء، ولكن التعرض بذلك والقصد، كما يقال: ذهب يشتمني، ولا يراد حقيقة الذهاب، كأنهم قالوا: أقصدتنا لنعبد الله وحده، وتعرضت لنا بتكليف ذلك؟ ﴿فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾: استعجال منهم للعذاب، ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: حق عليكم ووجب، أو قد نزل عليكم، جعل المتوقع الذي بد من نزوله بمنزلة الواقع؛ ونحوه قولك لمن طلب إليك بعض المطالب: قد كان ذلك، وعن حسان أن ابنه عبد الرحمن لسعه زنبور، وهو طفل، فجاء يبكي، فقال له: يا بني مالك، قال: لسعني طوير كأنه ملتف في بردى حبرة<sup>(١)</sup>، فضمه إلى صدره، وقال له: يا بني، قد قلت الشعر، والرجس: العذاب من الارتجاس، وهو الاضطراب، ﴿فَتِ اسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا﴾: في أسماء ليس تحتها مسميات؛ لأنكم تسمونها آلهة، ومعنى الإلهية فيها معدوم محال وجوده؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، ومعنى: ﴿سَمِيَتْهُمَا﴾: سميتم بها من: سميته زيدا، «وقطع دابره»: استئصالهم وتدميرهم عن آخرهم، وقصتهم أن «عاداً» قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت، وكانت لهم أصنام يعبدونها: صداء، وصمود، والهباء، فبعث الله إليهم هوداً نبياً، وكان من أوسطهم وأفضلهم حسباً، فكذبوه، وازدادوا عتواً وتجبراً، فأمسك الله عنهم القطر ثلاث

٦٠٢ - أخرجه البخاري (٥٨٥/٨): كتاب التفسير حديث (٤٩٥٣)، ومسلم (٤٧٤/١ - النووي) باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث (١٦٠ / ٢٥٢).

قال الحافظ: متفق عليه من حديث عائشة - رضي الله عنها - في بدء الوحي: «وكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه حتى فجأة الوحي وهو بغار حراء». انتهى.

(١) قوله: «في بردى حبرة» حبرة - كعنبه - برد يمانى. اهـ صحاح.

سنتين حتى جهدوا، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء، طلبوا إلى الله - تعالى - الفرج منه عند بيته المحترم مسلمهم ومشرکهم، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وسيدهم / ٢٤٣ معاوية بن بكر، فجهزت عاد إلى مكة من أمثالهم سبعين رجلاً، منهم قيل بن عنز، ومرثد بن سعد، الذي كان يكتم إسلامه، فلما قدموا، نزلوا على معاوية بن بكر، وهو بظاهر مكة خارجاً عن الحرم، فأنزلهم، وأكرمهم، وكانوا أخواله وأصهاره، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر، وتغنيهم الجرادتان، - قينتان كانتا لمعاوية - فلما رأى طول مقامهم، وذ هولهم باللهو عما قدموا له، أهمه ذلك، وقال: قد هلك أخوالي، وأصهارى، وهؤلاء على ما هم عليه، وكان يستحي أن يكلمهم؛ خيفة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه، فذكر ذلك للقينتين، فقالتا: قل شعراً نغنيهم به لا يدرون من قاله؛ فقال معاوية: [من الوافر]

أَلَا يَا قَيْلُ وَيَحْكُ قُمْ فَهَيْنِمُ      لَعَلُّ اللَّهِ يَسْقِينَا غَمَامًا  
فَيْسْقِي أَرْضَ عَادٍ إِنْ عَادًا      قَدْ أَمَسُوا مَا يُبِيثُونَ الْكَلَامًا<sup>(١)</sup>

(١) ألا يا قيل ويحك قم فهينم  
فيسقي أرض عاد إن عادا  
من العطش الشديد فليس نرجو  
وقد كانت نساؤهم بخير  
وإن الوحش يأتئهم جهارا  
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم  
فتبجح وفدكم من وفد قوم  
لعل الله يسقينا غماما  
قد امسوا ما يبينون الكلاما  
لها الشيخ الكبير ولا الغلاما  
فقد أمست نساؤهم عيامي  
فلا يخشى لعادي سهاما  
نهاركم وليلكم التماما  
ولا لقوا التحية والسلاما

لمعاوية بن بكر. وروى أن عادا بعثوا من قومهم: قيل بن عنز، ونعيم بن هزاة، ومرثد بن سعد بن عفير، وجمهية بن الحلس خال معاوية بن بكر، ولقمان بن عاد، كل منهم مع نفر من رهطة ليدعوا الله بالسقيا عند الكعبة، فنزلوا عند معاوية بن بكر فأكرمهم وبعث إليهم الجرادتين لتغنيا لهم - وهما قينتان مغنيتان أول من غنى في نساء العرب - فنسوا قومهم من كثرة اللهو والطرب. فقال معاوية: هلك أخوالي، ولو قلت لهم شيئاً ظنوا بي بخلاً. فأنشأ هذا، وأمر الجرادتين بغنائه لهم. والهيمنة: صوت خفي لا يفهم. والمراد بها دعاء الله بالسقيا. ويسقينا غماما: أي ماء غمام. ما يبينون الكلام، لضعفهم من العطش. فليس نرجو، أي ليس نحن نرجو لها أي لعاد. ويروى «به» أي بسبب العطش. وحق الرواية «بها» أي في أرض عاد. الشيخ ولا الغلام. والغيمة؛ شدة الشهوة إلى اللبن. والمراد بها مطلق الفاقة. والعيامي: جمع عيم بالتشديد، أي رثيثة الحال، وأصله عيام، فقلب إلى عيامي، كما روي أيامي، وهو جمع أيام، وأصله أيام، أي فاقدمات الأزواج. فالمعنى على التشبيه. ويجوز أن المراد: نساءكم التي تركتموهن كأنهن بلا أزواج هناك. وتكرير النساء للاستعطف عليهن. والعادي: نسبة لعاد، وكانوا الغلاظ الشداد. والوحش: اسم جنس جمعي، واحده وحشي، كأنس وإنسي، وترك وتركي. فيذكر باعتبار لفظه، ويؤنث باعتبار جمعيته. وروى «بهما» ونهاركم: نصب على الظرف. و«من وفد قوم» تمييز مقترن بمن، والسلام عطف على =

فلما غنتا به، قالوا: إن قومكم يتغويون من البلاء الذي نزل بهم، وقد أبطأتم عليهم، فادخلوا الحرم، واستسقوا لقومكم، فقال لهم مرثد بن سعد: والله، لا تسقون بدعائكم، ولكن إن أطعتم نبيكم، وتبتم إلى الله، سقيتم، وأظهر إسلامه، فقالوا للمعاوية: اجلس عنا مرثداً، لا يقدم معنا مكة؛ فإنه قد اتبع دين هود، وترك ديننا، ثم دخلوا مكة، فقال: قِيلَ اللَّهُمَّ، اسقِ عاداً ما كنت تسقيهم، فأنش الله - تعالى - سحابات ثلاثاً بيضاء، وحمراء، وسوداء، ثم ناداه مناد من السماء: يا قِيلَ، اختر لنفسك ولقومك، فقال: اخترت السوداء؛ فإنها أكثرهن ماء، فخرجت على عاد من وادٍ لهم يقال له: المغيث، فاستبشروا بها، وقالوا: هذا عارض ممطرنا، فجاءتهم منها ريح عقيم فأهلكتهم، ونجا هود والمؤمنون معه، فأتوا مكة، فعبدوا الله فيها حتى ماتوا.

فإن قلت: ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ مع إثبات التكذيب بآيات الله؟

قلت: هو تعريض بمن آمن منهم كـ «مرثد بن سعد»، ومن نجا مع هود - عليه السلام - كأنه قال: وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ولم يكونوا مثل من آمن منهم، ليؤذن أن الهلاك خص المكذبين، ونجى الله المؤمنين.

﴿وَإِلَىٰ شُعُودٍ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقَرُونَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذُرُّوهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا يُسُورٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجِبُونَ الْجِبَالَ بَيْوتًا فَأَذْكُرُوا آلَاءَ

التحية، وفيه تورية لأنه يشير إلى انقطاع الكلام، كما أن المجتمعين يأتيان به عند المفارقة. فلما سمع القوم ذلك انطلقوا إلى الكعبة، فلحقهم مرثد بن سعد وكان مؤمناً فأخروه، فدعا الله تعالى لنفسه لا للقوم. وقال قيل: اللهم إن كان هود صادقاً فاسقنا، فأنشأ سحابة بيضاء وسحابة حمراء وسحابة سوداء. ثم نودي: يا قِيلَ، اختر أيها شئت. فقال: أما البيضاء فنجفل، وأما الحمراء فعارض. وأما السوداء فهيطل، فاخترها فتودي. قد اخترت رماداً أرمداً، لا يبقى من عاد أحداً، لا والداً ولا ولداً. فسارت السوداء إلى عاد فأهلكتهم. وجاء لقمان بن عاد بعد أن فرغوا من دعواتهم فقال: اللهم إني جنتك وحدي، فأعطني سؤلي. وسأل عمر سبعة أنسر، وكان عمر النسر ثمانين سنة، فكان يأخذ النسر من وكره فلا يزال عنده حتى يموت، وكان آخر نسوره اسمه: لبد، فلما مات مات. ثم إن ذلك كان قبل وجود مكة وزمزم، لأنهما إنما وجدا في زمن إبراهيم وإسماعيل. فلعل معاوية بن بكر كان سكنه قريباً من موضع مكة، لا في نفس موضعها، لأنه إذا ذاك لا سكن فيه ولا ماء.

قرىء: ﴿وَالَّذِينَ تَتَّبِعُوا﴾، بمنع الصرف بتأويل القبيلة، وإلى ثمود بالصرف بتأويل الحي، أو باعتبار الأصل؛ لأنه اسم أبيهم الأكبر، وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وقيل: سميت «ثمود» لقلّة مائها، من الشمد وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الشام والحجاز إلى وادي القرى، ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ﴾: آية ظاهرة، وشاهد على صحة نبوتي، وكأنه قيل: ما هذه البيّنة؟ فقال: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾، وآية نصب على الحال، والعامل فيها: ما دل عليه اسم / ٢٤٣ ب الإشارة من معنى الفعل، كأنه قيل: أشير إليها آية، «ولكم»: بيان لمن هي له آية موجبة عليه الإيمان خاصة وهم ثمود؛ لأنهم عاينوها، وسائر الناس أخبروا عنها، وليس الخبر كالمعاينة، كأنه قال: لكم خصوصاً؛ وإنما أضيفت إلى اسم الله؛ تعظيماً لها، وتفخيماً لشأنها، وأنها جاءت من عنده مكوّنة من غير، فحل وطروقة آية من آياته، كما تقول: آية الله، وروي أن عاداً لما أهلكت عمرت ثمود بلادها، وخلفوهم في الأرض، وكثروا، وعمروا، أعماراً طوالاً، حتى أن الرجل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته، ففتحوا البيوت من الجبال، وكانوا في سعة ورخاء من العيش، فعتوا على الله، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأوثان، فبعث الله - تعالى - إليهم صالحاً - عليه السلام - وكانوا قوماً عربياً، وصالح من أوسطهم نسباً، فدعاهم إلى الله - تعالى - فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون، فحذرهم، وأنذرهم، فسألوه آية، فقال: آية آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا في يوم معلوم لهم من السنة، فتدعوا إلهك، وتدعو آلهتنا، فإن استجيب لك اتبعناك، وإن استجيب لنا اتبعنا، فقال صالح: نعم، فخرج معهم، ودعوا أوثانهم، وسألوها الاستجابة فلم تجيبهم، ثم قال سيدهم - جندع بن عمرو، وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل، يقال لها: «الكائبة» أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة مخترجة، جوفاء، وبراء - والمخترجة التي شاكلت البحت - فإن فعلت صدقناك وأجبتناك، فأخذ صالح - عليه السلام - عليهم الموائيق، لئن فعلت ذلك لتؤمننّ ولتصدقنّ، قالوا: نعم، فصلى ودعا ربه، فتمخضت الصخرة تمخض التتوج بولدها، فانصدعت عن ناقة، عشراء، جوفاء، وبراء، كما وصفوا، لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله - تعالى - وعظماؤهم ينظرون، ثم نتجت ولدأ مثلها في العظم، فأمن به جندع، ورهط من قومه، ومنع أعقابهم ناس من رؤوسهم أن يؤمنوا، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر، وتشرب الماء، وكانت ترد غبا، فإذا كان يومها، وضعت رأسها في البئر، فما ترفعه حتى تشرب كل ماء فيها، ثم تتفحج<sup>(١)</sup>، فيحتلبون ما شاءوا حتى تمتلىء

(١): قوله: «ثم تتفحج» أي تفرج ما بين رجليها.

أوانهم، فيشربون، ويدخرون.

قال أبو موسى الأشعري: أتيت أرض ثمود، فذرعت مصدر الناقة، فوجدته ستين ذراعاً، وكانت الناقة إذا وقع الحرّ، تصيفت بظهر الوادي، فتهرب منها أنعامهم، فتهبط إلى بطنه، وإذا وقع البرد، تشتت بطن الوادي، فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم، وزينت عقرها لهم امرأتان: عنيزة أم غنم، وصدقة بنت المختار - لما أضرت به من مواشيها/ ٢٤٤ وأكانتا كثيرتي المواشي - فعقروها، واقتسما لحمها وطبخوه، فانطلق سقبا حتى رقي جبلاً اسمه: «قارة» فرغى ثلاثاً، وكان صالح قال لهم: أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه، وانفجت<sup>(١)</sup> الصخرة بعد رغائه فدخلها، فقال لهم صالح: تصبحون غداً، ووجوهكم مصفرة، وبعد غد ووجوهكم محمرة، واليوم الثالث ووجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب، فلما رأوا العلامات، طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله إلى أرض فلسطين، ولما كان اليوم الرابع، وارتفع الضحى، تحنطوا بالصبر، وتكفّنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء، فتقطعت قلوبهم فهلكوا، ﴿تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أي: الأرض أرض الله، والناقة ناقة الله، فذروها تأكل في أرض ربها، فليست الأرض لكم، ولا ما فيها من النبات من إنباتكم، ﴿وَلَا تَمْسُوها سِوَى﴾: لا تضربوها، ولا تطردوها، ولا تريبوها بشيء من الأذى؛ إكراماً لآية الله، ويروى: أن رسول الله - ﷺ - حين مرّ بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: «لَا يَدْخُلَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْقَرْيَةَ، وَلَا تَشْرَبُوا مِنْ مَائِهَا، وَلَا تَدْخُلُوا عَلَيَّ هَؤُلَاءِ الْمُعَذِّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ الَّذِي أَصَابَهُمْ (٦٠٣)» وقال - ﷺ -: «يَا عَلِيُّ، أَتَذَرِي مَنْ أَسْقَى الْأَوَّلِينَ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «عَاقِرُ نَاقَةِ صَالِحٍ، أَتَذَرِي مَنْ أَسْقَى الْآخِرِينَ؟» قَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «قَاتِلُكَ» (٦٠٤).

٦٠٣ - أخرجه البخاري (٦٣١/١): كتاب الصلاة: باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب، حديث (٤٣٣) وأطرافه في (٣٣٨٠، ٣٣٨١، ٤٤١٩، ٤٤٢٠، ٤٧٠٢)، ومسلم (٣٣٧/٩ - ٣٣٨ - النووي) كتاب الزهد والرقائق: باب: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين، حديث (٣٨ - ٣٩ - ٤٠ / ٢٩٨٠).

قال الحافظ: متفق عليه من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - من طرق. انتهى.

٦٠٤ - روي من حديث عمار بن ياسر، ومن حديث جابر بن سمرة، ومن حديث صهيب، ومن حديث علي.

أما حديث عمار:

فأخرجه الثَّسَنِي فِي سَنَتِهِ الْكَبْرَى (١٥٣/٥) رَقْم (٨٥٣٨)، وَبِإِسْنَادِهِ فِي دَلَائِلِ النَّبِوَةِ (١٢/٣) - =

(١) قوله: «وانفجت الصخرة» أي: انفتحت.

وقرأ أبو جعفر في رواية: «تأكل في أرض الله»، وهو في موضع الحال بمعنى: «آكلة»، ﴿وَيَوَّاكُم﴾: ونزلكم، والمبءاء: المنزل، ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: في أرض الحجر بين الحجاز والشام، ﴿مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبناها من سهولة الأرض بما تعملون منها من الرهص<sup>(١)</sup>، واللبن، والآجر.

وقرأ الحسن: «وتنحتون» بفتح الحاء، «وتنحتون» بإشباع الفتحة؛ كقوله: [من الكامل]

يَنْبَعُ مِنْ ذَفْرَى أَسِيلِ حُرَّةٍ<sup>(٢)</sup> .....

= (١٣)، وأحمد (٤/٢٦٣ - ٢٦٤)، والحاكم (٣/١٤٠ - ١٤١) وابن هشام في سيرته (٢/٢٥٣).

وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

وأما حديث جابر بن سمرة:

فأخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٢/٢٤٧) رقم (٢٠٣٧)، وعزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/٤٦٥) رقم (٤٦٧) إلى النسائي في كتاب الكنى، وإلى أبي نعيم في كتابه دلائل النبوة.

وأما حديث صهيب:

فقد ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/١٣٩)، وقال: رواه الطبراني وأبو يعلى وفيه رشدين بن سعد وقد وثق، وبقيته رجاله ثقات.

وأما حديث علي:

فقد عزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/٤٦٦) رقم (٤٦٧) إلى ابن مردويه في تفسيره.

قال الحافظ:

أخرجه ابن إسحاق في المغازي: حدثني يزيد بن محمد بن خيثم عن محمد بن كعب القرظي عن محمد بن خيثم والد يزيد المذكور عن عمار بن ياسر قال: «كنت أنا وعلي رقيقين في غزوة العُسرة إلى أن قال: فقال: يا علي، ألا أخيرك بأشقى الناس: رجلين؟ قال: بلى يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «ثمود الذي عقر الناقة»، والذي يضربك يا علي على هذه وأشار إلى رأسه - حتى يبيل هذه - ووضع يده على لحيته»، ومن هذا الوجه أخرجه النسائي في الخصائص والحاكم والطبري والبيهقي في الدلائل. وفي الباب عن جابر بن سمرة أخرجه الطبراني وعن صهيب أخرجه أبو يعلى والطبراني. وعن علي أخرجه ابن مردويه في تفسيره والشمس وضحاها (تنبيه) في رواية المذكورين: «أن النبي ﷺ سأل عليا، فقال له في الأول: عاقر الناقة، قال: صدقت. وقال في الثانية: «لا علم لي»، وفي رواية جابر بن سمرة، «الله أعلم». انتهى.

(١) قوله: «من الرهص» هو الصخر الثابت في أسفل الحائط. اهـ من الصحاح.

(٢) وكان ربا أو كحبيلا معقدا حش الوقود به جوانب قمقم

ينباع من ذفري أسيل حرة زيافة مثل الفنيق المكرم

لعترة بن شداد العبسي من معلقته، يصف عرق ناقته من السير، فشبه بالرب. وهو العصير

والطلاء. أو بالكحيل وهو القطران المنعقد بالنار على جوانب القمقم. وأعقدت الدواء: أغليته حتى

خثر. وحش الوقود: أشعله وأوقده. وهو هنا مبني للمجهول، وأصل «ينباع» ينبع، فتولدت الألف =

فإن قلت: علام انتصب: ﴿يُونَا﴾؟

قلت: على الحال؛ كما تقول: خط هذا الثوب قميصاً، وابر هذه القصبه قلماً، وهي من الحال المقدرة؛ لأن الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت، ولا الثوب، ولا القصبه قميصاً، وقلماً في حال الخياطة والبري، وقيل: كانوا يسكنون السهول في الصيف، والجبال في الشتاء.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَنْتَقَمُونَ أَتَى صَالِحًا مَرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحْ آتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَةَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾: للذين استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم، و﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾: بدل من الذين استضعفوا.

فإن قلت: الضمير في «منهم» راجع إلى ماذا<sup>(١)</sup>؟

للإشباع، والذفرى: نقرة منخفضة جنب الأذن، إذا طال سير البعير انفتح من وسطها جلدة وارتفعت وسال منها العرق في النقرة، وهي المشبهة بالقمم سابقاً. وقيل الذفرى أصل الأذن. والأسيل: الناقة المستقيمة الخلق، من قولهم: خذ أسيل، وكف أسيل، وحر كل شيء: خالسه. زيادة: كثيرة الزيف وهو التبخر في السير. والفنيق: فحل الإبل المكرم بإعفائه عن العمل لأجل الضراب، فالمكرم: نعت مفسر. ويروى المكدم بالدال. ويقال: كدمه إذا عضه. وأما أكدمه فلم أقف عليها، ولعلها لغة قليلة. والمكدم اسم مفعول منها، أي الذي كدتمه الفحول وعضته فأثرت فيه لتتقب جلدها من أثر الرحل والركض. وروي: من ذفرى غضوب جصرة، أي شديدة الغضب صلبة موثقة الخلق. وقيل «ينباع» وزنه «ينفعل» من البوع، وهو طي المسافة البعيدة، ولا معنى له في البيت.

ينظر ديوانه ص ٢٠٤، وخزانة الأدب ١/١٢٢، ٨/٣٧٣، ١١/١٨٣، والخصائص ٣/١٢١، وسر صناعة الإعراب ١/٣٣٨، ٢/٧١٩، ولسان العرب (عقب) (بوع)، (نبح)، والإنصاف ١/٢٦، وشرح شواهد الشافية ص ٢٤، والمحتسب ١/٢٥٨، ٣٤٠، الخصائص ٣/١٩٣، ٢١٣، ومجالس ثعلب ٢/٥٣٩، والمحتسب ١/٧٨، ١٦٦، ٢٥٨، وشرح شافية ابن الحاجب ١/٧٠، ٢/٨٤، ووصف المباني ص ١١، والدر المصون ٢/٢٠٥.

(١) قال محمود: «إن قلت الضمير في منهم راجع إلى ماذا؟ قلت: إلى قومه... إلخ» قال أحمد: فقوله: (لمن) على الأول بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة. وعلى الثاني بدل بعض من كل.

قلت: إلى (قومه)، أو إلى: (الذين استضعفوا).

فإن قلت: هل لاختلاف المرجعين أثر في اختلاف المعنى؟

قلت: نعم؛ وذلك/ ٢٤٤ب أن الراجع إذا رجع إلى قومه فقد جعل (من آمن) مفسراً لمن استضعف منهم، فدل أن استضعافهم كان مقصوراً على المؤمنين، وإذا رجع إلى الذين استضعفوا، لم يكن الاستضعاف مقصوراً عليهم، ودل أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين، ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَاحِبَ مَكَّةَ مَرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾: شيء قالوه على سبيل الطنز والسخرية؛ كما تقول للمجسمة: أتعلمون أن الله فوق العرش؟

فإن قلت: كيف صح قولهم: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ جواباً عنه<sup>(١)</sup>؟

قلت: سألوهم عن العلم بإرساله، فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مكشوفاً مسلماً، لا يدخله ريب، كأنهم قالوا: العلم بإرساله، وبما أرسل به ما لا كلام فيه<sup>(٢)</sup>، ولا شبهة تدخله؛ لوضوحه وإنارته، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به، فنخبركم أنا به مؤمنون؛ ونذلك كان جواب الكفرة: ﴿إِنَّا بِالَّذِي ءَأَنسْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، فوضعوا: (أنتم به): موضع (أرسل به)؛ رداً لما جعله المؤمنون معلوماً وأخذه مسلماً، ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾: أسند العقر إلى جميعهم؛ لأنه كان برضاهم، وإن لم يباشره إلا بعضهم، وقد يقال للقبيلة الضخمة: أنتم فعلتم كذا، وما فعله إلا واحد منهم، وعتوا عن أمر ربهم وتولوا عنه واستكبروا عن امتثاله عاتين، وأمر ربهم: ما أمر به على لسان صالح - عليه السلام - من قوله: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١١٣] أو شأن ربهم وهو دينه، ويجوز أن يكون المعنى: وصدر عتوهم عن أمر ربهم، كأن أمر ربهم بتركها كان هو السبب في عتوهم، ونحو عن هذه ما في قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُمْ عَنِّ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢] ﴿أَقْنَأَ يَمَّا تَعْدُنَا﴾: أرادوا من العذاب، وإنما جاز الإطلاق؛ لأنه كان معلوماً، واستعجالهم له لتكذيبهم به، ولذلك

( ) عاد كلامه. قال محمود: «فإن قلت كيف وقع قولهم إنا بما أرسل به مؤمنون جواباً... إلخ» قال أحمد: وقولهم (إنا به مؤمنون) ليس إخباراً عن وجوب الإيمان به، بل عن امتثال الواجب والعمل به، ونحن قد امتثلنا.

(٢) قوله: «ما لا كلام فيه» لعله: مما لا كلام فيه.

(٣) عاد كلامه. قال محمود: «ولذلك كان جواب الكفرة إنا بالذي... إلخ» قال أحمد: ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا: إنا بما أرسل به كافرون، ولكن أبوا ذلك حذراً مما في ظاهره من إثباتهم لرسالته وهم يجحدونها. وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم، كما قال فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ فأثبت إرساله تهكماً، وليس هذا موضع التهكم، فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله، فلهذا خلاص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة احتياطاً للكفر وعلوا في الإصرار.

علقوه بما هم به كافرون، وهو كونه من المرسلين، ﴿الرَّجْفَةُ﴾: الصيحة التي زلزلت لها الأرض، واضطربوا لها، ﴿فِي دَارِهِمْ﴾: في بلادهم، أو في مساكنهم، ﴿جَنَّتَيْنِ﴾: هامدين لا يتحركون موتى، يقال: الناس جشم، أي: قعود، لا حراك بهم، ولا ينبسون نبسة، ومنه المجثمة التي جاء النهي عنها (٦٠٥)، وهي البهيمة تربط وتجمع قوائمها لترمى، وعن

٦٠٥ - روي من حديث ابن عباس، ومن حديث أبي الدرداء ومن حديث العرياض بن سارية، ومن حديث أبي ثعلبة الخشني، ومن حديث أنس بن مالك، ومن حديث أبي هريرة، ومن حديث جابر. أما حديث ابن عباس:

أخرجه البخاري (٩٣/١٠): كتاب الأشربة: باب الشرب من فم السقاء، حديث (٥٦٢٩) مختصراً، وأبو داود (٣٦٢/٢): كتاب الأشربة: باب الشراب من فم السقاء، حديث (٣٧١٩)، و(٣٧٩/٢): كتاب الأطعمة: باب النهي عن أكل الجلالة وألبانها؛ حديث (٣٧٨٦)، والثرمذي (٢٧٠/٤): كتاب الأطعمة: باب ما جاء في أكل لحوم الجلالة وألبانها، حديث (١٨٢٥)، والشَّسَّانِي (٢٤٠/٧): كتاب الضحايا: باب النهي عن لبن الجلالة، وابن خزيمة (١٤٦/٤) حديث (٢٥٥٢)، وأحمد في مسنده (٢٢٦/١ - ٢٤١ - ٢٩٣ - ٣٢١ - ٣٣٩).

وأما حديث أبي الدرداء:

فأخرجه الثرمذي (٧١/٤): كتاب الأطعمة: باب ما جاء في كراهية أكل المصبورة، حديث (١٤٧٣)، وأحمد (٤٤٥/٦)، وقال الثرمذي: هذا حديث غريب.

وأما حديث العرياض بن سارية:

فأخرجه الثرمذي (٧١/٤): كتاب الأطعمة: باب ما جاء في كراهية أكل المصبورة، حديث (١٤٧٤)، وأحمد (١٢٧/٤)، والحاكم في المستدرک (١٣٥/٢).

وسكت عنه الثرمذي.

وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وأما حديث أبي ثعلبة الخشني.

أخرجه الشَّسَّانِي (٢٠١/٧): «كتاب الصيد والذبائح باب تحريم أكل السباع، والدارمي (٨٤/٢) - (٨٥): كتاب الأصاحي: باب ما لا يؤكل من السباع، وأحمد (١٩٤/٤).

وأما حديث أنس بن مالك:

فأخرجه البزار كما في «تخريج الكشاف» (٤٦٨/١) «للزيلعي» بلفظ: أن النبي ﷺ نهى عن المجثمة والجلالة والشرب من فم السقاء.

وأما حديث أبي هريرة:

فأخرجه الثرمذي (٧٤/٤): كتاب الأطعمة: باب ما جاء في كراهية كل ذي ناب وذي مخلب، حديث (١٤٧٩)، وأخرجه الحاكم في المستدرک (٣٥/٢).

وعزه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٤٦٨/١) إلى ابن أبي شيبة في مسنده.

وأما حديث جابر:

عزه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٤٦٨/١): إلى ابن أبي شيبة في مسنده، وإلى البزار في مسنده.

قال الحافظ:

أما النهي فرواه أصحاب السنن وابن جبان والحاكم من حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس: «أن =

جابر أن النبي ﷺ - لما مر بالحجر قال: «لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ؛ فَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ صَالِحٌ، فَأَخَذَتْهُمْ الصَّنِيعَةُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ» قَالُوا: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: ذَلِكَ «أَبُو رِغَالٍ» فَلَمَّا خَرَجَ مِنَ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ (٦٠٦)، وروى أن صالحاً كان بعثه إلى قوم فخالف أمره، وروى أنه - عليه السلام - مر بقبر «أبي رغال» فقال: «أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فذكر قصة أبي رغال، وأنه دفن ههنا/ ٢٤٥أ، ودفن معه غصن من ذهب»، فابتدروه، وبحثوا عنه بأسيافهم، فاستخرجوا الغصن (٦٠٧)، ﴿تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾: الظاهر أنه كان مشاهداً لما جرى عليهم، وأنه تولى عنهم بعدما أبصرهم جاثمين، تولى معتم متحسر على ما فاته من إيمانهم، يتحزن لهم، ويقول: ﴿يَنْقَوِرُ لَقَدْ﴾: بذلت فيكم، وسعي، ولم آل جهداً في إبلاغكم، والنصيحة لكم، ولكنكم: ﴿لَا تُحِبُّونَ أَتَشْعُرُونَ﴾، ويجوز أن يتولى عنهم تولى ذاهب عنهم، منكر لإصرارهم، حين رأى العلامات قبل نزول العذاب، وروى أن عقمرهم الناقة كان يوم الأربعاء، ونزل بهم العذاب يوم السبت، وروى أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فالتفت، فرأى الدخان ساطعاً، فعلم أنهم قد هلكوا، وكانوا ألفاً وخمسمائة دار؛ وروى أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم.

== رسول الله ﷺ ينهى عن الشرب من في السماء وعن ركوب الجلالة، وعن المجثمة، ورواه البزار من طريق الوراق عن قتادة عن أنس مثله - وكذا قال، وأخرجه البزار وقال: إسناده حسن، ومن حديث القرناص بن سارية: «أن رسول الله ﷺ نهى عن المجثمة» أخرجه الترمذي، وحسنه من رواية سعيد بن المسيب عن أبي الدرداء قال: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل المجثمة وهي التي تضرب بالنيل». انتهى.

٦٠٦ - أخرجه الحاكم في المستدرک (٢/٣٤٠ - ٣٤١)، والبزار في مسنده (٢/٣٥٦) رقم (١٨٤٤)، وابن جبان (١٤/٧٧) رقم (٦١٩٧)، وأحمد (٣/٢٩٦)، والطبري في تفسيره (٥/٥٣٥ - ٥٣٦) رقم (١٤٨٢٤) وعبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٣٢)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/١٨٣). قال الحافظ:

أخرجه ابن جبان والحاكم وأحمد وإسحاق والطبري من رواية عبد الله بن عثمان بن خيثمة عن أبي الزبير عن جابر - وزاد: «في غزوة تبوك»، فقام فخطب الناس! انتهى.

٦٠٧ - أخرجه أبو داود (٣/١٨١ - ١٨٢): كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب نبش القبور العادية يكون فيها المسال، حديث (٣٠٨٨)، وابن جبان (١٤/٧٨ - ٧٩) رقم (٦١٩٨) وعبد الرزاق (٢٠٩٨٩)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/١٥٦) وفي «دلائل النبوة» (٦/٢٩٧، ٧/٢٩٧). قال الحافظ:

أخرجه أبو داود وابن جبان والطبراني والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل من رواية بحير بن أبي بحير عن عبد الله بن عمرو بن العاص ولفظه: «فابتدره الناس فاستخرجوا الغصن»، وأما قوله: «فبحثوا عنه بأسيافهم»، فأخرجه عبد الرزاق عن معمر مرسلاً. انتهى.

فإن قلت: كيف صحَّ خطاب الموتى وقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾؟

قلت: قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت، وكان قد نصحه حيناً فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة: يا أخي، كم نصحتك، وكم قلت لك، فلم تقبل مني؟

وقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ﴾: حكاية حال ماضية.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْبَنَاتِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٧﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظَهُرُونَ ﴿٨٧﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا نَكَّرْنَا كَانَتْ مِنَ الْفَجْرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابُهُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

﴿وَلَوْطًا﴾: وأرسلنا لوطاً، و﴿وَإِذْ﴾: ظرف لأرسلنا، أو «واذكر لوطاً» و«إِذ» بدل منه، بمعنى: واذكر وقت، ﴿قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ﴾: أتفعلون السيئة المتبادية في القبح، ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾: ما عملها قبلكم، والباء للتعدية من قولك: سبقته بالكرة، إذا ضربتها قبله، ومنه قوله - عليه السلام -: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ» (٦٠٨) ﴿مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾: «من» الأولى: زائدة؛ لتوكيد النفي، وإفادة معنى الاستغراق، والثانية: للتبويض.

فإن قلت: ما موقع هذه الجملة؟

قلت: هي جملة مستأنفة، أنكر عليهم أولاً بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَلْحِشَةَ﴾، ثم وبخهم

٦٠٨ - أخرجه البخاري (٣١٢/١١): كتاب الرقاق: باب: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، حديث (٦٤٧٢)، ومسلم (٩٢/٢ - ٩٣ - النووي) كتاب الإيمان: باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث (٣٧٤ / ٢٢٠) من طريق عبد الله بن عباس به. وأخرجه مسلم (٩٠/٢ - ٩١ - النووي): كتاب الإيمان: باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث (٣٦٧ - ٣٦٨ / ٢١٦) من طريق أبي هريرة به. وأخرجه مسلم (٩١/٢ - النووي): كتاب الإيمان باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب، حديث (٣٧١ - ٣٧٢ / ٢١٨) من طريق عمران بن حصين به. وأخرجه أبو يعلى (٢٣١/٩ - ٢٣٢) رقم (٥٣٣٩)، وابن جبان (٢٦٤٤ - موارد)، والطبراني في «الكبير» (٦/١٠ - ٧) رقم (٩٧٦٦، ٩٧٦٧، ٩٧٦٩)، من طريق قتادة عن الحسن عن عمران عن عبد الله بن مسعود به.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث ابن عباس في قصته. ولمسلم من حديث أبي هريرة نحوه. ومن حديث عمران بن حصين - رضي الله عنه. انتهى.

عليها، فقال: أنتم أول من عملها، أو على أنه جواب لسؤال مقدر؛ كأنهم قالوا: لم لا نأتيها؟ فقال: ما سبقكم بها أحد، فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به، ﴿أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾: بيان لقوله: «أتأتون الفاحشة»، والهمزة مثلها في «أتأتون»: للإنكار، والتعظيم.

وقرىء: «إنكم»، على الإخبار المستأنف «لتأتون الرجال»، من: أتى المرأة إذا غشيها ﴿شَهْوَةً﴾: مفعول له، أي: للاشتهاء لا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داعٍ آخر، ولا ذم أعظم منه؛ لأنه وصف لهم بالبهيمية، أنه لا داعي لهم من جهة العقل البتة، كطلب النسل، ونحوه، أو حال بمعنى مشتتهين تابعين للشهوة، غير ملتفتين إلى السماجة، ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ﴾: أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح، وتدعو إلى اتباع الشهوات، وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف، وتجاوز الحدود في كل شيء، فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة، حتى تجاوزوا/ ٢٤٥ب المعتاد إلى غير المعتاد، ونحوه: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦]، ﴿وَمَا كُنَّا جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ يعني: ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط - عليه السلام - من إنكار الفاحشة، وتعظيم أمرها، ووسمهم بسمة الإسراف الذي هو أصل الشر كله، ولكنهم جاؤوا بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته، من الأمر بإخراجه، ومن معه من المؤمنين من قريتهم، ضجرأ بهم وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم، وقولهم: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ﴾: سخرية بهم، وبتطهرهم من الفواحش، وافتخاراً بما كانوا فيه من القدارة، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم: أبعادوا عنا هذا المتكشف<sup>(١)</sup>، وأريحونا من هذا المتزهّد، ﴿وَأَهْلَهُ﴾: ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين<sup>(٢)</sup>، ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ﴾: من الذين غبروا في ديارهم، أي: بقوا فهلكوا، والتذكير لتغليب الذكور على الإناث، وكانت كافرة موالية لأهل سدوم، وروي أنها التفتت فأصابها حجر فماتت.

وقيل: كانت المؤتفكة خمس مدائن.

وقيل: كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة، فأمطر الله عليهم الكبريت والنار.

وقيل: خسف بالمقيمين منهم، وأمطرت الحجارة على مسافريهم وشذاذهم.

وقيل: أمطر عليهم ثم خسف بهم، وروي أن تاجرأ منهم كان في الحرم، فوقف له الحجر أربعين يوماً حتى قضى تجارته، وخرج من الحرم فوقع عليه.

(١) قوله: «أبعادوا عنا هذا المتكشف» المنكشف: هو الذي يتبلغ بالقوت وبالمرقع، من الكشف: وهو التغير من الشمس أو الفقر اهـ.

(٢) قوله: «من ذويه أو من المؤمنين» يعني أقاربه وامراته.

فإن قلت: أي فرق بين مطر وأمطر؟

قلت: يقال مطرتهم السماء وواد ممطور<sup>(١)</sup>، وفي نوابغ الكلم: حري غير ممطور، حري أن يكون غير ممطور<sup>(٢)</sup>، ومعنى «مطرتهم»: أصابتهم بالمطر؛ كقولهم: غاثتهم، ووبلتهم، وجادتهم، ورهمتهم، ويقال: أمطرت عليهم كذا، بمعنى: أرسلته عليهم إرسال المطر، ﴿فَأَمْطَرَ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الحجر: ٧٤]، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]، ومعنى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾: وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً، يعني: الحجارة؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل: ٥٨].

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأذْكَرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا نَّكَّرْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُونَ فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

كان يقال لشعيب - عليه السلام - خطيب الأنبياء؛ لحسن مراجعته قومه، وكانوا أهل بخس للمكاييل والموازين، ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: معجزة شاهدة بصحة نبوتي أوجبت عليكم الإيمان بي، والأخذ بما أمركم به، والانتهاه عما أنهاكم عنه، فأوفوا ولا تبخسوا.

(١) قال محمود: «يقال مطرتهم السماء وواد ممطور... إلخ» قال أحمد: مقصود المصنف الرد على من قول: مطرت السماء في الخير، وأمطرت في الشر. ويتوهم أنها تفرقة وضعية، فبين أن أمطرت: معناه أرسلت شيئاً على نحو المطر وإن لم يكن ماء، حتى لو أرسل الله من السماء أنواعاً من الخيرات والأرزاق مثلاً كالمن والسلوى، لجاز أن يقال فيه: أمطرت السماء خيرات، أي أرسلتها إرسال المطر. فليس للشر خصوصية في هذه الصيغة الرباعية، ولكن اتفق أن السماء لم ترسل شيئاً سوى المطر إلا وكان عذاباً، فظن الواقع اتفاقاً مقصوداً في الوضع فبه على تحقيق الأمر فيه وأحسن وأجمل.

(٢) قوله: «حري غير ممطور حري أن يكون غير ممطور» حري الأول بمعنى ناحية وجانب. والثاني بمعنى جدير وحقيق. وممطور الأول بمعنى مصاب بالمطر. والثاني بمعنى مذهب فيه. كذا يؤخذ من الصحاح.

فإن قلت: ما كانت معجزته؟

قلت: قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة؛ لقوله: ﴿قَدْ حَاكَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ولأنه لا بدّ لمدعي النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه، وإلا لم تصح دعواه، وكان متنبئاً، لا نبياً، غير أنّ معجزته لم تذكر في القرآن، كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا - ﷺ - فيه، ومن معجزات شعيب - عليه السلام: ما روي من محاربة عصى موسى - عليه السلام - الثنين<sup>(١)</sup>، حين دفع إليه غنمه، وولادة الغنم الدرع، خاصة حين وعده أن تكون له الدرع من أولادها/ ١٢٤٦، ووقوع عصى آدم - عليه السلام - على يده في المرات السبع، وغير ذلك من الآيات؛ لأنّ هذه كلها كانت قبل أن يستنبأ موسى - عليه السلام - فكانت معجزات لشعيب.

فإن قلت: كيف قيل: ﴿الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾، وهلا قيل: المكيال والميزان، كما في سورة هود، عليه السلام؟

قلت: أريد بالكيل: آلة الكيل، وهو «المكيال»، أو سمي ما يكال به بالكيل، كما قيل: العيش، لما يعاش به، أو أريد: فأوفوا الكيل ووزن الميزان، ويجوز أن يكون الميزان كالميعاد والميلاد بمعنى المصدر، ويقال: بخسته حقه: إذا نقصته إياه، ومنه قيل للمكس: «البخس»، وفي أمثالهم: تحسبها حمقاء، وهي باخس، وقيل: ﴿أَشْيَاءٌ هُمْ﴾؛ لأنهم كانوا يبخسون الناس كل شيء في مبيعاتهم، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً، إلا مكسوه كما يفعل أمراء الحرمين، وروي أنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد، وقالوا: هي زيوف فقطعوها قطعاً، ثم أخذوها بنقصان ظاهر أو أعطوه بدلها زيوفاً ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: بعد الإصلاح فيها، أي: لا تفسدوا فيها بعدما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم، وإضافته كإضافة قوله: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ: ٣٣] بمعنى: بل مكركم في الليل والنهار، أو بعد إصلاح أهلها على حذف المضاف، ﴿ذَلِكَ﴾: إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل، والميزان، وترك البخس، والإفساد في الأرض، أو إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه، ومعنى: ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني: في الإنسانية وحسن الأحداث، وما تطلبونه من التكسب والتربح؛ لأن الناس أرغب في متاجرتكم إذا عرفوا منكم الأمانة والسوية، ﴿إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾: إن كنتم مصدقين لي في قولي ذلكم خير لكم، ﴿وَلَا تَقْعُدُوا يَكْفِيَ صِرَاطٌ﴾: ولا تقعدوا بالشيطان في قوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّكُمْ صِرَاطَكَ الْمَسْتَقِيمَ﴾، فتقعدوا بكل صراط، أي: بكل منهاج من منهاج الدين؛

(١) قوله: «الثنين» هو ضرب من الحيات سود الرءوس بيض سائر الأبدان اهـ.

والدليل على أن المراد بالصراط سبيل الحق قوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ومحل (توعدون)، وما عطف عليه: النصب على الحال، أي: ولا تقعدوا موعدين وصادين عن سبيل الله، وباغياها عوجاً.

فإن قلت: صراط الحق واحد، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فكيف قيل: بكل صراط؟

قلت: صراط الحق واحد، ولكنه يتشعب إلى معارف، وحدود، وأحكام كثيرة مختلفة، فكانوا إذا رأوا أحداً يشرع في شيء منها أوعدوه وصدّوه.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في ﴿ءَأَمَرَ بِهِ﴾؟

قلت: إلى كل صراط، تقديره: توعدون من آمن به، وتصدّون عنه، فوضع الظاهر الذي هو سبيل الله موضع الضمير؛ زيادة في تقييح أمرهم، ودلالة على عظم ما يصدّون عنه.

وقيل: كانوا يجلسون على الطرق والمراصد/ ٢٤٦ب، فيقولون لمن مرّ بهم: إن شعياً كذاب، فلا يفتنكم عن دينكم، كما كان يفعل قريش بمكة.

وقيل: كانوا يقطعون الطرق.

وقيل: كانوا عشارين، ﴿وَتَبَّعُونَهَا عِوَجًا﴾: وتطلبون لسبيل الله عوجاً، أي: تصفونها للناس بأنها سبيل معوجة غير مستقيمة، لتصدّوهم عن سلوكها والدخول فيها، أو يكون تهكماً بهم، وأنهم يطلبون لها ما هو محال؛ لأن طريق الحق لا يعوج، ﴿وَأَذَكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا﴾: إذ مفعول به غير ظرف، أي: واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم، ﴿فَكَذَرَكُمُ﴾: الله، ووفر عددكم.

قيل: إن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط، فولدت، فرمى الله في نسلها بالبركة، والنماء، فكثروا وفشوا، ويجوز إذ كنتم مقلين فقراء فكثركم، فجعلكم أكثرين موسرين، أو كنتم أقلّة أذلة، فأعزكم بكثرة العدد والعدد، ﴿عَقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾: آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم؛ كقوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وكانوا قريبي العهد مما أصاب المؤتفكة، ﴿فَأَصْبِرُوا﴾: فتربصوا وانتظروا، ﴿حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي: بين الفريقين، بأن ينصر المحقين على المبطلين، ويظهرهم عليهم، وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم، كقوله ﴿فَرَبِّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ أو هو عظة للمؤمنين وحث على الصبر، واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم، ويجوز أن يكون خطاباً للفريقين، أي: ليصبر المؤمنون على أذى الكفار، وليصبر الكفار على ما

يسوءهم من إيمان من آمن منهم، حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾؛ لأن حكمه حق وعدل، لا يخاف فيه الحيف.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَأْتِنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

أي: ليكونن أحد الأمرين: إما إخراجكم، وإما عودكم في الكفر.

فإن قلت: كيف خاطبوا شعيباً - عليه السلام - بالعود<sup>(١)</sup> في الكفر في قولهم: ﴿أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾، وكيف أجابهم بقوله: ﴿إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾، والأنبياء - عليهم السلام - لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير، فضلاً عن الكبائر، فضلاً عن الكفر؟

قلت: لما قالوا: «لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك»، فعطفوا على ضميره الذين دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم، قالوا: لتعودن، فغلبوا الجماعة على الواحد، فجعلوهم عائدين جميعاً؛ إجراء للكلام على حكم التغليب، وعلى ذلك أجرى شبيب - عليه السلام - جوابه، فقال: إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها، وهو يريد عود

(١) قال محمود: «إن قلت كيف خاطبوا شعيباً بصيغة العود... إلخ» قال أحمد: والزمخشري بنى هذا الكلام على أن صيغة العود تستدعي رجوع العائد إلى حال كان عليها قبل. والتحقيق في الجواب عن السؤال المذكور مع اقتضاء العود لذلك: أن هذا الفعل وإن استعمل كذلك، إلا أنه كثيراً ما يرد بمعنى صار. وحينئذ يجوز أن يكون أحداً لكان ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة، بل عكس ذلك وهو الانتقال من حال سابقة إلى حالة مؤتلفة مثل صار، وكأنهم قالوا - والله أعلم -: لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتصيرن كفاراً مثلنا. وحينئذ يندفع السؤال. أو يسلم استعمال العود بمعنى الرجوع إلى أمر سابق. ويجب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ مَالِكُومُ الظُّلُمَاتِ﴾. والإخراج يستدعي دخولاً سابقاً فيما وقع الإخراج منه، ونحن نعلم أن المؤمن الناشئ في الإيمان لم يدخل قط في ظلمة الكفر ولا كان فيها. وكذلك الكافر الأصلي لم يدخل قط في نور الإيمان ولا كان فيه، ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية التي خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكناً منه لو أراد. فعبر عن تمكن المؤمن من الكفر ثم عدوله عنه إلى الإيمان إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور. توفيقاً من الله له ولطفاً به. وبالعكس في حق الكافر، وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَاطَةَ بِالْهُدَى﴾ وهو من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب. وفائدة اختياره في هذه المواضع تحقيق التمكن والاختيار لإقامة حجة الله على عباده، والله أعلم.

قومه، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم، وإن كان بريئاً من ذلك؛ إجراء للكلامه على حكم التغليب.

فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، والله - تعالى - متعال أن يشاء ردة المؤمنين<sup>(١)</sup>، وعودهم / ٢٤٧ أ في الكفر<sup>(٢)</sup>؟

قلت: معناه إلا أن يشاء الله خذلاننا ومنعنا الألفاظ، لعلمه أنها لا تنفع فينا، وتكون عبثاً، والعبث: قبيح لا يفعله الحكيم، والدليل عليه قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، أي: هو عالم بكل شيء مما كان وما يكون، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحول، وقلوبهم كيف تتقلب، وكيف تقسو بعد الرقة، وتمرض بعد الصحة، وترجع إلى الكفر بعد الإيمان، ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾: في أن يثبتنا على الإيمان، ويوفقنا لازدياد الإيقان، ويجوز أن يكون قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾: حسماً لطمعهم<sup>(٣)</sup> في العود؛ لأن مشيئة الله لعودهم في الكفر محال خارج عن الحكمة<sup>(٤)</sup>، ﴿أُولَؤُكَ كَاهِنِينَ﴾: الهمزة: للاستفهام، والواو: واو الحال، تقديره: أتعيدوننا في ملتكم في حال كراهتنا، ومع كوننا كاهينين، وما يكون لنا، وما ينبغي لنا، وما يصح لنا، ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا﴾: احكم بيننا، و«الفتاحة»: الحكومة، أو أظهر أمرنا حتى يتفتح ما بيننا، ﴿وَبَيِّنْ قَوْمَنَا﴾: وينكشف بأن تنزل عليهم عذاباً يتبين معه أنهم على الباطل، ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾؛ كقوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠].

فإن قلت: كيف أسلوب قوله: ﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾؟

- (١) قوله: «والله تعالى متعال أن يشاء ردة المؤمنين» أي تنزه عن أن يشاء... إلخ، على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يريد الشر. أما عند أهل السنة فيريده كالخير.
- (٢) قال محمود: «إن قلت: الله تعالى مقدس عن أن يشاء ردة المؤمنين وعودهم إلى الكفر... إلخ». قال أحمد: وهذا السؤال كما ترى مفرغ على القاعدة الفاسدة، في اعتقاد وجوب رعاية الصلاح والأصلح، وهو غير موجه على قاعدة السنة، فظاهر الآية هو المعمول عليه لا يجوز تأويله ولا تبديله. وأما استدلال الزمخشري على صحة تأويله بقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فمن احتيالاته في التأويلات الباطلة، يعضدها ويتبع الشبه ويلفقها. وموقع قوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة والاطلاع على الأمور الغائبة، فإن العود إلى الكفر جائز في قدرة الله أن يقع من العبد، ولو وقع فيقدرة الله ومشيتته المغيبة عن خلقه، فالحذر قائم والخوف لازم، ولكن لمن وفقه الله تعالى للعقيدة الصحيحة والإيمان السالم، والله الموفق. ونظيره قول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ لما رد الأمر إلى المشيئة وهي مغيبة مجد الله تعالى بالانفراد بعلم الغائبات، والله أعلم.
- (٣) عاد كلامه. قال: ويجوز أن يكون المراد حسم طمعهم... إلخ، قال أحمد: وهذا من الطراز الأول، فألحقه به، وسحقاً سحقاً.
- (٤) قوله: «محال خارج عن الحكمة» مبني على مذهب المعتزلة أيضاً.

قلت: هو إخبار مقيد بالشرط، وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون كلاماً مستأنفاً فيه معنى التعجب، كأنهم قالوا: ما أكذبنا على الله إن عدنا في الكفر بعد الإسلام؛ لأن المرتد أبلغ في الافتراء من الكافر؛ لأن الكافر مُفْتَرٍ على الله الكذب؛ حيث يزعم أن الله نذاً ولا نذ له، والمرتد مثله في ذلك وزائد عليه؛ حيث يزعم أنه قد تبين له ما خفي عليه من التمييز بين الحق والباطل.

والثاني: أن يكون قسماً على تقدير حذف اللام، بمعنى: والله لقد افترينا على الله كذباً.

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَيْرُونَ ﴿٩١﴾ فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿٩٢﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَكُونُوا شُعَيْبًا ﴾

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ أي: أشرافهم للذين دونهم يشبطونهم عن الإيمان، ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَيْرُونَ ﴾: لاستبدالكم الضلالة بالهدى؛ كقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبَحَت بِحَنَرَتِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٦]، وقيل: تخسرون باتباعه فوائد البخس والتطفيف؛ لأنه ينهاكم عنهما، ويحملكم على الإيفاء والتسوية.

فإن قلت: ما جواب القسم الذي وطأته اللام في: ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا ﴾، وجواب الشرط؟

قلت: قوله: ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَيْرُونَ ﴾، ساذ مسد الجوابين<sup>(١)</sup>، ﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا ﴾: مبتدأ خبره، ﴿ كَأَن لَّمْ يَفْنَوْا فِيهَا ﴾، وكذلك: ﴿ كَأَن لَّمْ يَكُونُوا شُعَيْبًا ﴾، وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص، كأنه قيل: الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله، الذين كذبوا شعيباً هم

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «والذي قاله النحويون: إن جواب الشرط محذوف؛ لدلالة جواب القسم عليه، ولذلك وجب مضي فعل الشرط، فإن عنى بأنه ساذ مسدّهما: أنه اجتزى بذكره عن ذكر جواب الشرط، فهو قريب، وإن عنى من حيث الصناعة النحوية، فليس كما زعم، لأن الجملة يمتنع ألا يكون لها محل من الإعراب، وأن يكون لها محل من الإعراب». قلت: قد تقدمت هذه المسألة مراراً، واعتراض الشيخ عليه، وتقدم الجواب عنه، فلا أعيده اكتفاء بما تقدم. ويعني الشيخ بقوله: لأن الجملة يمتنع ألا يكون لها محل من الإعراب إلى آخره: «أنها من حيث كونها جواباً للشرط يستدعي أن يكون لها محل من الإعراب، وهو الجزم، ومن حيث كونها جواباً للقسم يستدعي ألا يكون لها محل؛ إذ الجملة التي هي جواب القسم لا محل لها، لأنها من الجمل المستأنفة المبتدأ بها، وقد تقرر أن الجملة الابتدائية لا محل لها. انتهى. الدر المصون.

المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا؛ كأن لم يقيموا في دارهم؛ لأن الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله ﴿الذين كذبوا شعيباً﴾ هم المخصوصون بالخسران العظيم، دون أتباعه/ ٢٤٧ ب فإنهم الراحون، وفي هذا الاستئناف والابتداء وهذا التكرير: مبالغة في رد مقالة الملا لأشياعهم، وتسفيه لرأيهم، واستهزاء بنصحهم لقومهم، واستعظام لما جرى عليهم.

﴿فَنَوَّلَىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ

كُفِرُوا﴾

الأسى: شدة الحزن؛ قال العجاج: [من الرجز]

وَأَنحَلَبْتُ عَيْنَاهُ مِنْ فَرَطِ الْأَسَى

اشتد حزنه على قومه، ثم أنكر على نفسه، فقال: فكيف يشتد حزني على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم؛ لكفرهم، واستحقاقهم ما نزل بهم، ويجوز أن يريد: لقد أعدت إليكم في الإبلاغ، والنصيحة، والتحذير مما حل بكم، فلم تسمعوا قولي، ولم تصدقوني، فكيف آسى عليكم؟ يعني: أنه لا يأسى عليهم؛ لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى.

وقرأ يحيى بن وثاب: «فكيف إيسى»، بكسر الهمزة.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَعَثَةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩٥)

﴿إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ﴾: بالبؤس والفقير، ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾: بالضر، والمرض؛ لاستكبارهم عن اتباع نبيهم، وتعززهم عليه، ﴿لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾: ليتضرعوا، ويتذللوا، ويحطوا أودية الكبر والعزة، ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي: أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء، والمحنة، والرخاء، والصحة، والسعة؛ كقوله ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾: كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم، من قولهم: عفا النبات، وعفا الشحم والوبر: إذا كثرت؛ ومنه قوله - ﷺ -: «وَأَعْفُوا اللَّحَىٰ» (٦٠٩). وقال الحطيطي: [من الطويل]

بِمُسْتَأْسِدِ الْقِرْيَابِ عَافَ نَبَاتُهُ<sup>(١)</sup>

٦٠٩ - تقدم في سورة البقرة. انتهى.

(١) فإن نظرت يوماً بمؤخر عينها إلى علم في الغور قالت أبعد =

وقال: [من الوافر]

وَلَكِنَّا نَعُضُّ السَّيْفَ مِنْهَا بِأَسْوَقَ عَافِيَاتِ الشُّحْمِ كُومٍ<sup>(١)</sup>  
﴿وَقَالُوا قَدْ مَنَّآ أَبَاهُمْ عَلَى السَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءُ﴾ يعني: وأبطرتهم النعمة، وأشروا، فقالوا: هذه عادة الدهر، يعاقب في الناس بين الضراء والسراء، وقد مس أباءنا نحو ذلك، وما هو بابتلاء من الله لعباده، فلم يبق بعد ابتلائهم بالسيئات والحسنات إلا أن نأخذهم بالعذاب،

= بأرض ترى فرخ الحبارى كأنها بمستأسد القريان عاف نباته بها راكب موف على ظهر قردد تساقطني والرحل من صوت هدد للخطيئة. ومؤخر العين - كمؤمن -: جانبها. والعلم: الجبل والعلامة في الطريق. والغور: الموضوع الغائر المنخفض. وقالت له «أبعد» مجاز عن تركها إياه بسرعة، فيبعد عنها. والحبارى: طير يهوى الجبال، وفرخها يسمي النهار. وفرخ الكروان يسمي الليل. والموفي: المشرف. والقردد - كهدهد - المكان الغليظ المرتفع. والمستأسد: النبات القوي الغليظ الطويل، كما سمي السبع أسداً لقوته. والقريان - بالضم - جمع قرى كفعيل: مجرى الماء الذي يجمعه إلى الروض. والعافي الكثير، يصف ناقته بسرعة السير وأنها لخوفها في ذلك الطريق لا تتمكن من تمام النظر إلى أعلامه، فإذا لمحت فيه شيئاً أسرعت مبعدة عنه في أرض مجهل، كأن فرخ الحبارى فيها راكب مشرف فوق مكان مرتفع. وقوله: «بمستأسد» بدل من قوله: «بأرض، أو متعلق بتساقطني. والمعنى: أنه لا فرق عندها بين الحزن والسهل في نبات الغدران حال كثرتها» ترميني مع رحلها لسرعة سيرها من خوفها من صوت هدهد واحد. وعلى الأول، تساقطني حال من فاعل «قالت» أو جواب الشرط، وقالت له: أبعد، صفة علم. وعبر بالتساقط، لأن المعنى: كلما تمكنت حركتي، حتى أكاد أسقط. ينظر: ديوانه (١٩)، الدر المصون (٣/٣٠٧).

(١) إذا ما درها لم يقر ضيفاً ضمن له قراه من الشحوم فلا تتجاوز العضلات منها إلى البكر المعازب والكزوم ولكنها نعض السيف منها بأسوق عافيات الشحم كوم للبيد بين ربيعة العامري. يقول: إذا لم يكف در النوق في قرى الضيف، كان قراه من شحومها، فأسند القرى إلى اللبن لأنه آله أو سببه. وإسناد الضمان إلى نوق الإبل مجاز أيضاً، لأنها محل المضمون. والفلعان في الحقيقة لمالك الإبل. والمراد: أنها معدة لذلك إما بلبنها أو شحمها. والعضلة: الحسنه السمينة. والبكر: الفتى من الإبل ذكراً أو أنثى. والمعازب المهزول، من عزب إذا أبعده. والمعزابة والمعزاب: الذي طالت عزوبته وبعده؛ لعدم نسله أو لبعده عن البيوت، فكأنه بمعنى المباعده في الأصل، ثم أريد به المهزول مجازاً. والكزوم بالزاي القصر. ومنه: كزم ككتف. وأكزم وكزما، فالكزوم كصبور القصيرة. وقيل المسنة التي قصر مشرفها الأسفل عن الأعلى. أو التي لم يبق لها سن من الهرم. وكزمه أيضاً إذا كسره بمقدم فمه. ويجوز أن المعازب بالفتح جمع: معزاب أو معزابة، فيكون البكر مستعملاً في معنى الجمع، أي لا تترك الوسط السمان من الإبل ذاهبين إلى الصغار المهازبل والمسنت البالغات في الهرم، ولكنها نجعل السيف بعض منها، بأسوق جمع ساق مضاف إلى عافيات، أي: كثيرات الشحم لتركها من العمل سنة أو سنتين. والكوم جمع كوما، أي: عظيمات الأسمه مرتفعاتها.

ينظر: ديوانه ١٨٦، اللسان (عطل)، (عفا)، الدر المصون ٣/٣٠٨.

﴿ فَأَخَذْتَهُمْ ﴾ : أشد الأخذ وأفظعه، وهو أخذهم فجأة من غير شعور منهم.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

اللام في القرى: إشارة إلى القرى التي دل عليها قوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ ﴾ [الأعراف: ٩٤]، كأنه قال: ولو أن أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا، ﴿ ءَامَنُوا ﴾: بدل كفرهم، ﴿ وَاتَّقَوْا ﴾: المعاصي مكان ارتكابها، ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾: لا تيناهم بالخير من كل وجه، وقيل: أراد المطر والنبات، ﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم ﴾: بسوء كسبهم، ويجوز أن تكون اللام في القرى للجنس.

فإن قلت: ما معنى فتح البركات عليهم؟

قلت: تيسيرها عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها، ومنه قولهم: فتحت على القارئ، إذا تعذرت عليه القراءة فيسرتها عليه بالتلقين.

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

«البيات»: يكون بمعنى البيوتة، يقال: بات بياتاً؛ ومنه قوله تعالى: ﴿ فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤]، وقد يكون بمعنى التبييت، كالسلام بمعنى التسليم، يقال: بيته العدو/ ٢٤٨ بياتاً، فيجوز أن يراد: أن يأتيهم بأسنا بائتين، أو وقت بيات، أو مبيتاً، أو مبيتين، أو يكون بمعنى تبييتاً، كأنه قيل: أن يبيتهم بأسنا بياتاً، و﴿ ضُحًى ﴾: نصب على الظرف، يقال: أتانا ضحى، وضحياً، وضحاء، والضحى - في الأصل - اسم لضوء الشمس إذا أشرفت، وارتفعت، والفاء والواو في: ﴿ أَفَأَمِنَ ﴾، و﴿ أَوْ آمِنَ ﴾: حرفا عطف دخلت عليهما همزة الإنكار.

فإن قلت: ما المعطوف عليه؟ ولم عطفت الأولى بالفاء والثانية بالواو؟

قلت: المعطوف عليه قوله: ﴿ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً ﴾، وقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ﴾ إلى ﴿ يَكْسِبُونَ ﴾ وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه، وإنما عطف بالفاء؛ لأن المعنى: فعلوا، وصنعوا، فأخذناهم بغتة، أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً، وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى؟

وقرىء: «أو أمن»، على العطف بـ «أو»، ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾: يشتغلون بما لا يجدي عليهم كأنهم يلعبون.

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٩٩)

فإن قلت: فلم رجع فعطف بالفاء قوله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾؟

قلت: هو تكرير لقوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾، ومكر الله: استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر، ولا استدراجه، فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله، كالمحارب الذي يخاف من عدوه الكمين، والبيات، والغيلة، وعن الربيع بن خثيم، أن ابنته قالت له: ما نرى أرى الناس ينامون، ولا أراك تنام، فقال: يا بنتاه، إن أباك يخاف البيات، أراد قوله: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتًا﴾ [الأعراف: ٩٧].

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (١٠٠)

إذا قرىء: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ بالياء، كان ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ﴾: مرفوعاً بأنه فاعله، بمعنى: أو لم يهد للذين يخلفون، من خلا قبلهم في ديارهم، ويرثون أرضهم هذا الشأن، وهو أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم، كما أصبنا من قبلهم، وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورثين، وإذا قرىء بالنون، فهو منصوب؛ كأنه قيل: أو لم يهد الله للوارثين هذا الشأن، بمعنى: أو لم نبين لهم أنا، ﴿لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾: كما أصبنا من قبلهم، وإنما عددي فعل الهداية باللام؛ لأنه بمعنى التبيين.

فإن قلت: بم تعلق قوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾<sup>(١)</sup>؟

(١) قال محمود: «إن قلت بم يتعلق قوله ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾... إلخ» قال أحمد: بل يجوز والله عطفه عليه، ولا يلزم أن يكون المخاطبون موصوفين بالطبع، ولا يضرهم إن كانوا كفاراً أو مقترفين للذنوب، فليس الطبع من لوازم اقتراف الذنب ولا بد، إذ الطبع هو التمادي على الكفر والإصرار والغلو في التصميم، حتى يكون الموصوف به مأیوساً من قبوله للحق. ولا يلزم أن يكون كل كافر بهذه المثابة. بل إن الكافر يهدد من تماديه على كفرهم بأن يطبع الله على قلبه، فلا يؤمن أبداً، وهو مقتضى العطف على أصبناهم، فتكون الآية قد هددهم بأمرين، أحدهما: الإصابة ببعض ذنوبهم، والآخر الطبع على قلوبهم. وهذا الثاني أشد من الأول، وهو أيضاً نوع من الإصابة بالذنوب أو العقوبة عليها، ولكنه أنكى العذاب وأبلغ صنوف العقاب. وكثيراً ما يعاقب الله على الذنب بالإيقاع في ذنب أكبر منه وعلى الكفر بزيادة التصميم عليه والغلو فيه، كما قال تعالى: ﴿فَرَادَتْهُمْ رِيحًا إِلَى رِيحِهِمْ﴾ كما زادت المؤمنين إيماناً إلى إيمانهم. وهذا النوع من الثواب والعقاب مناسب لما كان سبباً فيه وجزاء عليه، فثواب الإيمان وإيمان وثواب الكفر كفر. وإنما الزمخشري يحاذر من هذا الوجه دخول الطبع في مشيئة الله تعالى. وذلك عنده محال؛ لأنه قبيح والله عنه متعال، وأنى يتم الفرار من الحق. وكم من آية صرحت بوقوع الطبع من الله، فضلاً عن تعلق المشيئة به.

قلت: فيه أوجه: أن يكون معطوفاً على ما دلّ عليه معنى: ﴿أَوَلَوْ يَهْدَى﴾؛ كأنه قيل: يغفلون عن الهداية، ونطبع على قلوبهم، أو على يرثون الأرض، أو يكون منقطعاً بمعنى: ونحن نطبع على قلوبهم.

فإن قلت: هل يجوز أن يكون: «ونطبع» بمعنى «وطبعنا»، كما: (لو نشاء) بمعنى: لو شئنا، ويعطف على أصنافهم؟

قلت: لا يساعد عليه المعنى؛ لأن القوم كانوا مطبوعاً على قلوبهم، موصوفين بصفة من قبلهم من اقرار الذنوب والإصابة بها، وهذا التفسير يؤدي إلى خلوهم عن هذه الصفة، وأن الله - تعالى - لو شاء لاتصفوا بها.

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١١١﴾﴾

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا﴾ / ٢٤٨؛ كقوله: ﴿وَهَذَا بَعْلَى شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] في أنه مبتدأ، وخبر، وحال، ويجوز أن يكون: (القرى): صفة لـ (تلك)، و(نقص): خبراً وأن يكون: (القرى نقص): خبراً بعد خبر.

فإن قلت: ما معنى: (تلك القرى) حتى يكون كلاماً مفيداً؟

قلت: هو مفيد، ولكن بشرط التقييد بالحال، كما يفيد بشرط التقييد بالصفة في قولك: هو الرجل الكريم.

فإن قلت: ما معنى الإخبار عن القرى بنقص عليك من أنبائها؟

قلت: معناه: أن تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أنبائها، ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾؛ عند مجيء الرسل بالبينات بما كذبوه من آيات الله من قبل مجيء الرسل، أو فما كانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل، أي: استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرين، لا يروعون ولا تلين شكيمتهم في كفرهم وعنادهم مع تكرار المواعظ عليهم، وتتابع الآيات، ومعنى اللام: تأكيد النفي، وأن الإيمان كان منافياً لحالهم في التصميم على الكفر، وعن مجاهد: هو كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨] ﴿وَكَذَلِكَ﴾: مثل ذلك الطبع الشديد نطبع على قلوب الكافرين.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١١٢﴾﴾

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ تِنَّ عَهْدًا﴾: الضمير للناس على الإطلاق، أي: وما وجدنا لأكثر الناس من عهد، يعني: أن أكثرهم نقض عهد الله، وميثاقه في الإيمان والتقوى، ﴿وَإِنْ وَجَدْنَا﴾: وإن الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين، خارجين عن الطاعة مارقين، والآية: اعتراض<sup>(١)</sup>، ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين، وأنهم كانوا إذا عاهدوا الله في ضرر ومخافة، لئن أنجيتنا لنؤمنن، ثم نجاهم نكثوا كما قال قوم فرعون لموسى - عليه السلام -: لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك، إلى قوله: ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥]، والوجود بمعنى: العلم من قولك: وجدت زيدا ذا الحفاظ؛ بدليل دخول «إن» المخففة، واللام الفارقة، ولا يسوغ ذلك إلا في المبتدأ والخبر، والأفعال الداخلة عليهما.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرْنَا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [١١٣] وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١١٥﴾

﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾: الضمير للرسول في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٠١]، أو للأمم، ﴿فَظَلَمُوا﴾: فكفروا بآياتنا، أجرى الظلم مجرى الكفر؛ لأنهما من واد واحد، ﴿إِنَّكَ أَلْتَرِكَ لَظُلْمًا عَظِيمًا﴾ [لقمان: ١٣]، أو فظلموا الناس بسببها حين أوعدهم وصدّوهم عنها، وأدوا من آمن بها؛ ولأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بدل الإيمان، كان كفرهم بها ظلماً؛ فلذلك قيل: فظلموا بها، أي: كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه، وهو موضع الإيمان، يقال لملوك مصر: «الفراعنة»، كما يقال لملوك فارس: «الأكاسرة»، فكأنه قال: يا ملك مصر، وكان اسمه «قابوس»، وقيل: «الوليد بن مصعب بن الريان»، ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾: فيه أربع قراءات، المشهورة: «وحقيق/ ٢٤٩ علي أن لا أقول»<sup>(٢)</sup>، وهي قراءة نافع، «وحقيق أن لا أقول»، وهي قراءة عبد الله، و«حقيق بأن لا

(١) قال السمين الحلبي: وفيه نظر؛ لأنه إذا كان الأول عاماً، ثم ذكر شيء يندرج فيه ما بعده وما قبله، كيف يجعل ذلك العام معترضاً بين الخاصين، وأيضاً فالتحويين إنما يعرفون الاعتراض فيما اعتراض به بين متلازمين، إلا أن أهل البيان عندهم الاعتراض أعم من ذلك، حتى إذا أتى بشيء بين شيئين المذكورين في قصة واحدة سموه اعتراضاً. انتهى. الدر المصون.

(٢) قال محمود: «فيه أربع قراءات، المشهورة: وحقيق علي أن لا أقول . . . إلخ» قال أحمد: القلب يستعمل في اللغة على وجهين، أحدهما: قلب الحقيقة إلى المجاز لوجه من المبالغة كقوله [من الطويل]:  
 . . . . .  
 وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر  
 وكقوله [من البسيط]:

قد صرح السر عن كتمان ما ابتذلت      وضع المحاجن بالمهرية الدقن =

أقول» وهي قراءة أبيّ، وفي المشهورة إشكال، ولا تخلو من وجوه.

أحدها: أن تكون مما يقلب من الكلام لأمن الإلباس؛ كقوله [من الطويل]

وَتَشْقَى الرِّمَاحُ بِالضُّبَايِرَةِ الحُمْرِ<sup>(١)</sup> .....

ومعناه: وتشقى الضياطرة بالرماح، «وحقيق عليّ أن لا أقول»، وهي قراءة نافع.

= فالحقيقة أن الضياطرة تشقى بالرماح، والمهريّة تبذل بالمحاجن، فعدل عن ذلك تنبيهاً على أن الرماح قد تنفصل وتنقص في أجوافهم، فعبر عن ذلك بالشقاء، وأن المحاجن كثيراً ما ترفع وتوضع وتستعمل في ضرب المهريّة، وربما تمزقت عن ذلك فجعل ذلك ابتداءً لها، وقد حام أبو الطيب حول هذا النوع كثيراً في أمثال قوله [من البسيط]:

والسيف يشقى كما تشقى الضلوع به      وللسيوف كما للناس آجال

والمراد بشقاء السيف: انقطاعه في أضلاع المضروب، كما صرح بذلك في قوله [من الطويل]:

طوال الردينيّات يقصفها دمي      وبيض السريجيّات يقطعها لحمي

الوجه الثاني: قلب معرى عن هذا المعنى البليغ، ولذلك لا يستفصح، كقولهم: خرق الثوب المسمار وأشباهه، وعلى الوجه الأول الأفصح جاءت الآية على هذه القراءة، وهو الوجه الرابع من وجوه الزمخشري، وفي طيه من المبالغة ما نبهت عليه. وأما الوجه الثاني وهو «أن ما لزمك فقد لزمته» ففيه نظر من حيث أن اللزوم قد يكون من أحد الطرفين دون الآخر، ولزوم موسى عليه السلام لقول الحق من هذا النمط، وأما الوجه الثالث فلا يلائم بين القراءتين، وقد ذكر لها وجه خامس: وهو أن يكون «على» بمعنى الباء، ونقل «رميت على القوس» بمعنى رميت بالقوس، وهو وجه حسن ملائم، والله أعلم. ويشهد له قراءة أبي: حقيق بأن لا أقول.

كذبتم وبيت الله حين تعالجوا      قوادم حرب لا تليّن ولا تمرى

نزلت بخيل لا هوادة بينها      وتشقى الرماح بالضياطرة الحمر

لخداش بن زهير، يقول لقومه: كذبتم وحق بيت الله: في دعواكم إمكان الصلح، وهذا يعلم ضمناً من قوله: «حين تعالجوا، أو استعار الكذب للخطأ في الظن أو الرأي، أي أخطأتم في ممارستكم الجماعات القادّات الحرب لأجل الصلح. ويشبه أن يكون قوله: «تعالجوا» محرفاً، وأصله بالصاد والحاء بدل العين والجيم، وعلى كل فحذف نونه للوزن أو للتخفيف، و«لا تليّن» صفة قوادم. وأمرت الناقة: در لبّنها، شبه الرضاء بالصلح بأمر الناقة. على طريق التصريح، ثم نفاه وبين ذلك بقوله: «نزلت بخيل» أي في أصحاب خيل. ويحتمل أن الخيل مجاز عن الفرسان، أو كناية عنهم. وروي «وتلحق خيل» فهو عطف على «لا تليّن» أي: وتسرع خيل منها. والهوادة: الصلح والبقية من القوم يرجى بها صلاحهم، والمعنى أنهم لا يرجى صلحهم. وتشقى: أي تتعب الرماح بسبب الضياطرة، وهو من باب القلب لا من اللبس. والمعنى: وتشقى الضياطرة بالرماح. والضيطر: الضخم الجبان. وقياس جمعه ضياطير، إلا أنه عوض الهاء من الياء. والحمر عند العرب: كناية عن العجم، لأنها تصف الحسن بالأخضر، والقيح بالأحمر. والمعنى: تتعب ضياطرتهم من حمل رماحهم. ويجوز أن المراد من طعن رماحنا. ويحتمل أن لا قلب، وأنه بالغ في ضمهم، حتى كأن الرماح تتعب من طعنهم، لكن الأول هو المنقول. والمعنى: لا تصالحوهم بل نحاربهم.

ينظر: الأضداد ١٥٣، لسان العرب (ضطر)، أمالي المرتضى ٤٦٦/١، سر صناعة الإعراب ١/

٣٢٣، والصاحبي في فقه اللغة ص ٢٠٣، الدر المصون ٣/٣١٤.

والثاني: أنَّ ما لزمك فقد لزمته، فلما كان قول الحق حقيقاً عليه، كان هو حقيقاً على قول الحق، أي: لازماً له.

والثالث: أن يضمن: (حقيق) معنى حريص، كما ضمن: «هيجني» معنى ذكرني في بيت الكتاب.

والرابع - وهو الأوجه - الأدخل في نكت القرآن: أن يعرق موسى<sup>(١)</sup> في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام، لا سيما وقد روي أنَّ عدو الله فرعون قال له - لما قال: ﴿إِنِّي الحق أن أكون أنا قائله، والقائم به، ولا يرضى إلا بمثلي ناطقاً به، ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾: فخلهم حتى يذهبوا معي، راجعين إلى الأرض المقدسة التي هي وطنهم ومولد آبائهم، وذلك أن يوسف - عليه السلام - لما توفي، وانقرضت الأسباط، غلب فرعون نسلهم، واستعبدهم، فأنقذهم الله بموسى - عليه السلام - وكان بين اليوم الذي دخل يوسف مصر واليوم الذي دخله موسى أربعمئة عام.

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٦٦) ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (١٦٧) ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ﴾ (١٦٨)

فإن قلت: كيف قال له: ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ بعد قوله: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ﴾؟

قلت: معناه إن كنت جئت من عند من أرسلك بآية، فأنتي بها، وأحضرها عندي، لتصح دعواك، ويثبت صدقك، ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾: ظاهر أمره لا يشك في أنه ثعبان، وروي أنه كان ثعباناً ذكراً، أشعر، فاغراً فاه<sup>(٢)</sup>، بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحيه الأسفل في الأرض، ولحيه الأعلى على سور القصر، ثم توجه نحو فرعون ليأخذه، فوثب فرعون من سريره، وهرب، وأحدث، ولم يكن أحدث قبل ذلك، وهرب الناس وصاحوا، وحمل على الناس فانهزموا فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، قتل بعضهم بعضاً، ودخل فرعون البيت وصاح: يا موسى، خذه، وأنا أو من بك، وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه موسى فعاد عصى.

فإن قلت: بم يتعلق: ﴿لِلنَّظِيرِينَ﴾؟

(١) قوله: «أن يعرق موسى» لعله: يفرق بالمعجمة. وفي الصحاح. أغرق النازع في القوس، أي استوفى مداها.

(٢) قوله: «فاغراً فاه» أي فاتحاً فاه.

قلت: يتعلق بـ «بيضاء»، والمعنى: فإذا هي بيضاء للنظارة، ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضاً عجبياً، خارجاً عن العادة، يجتمع الناس للنظر إليه، كما تجتمع النظارة للعجائب؛ وذلك ما يروى أنه أرى فرعون يده وقال: ما هذه؟ قال: يدك، ثم أدخلها جيبه، وعليه/ ٢٤٩ ب مدرعة صوف ونزعها، فإذا هي بيضاء بياضاً نورانياً، غلب شعاعها شعاع الشمس، وكان موسى - عليه السلام - آدم شديد الأدمة.

﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١١٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١٢١﴾ يَا تَوَكُّلْ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿١٢٢﴾ ﴾

﴿ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: عالم بالسحر، ماهر فيه، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه، حتى خيل إليهم العصى حية، والآدم أبيض.

فإن قلت: قد عزي هذا الكلام إلى فرعون في سورة الشعراء، وأنه قاله للملأ وعزي ههنا إليهم.

قلت: قد قاله هو، وقالوه هم، فحكى قوله ثم وقولهم ههنا، أو قاله ابتداء فتلقته منه الملأ، فقالوه لأعقابهم، أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ، كما يفعل الملوك: يرى الواحد منهم الرأي، فيكلم به من يليه من الخاصة، ثم تبلغه الخاصة العامة، والدليل عليه أنهم أجابوه في قولهم: ﴿ أَرَجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا تَوَكُّلْ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴾، وقرىء: «سحار»، أي: يأتوك بكل ساحر مثله في العلم والمهارة، أو بخير منه، وكانت هذه مؤامرة مع القبط، وقولهم: (فماذا تأمرون): من أمرته فأمرني بكذا، إذا شاورته، فأشار عليك برأي، وقيل: فماذا تأمرون؟ من كلام فرعون، قاله للملأ لما قالوا له: إن هذا لساحر عليم، يريد أن يخرجكم، كأنه قيل: فماذا تأمرون؟ قالوا: أرجئه وأخاه، ومعنى أرجئه وأخاه: أخرهما، وأصدرهما عنك، حتى ترى رأيك فيهما، وتدبر أمرهما، وقيل: احبسهما، وقرىء: «أرجئه»، بالهمزة، «وأرجه»، من أرجأه وأرجاه.

﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٢٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

فإن قلت: هلا قيل: وجاء السحرة فرعون فقالوا؟

قلت: هو على تقدير سائل سأل: ما قالوا إذ جاؤوه؟ فأجيب بقوله: ﴿ قَالُوا إِنَّ لَنَا

لَأَجْرًا ﴿١١٤﴾ أي: جُعلا على الغلبة، وقرئ: «إن لنا لأجراً»، على الإخبار، وإثبات الأجر العظيم، وإيجابه؛ كأنهم قالوا: لا بد لنا من أجر، والتكثير للتعظيم؛ كقول العرب: إن له لإيلاً، وإن له لغنماً، يقصدون الكثرة.

فإن قلت: ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقْرَبِينَ﴾، ما الذي عطف عليه؟

قلت: هو معطوف على محذوف سدّ مسدّه حرف الإيجاب؛ كأنه قال إيجاباً لقولهم: إن لنا لأجراً، نعم إن لكم لأجراً، وإنكم لمن المقربين، أراد: إني لأقتصر بكم على الثواب وحده، وإن لكم مع الثواب ما يقل معه الثواب، وهو التقريب والتعظيم؛ لأنّ المثاب إنما يتهنأ بما يصل إليه ويغبط به إذا نال معه الكرامة والرفعة.

وروي أنه قال لهم: تكونون أول من يدخل وآخر من يخرج، وروي أنه دعا برؤساء السحرة، ومعلميهم، فقال لهم: ما صنعتم؟ قالوا: قد علمنا سحراً لا يطيقه سحرة أهل الأرض، إلا أن يكون أمراً من السماء؛ فإنه لا طاقة لنا به، وروي أنهم كانوا ثمانين ألفاً، وقيل: سبعين ألفاً، وقيل: بضعة وثلاثين ألفاً، واختلفت الروايات، فمن مقل ومن مكثر، وقيل: كان يعلمهم مجوسيان من أهل نينوى، وقيل: قال فرعون: لا تغالب موسى إلا بما هو منه، يعني السحر.

﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا  
سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَرْجَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ  
عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغَلِبُوا هُنَاكَ  
وَأَقْبَلُوا صَعِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ  
وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴿

تخييرهم/ ٢٥٠ إياه أدب حسن راعوه معه، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين، قبل أن يتحاوضوا في الجدل، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصرع، وقولهم: ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾: فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل، وتعريف الخبر، أو تعريف الخير، وإقحام الفصل، وقد سوغ لهم موسى ما تراغبوا فيه؛ ازدراء لشأنهم، وقلة مبالاة بهم، وثقة بما كان بصدده من التأييد السماوي، وأن المعجزة لن يغلِبها سحر أبداً، ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾: أروها بالحيل والشعوذة<sup>(١)</sup>، وخيلوا إليها ما الحقيقة بخلافه؛ كقوله تعالى: ﴿يُحِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُ

(١) قال محمود: «معناه أروها بالحيل والشعوذة... إلخ» قال أحمد: معتقد المعتزلة إنكار وجود =

تَتَقَى ﴿طه: ٦٦﴾. روي أنهم ألقوا حبلاً غلاظاً، وخشياً طويلاً، فإذا هي أمثال الحيات، قد ملأت الأرض، وركب بعضها بعضاً، ﴿وَأَسْرَهُبُهُمْ﴾: وأرهبوهم إرهاباً شديداً، كأنهم استدعوا رهبتهم، ﴿بِسِحْرِ عَظِيمٍ﴾: في باب السحر، روي أنهم لonnوا حبالهم وخشبهم، وجعلوا فيها ما يوهم الحركة، قيل: جعلوا فيها الزئبق ﴿مَا يَأْكُونُ﴾: «ما» موصولة أو مصدرية، بمعنى: ما يأفكونه، أي: يقبلونه عن الحق إلى الباطل ويزورونه، أو إفكهم، تسمية للمأفوك بالإفك، روي أنها لما تلقفت ملء الوادي من الخشب، والحبال، ورفعها موسى، فرجعت عصى كما كانت، وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة، أو فرقها أجزاء لطيفة، قالت للسحرة: لو كان هذا سحراً، لبقيت حبالنا وعصينا، ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾: فحصل وثبت، ومن بدع التفاسير: «فوقع قلوبهم» أي: فآثر فيها من قولهم، قاس وقيع، ﴿وَأَنقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾: وصاروا أذلاء مبهوتين، ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ﴾<sup>(١)</sup>: وخزوا سجداً، كأنما

= السحر والشياطين والجن في خيط طويل لهم. ومعتقد أهل السنة إقرارها الظواهر على ما هي عليه، لأن العقل لا يحيل وجود ذلك. وقد ورد السمع بوقوعه، فوجب الإقرار بوجوده، ولا يمنع عند أهل السنة أن يرقى الساحر في الهواء، ويستدق فيتولج في الكوة الضيقة، ولا يمنع أن يفعل الله عند إرشاد الساحر ما يستأثر الاقتدار عليه، وذلك واقع بقدرته الله - تعالى - عند إرشاد الساحر. هذا هو الحق والمعتقد الصدق، وإنما أجريت هذا الفصل لأن كلام الزمخشري لا يخلو من رمز إلى إنكاره، إلا أن هذا النص القاطع بوقوعه يلجمه عن التصريح بالدفاع وكشف القناع، ولا يدعه التصميم على اعتقاد المعتزلة من التنفيس عما في نفسه، فيسميه شعوذة وحيلة. وبالقطع يعلم أن الشعوذة لا تعلم في يد ابن عمر - رضي الله عنه - حتى بكوعها، ولا تؤثر في سيد البشر حتى يخيل إليه أنه يأتي نساء وهو لا يأتيهن. وقد ورد ذلك وأمثاله مستفيضاً واقعاً، فالعمدة أن كل واقع فبقدرته الله تعالى، فلا يمتنع أن يوقع تعالى بقدرته عند إرشاد الساحر أعاجيب يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء، والله الموفق.

(١) عند قوله - تعالى - ﴿فَقُلُوبُهُمْ كَالْحَبِّ ذُرَّيْنِ﴾ و﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ﴾ نلاحظ استعمال الفعل «ألقى» بالبناء للمجهول والمفسر العلامة له مبحث دقيق في استعمالات الأفعال ومقاماتها وخلاصة ذلك: أن الأفعال: ماضٍ، مضارع، أمر، وأهم هذه الأفعال هو المضارع لأن له زمنين الحال والاستقبال، وله صورتان عند النحاة: الإعراب والبناء، أما الماضي والأمر فلهما زمان واحد وحالة واحدة عند أرباب النحو وهي البناء.

وقد اهتم البلاغيون بهذه الصيغ ومواقعها في صورة الكلام. فلا يليق بالمقام إلا ما يناسبه، فلا يوضع الماضي موضع المضارع إلا لنكتة بلاغية، والعكس كذلك.

وكذلك إذا استعملت صيغة الماضي ثلاثين مرة ورباعية أو خماسية مرة أخرى فذلك لتولد المعاني التي يدعو إليها المقام ويقتضيها سياق الكلام، وهذه عجالة يعدها تطبيق على بعض الآيات من خلال كلام المفسر العلامة في النقاط الآتية:

١ - صيغة المضارع تعطينا صورة الحدث حاضراً أمامك مصوراً تراه العين وتسمعه الأذن إذا كان المقام يقتضي ذلك كقوله - تعالى -: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا لِحَبَالِكُمْ مَعَهُمُ السِّحْرَ وَالْإِشْرَاقَ﴾ [ص: ١٨] فانظر إلى الفعل «يسبحن» ودلالته على حدوث التسييح شيئاً فشيئاً.

ألفاهم ملق؛ لشدة خروهم، وقيل: لم يتمالكوا مما رأوا، فكأنهم ألقوا، وعن قتادة:

هذا، وعلينا أن نقف مع قوله - تعالى -: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَوْتًا وَيَقِظْنَ﴾ [الملك: ١٩]. فالطيران بصف الأجنحة دائماً ولهذا جاء المعنى بالاسم، والقبض طارئ متجدد فجاء بالمضارع، فلكل كلمة موقعها على المعنى المقصود، فالآية وصف صادق لحال الطير في طيرانه.

٢ - قد يأتي المضارع لكان ليفيد حكاية الحال الماضية واستحضار الصورة، لأن الفعل له خصوصية وتميز، فكانه حاصل ماضياً وحالاً ومستقبلاً، وهذا ما لحظه المفسر العلامة في قوله - تعالى -: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَثِيرٌ مَّكَابًا فَفُتَّتْ﴾ [فاطر: ٩] فانظر إلى الفعل «أرسل» الماضي ثم يأتي المضارع «ثير» لاستحضار صورة الإنارة لأن السحاب لا يقع منذ الغيب إلا بعد إثارته بالرياح وتحركه إلى أماكن الإغاثة، وجاء الفعل «فسقناه» بالماضي ليفيد التوكيد على رحمة الله بعباده، ونسب السوق إليه لذلك فهذا الفسق يبين الأفعال - أرسل، ثير، فسقناه، لا بد منه لتتم الصورة المرادة.

ويلحظ هذا الاستعمال في قوله - تعالى -: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِّقُوا كَذِبْتُمْ وَفَرِّقًا تَقْتُلُونَ﴾ فعند التكذيب جاء الماضي «كذبتهم» وعند القتل يأتي المضارع «تقتلون» لتتنوع الأفعال.

٣ - ويأتي المضارع مرة أخرى موقع الماضي ليفيد الاستمرار في الحدث بمعونة المقام مع الفارق بين معنى الاستمرار في الاسم ومثله في المضارع هنا، وهذا ما نراه عند قوله - تعالى -: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧] ففي قوله: «لو يطيعكم» استمرار عدم طاعته، فلا قصد لماض ولا لاستقبال.

ويتضح هذا المعنى - أيضاً - في قوله - سبحانه - ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٣٥] فالصدود منهم مستمر دائم وقد يلحظ فرق بين الاستمرارين في الآيتين لأن الصد لا تتخلله فترات انقطاع بخلاف الطاعة لهم من رسوله الله ﷺ.

وهذا ما نراه أيضاً عند قوله - تعالى - ﴿الَّذِينَ تَرَىٰ أَرْسَلَ اللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِغُ الْأَرْضَ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] فالخضرة متجددة باقية زماناً بعد زمان.

مع دراسة الأفعال وصيغتها المضارعية من خلال الآيات نلاحظ أسراراً في هذا الكتاب المعجز.

٥ - صيغة «الماضي» تفيد الوقوع والتحقق، والقرآن الكريم حينما يختار صيغة ويؤثرها على أخرى ليعطينا أن هذه الصيغة لها دلالة لا تؤدي بسواها؛ فصيغة «فعل» بتشديد العين تدل على التدرج والتنجيم كما فهم المفسر العلامة عند قوله - تعالى - ﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا زَكَّيْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] فهذا رد على قولهم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ وكان الجواب ﴿كَذَلِكَ لِنُنزِّلَ بِهِ، فَوَازِلَهُ﴾ [الفرقان: ٣٢] وجواب سورة البقرة بهذا الفعل «نزلنا» يفيد أنهم لو وقفوا أمام سورة منه لعجزوا أن يأتوا بمثله فكيف بالقرآن جميعه، بهذا يفيد المفسرون. ويفرق بين صيغة «فعل» و«افتعل» في قوله - تعالى - ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ فالكسب في الخير لا يحتاج إلى جهد لأنه يتفق مع الإنسان بطبيعته، وأما الاكتساب فإن النفس الأمانة بالسوء تميل إليه، ثم يحاول المرء بكل ما يستطيع أن يصل إليه، ولهذا كان الشر اكتساباً، فالأولى «كسبت» والثانية «اكتسبت» ليفيد كل ما يحتاج إليه مقامه.

٦ - الفعل المبني للمجهول له مواقع الأدبية، وانظر إليه في قصة نبي الله موسى مع السحرة الذين اجتلبهم فرعون فسحروهم، وأكد لهم عطاءه إن كانوا هم الغالبين، فلما رأوا آية موسى واستيقنوها خروا سجداً - سبحانه - ويصور القرآن هذه المفاجأة وهذه السرعة في الانقياد والتسليم فيقول -

كانوا أول النهار كفاراً سحرة، وفي آخره شهداء بررة، وعن الحسن . تراه ولد في الإسلام، ونشأ بين المسلمين، يبيع دينه بكذا وكذا، وهؤلاء كفار نشأوا في الكفر، بذلوا أنفسهم لله .

سبحانه :- ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَيَدْرَأُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١٨﴾ فَمَلَأُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَبْرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَدِينٍ ﴿١٢٠﴾ [الأعراف ١١٨ - ١٢٠] فانظر إلى هذا الأمر الوارد في صورة المبني للمجهول «واللقى»، فهذا الفعل يدل على أنه كأنه جاءهم أمر وإلغاء ملق لشدة خروهم، ويستوحى المفسر هذا البناء بمعناه من قوله - تعالى - ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْ مَاءَكِ وَكَسَمَاءِ أَقْلِي وَغِيصَ الْمَاءِ وَفُصِيَ الْأَمْرُ وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْمُؤْمِرِ الْأَطْلَلِينَ﴾ [هود: ٤٤] وهذه الآية بين فيها المفسر العلامة ما في الأفعال الماضية المبنية للمفعول من دلالة على الجلال والكبرياء وأن فاعلها قادر قاهر، وهو واحد لا شريك له، وهو الله وحده يفعل ذلك .

٧ - وقد يأتي الفعل الماضي بعد أفعال مضارعة أمراً هاما يلفت النظر إلى هؤلاء الفاعلين، وهذا ما أبرزه المفسر عند قوله - تعالى - ﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ رُودًا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢] .

فالأفعال: «يتفقوكم، يكونوا، ويسطوا» مضارعة تفيد التصوير للحرث، ثم الفعل ماضياً مبنياً للمعلوم «وودوا» دون «يودوا» لأنهم يريدون أن يلحقوا بكم كل مضار الحياة، ولكنهم يريدون أن ترتدوا كفاراً قبل كل هذه المضار لأن ضرر الدين أسبق هذه المضار، والعدو يختار لعدوه أعز شيء لديه فيحاول طعنه فيه . ولهذا السرجاء «وودوا لو تكفرون» بهذه الصيغة .

وقد يقع الماضي موضع المضارع ليفيد تحقق الوقوع كقوله - تعالى - ﴿إِنَّا فَتَنَّا لَكَ فَتَنًا مِثْلًا﴾ وهذا الفتح لم يأت بعد ولكنه يريد بيان تحققه .

بهذا البيان يكون بعث الأفعال في هذا التفسير قد أخذ إشارة بلاغية لمعرفة مكان المعاني في ظلال المباني، والبحث في جميع أفعال القرآن في مواقعها لبيان أسرارها في حاجة إلى درس متأن طويل ليخرج لنا زادا طيباً لمن أراد أن يتذكر أو أراد شكوراً، والحمد لله . . .

هذا وللإمام عبد القاهر كلام نفيس في نحو هذا الموقع، ويعيده كلما سنحت الفرصة وجاء المقام بأسلوب آخر للبيان والتوكيد، فيقول:

«وإذا قد عرفت أن مدار أمر النظم على معاني النحو، وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا تجد لها ازدياداً بعدها .

ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها، ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض . . . ٤ . . .

«ينظر دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني - تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي ١٢٣ وما بعدها . والبلاغة القرآنية لأبي موسى ٢٧٩ وما بعدها، والمطول للسعد ١٧١ وما بعدها، والإيضاح للقرظيني بتحقيق خفاجي ١٣٣/٢، ١٣٤، والمنهاج الواضح في البلاغة لحامد عوني ٨٤، وحاشية السيد الشريف على المطول ٣٧٥، وفتح القدير للشوكاني ٤٤/١، والفتوحات الإلهية للجمل ٣/٦٠، وروح المعاني للألوسي ١٦/٨٩، ٩٠، ومفاتيح الغيب ١٠/٤٤٢: ٤٥٢ وتفسير أبي السعود ٢/٢٨٥ .

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنهَا ءَآلَهُآ فَسَوْفَ تَعْمُونَ ﴿١٦٦﴾ لَأَقْطَعَنَّ ءَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَبِّحَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٧﴾﴾

﴿ءَأَمَنْتُمْ بِهِ﴾: على الإخبار، أي: فعلتم هذا الفعل الشنيع، توبيخاً لهم وتقريعاً.

وقرىء: «آمنتهم»، بحرف الاستفهام، ومعناه: الإنكار، والاستبعاد، ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾: إن صنعكم هذا لحيلة احتلتموها أنتم وموسى في مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء، قد تواطأتم على ذلك لغرض لكم، وهو أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بني إسرائيل، وكان هذا الكلام من فرعون؛ تمويهاً على الناس لئلا يتبعوا السحرة في الإيمان، وروي أن موسى - عليه السلام - قال للساحر الأكبر: أتؤمن بي إن غلبتك؟ قال: لأتبعن بسحر لا يغلبه سحر، وإن غلبتني / ٢٥٠ ب لأؤمنن بك، وفرعون يسمع، فلذلك قال ما قال، ﴿فَسَوْفَ تَعْمُونَ﴾: وعيد أجمله ثم فصله بقوله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ﴾، وقرىء: «لأقطعن» بالتخفيف، وكذلك: ﴿ثُمَّ لَأُسَبِّحَنَّكُمْ﴾، ﴿مِّنْ خَلْفٍ﴾: من كل شق طرفاً، وقيل: إن أول من قطع من خلاف وصلب لفرعون.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٦٥﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنَّا إِلَّا ءَأَنَّا ءَأَمْنَا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٦٦﴾﴾

﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾: فيه أوجه، أن يريدوا: إنا لا نبالي بالموت، لانقلابنا إلى لقاء ربنا، ورحمته، وخلصنا منك، ومن لقاءك، أو ننتقل إلى الله يوم الجزاء، فيشينا على شدائد القطع والصلب، أو إنا جميعاً - يعنون أنفسهم - وفرعون ننتقل إلى الله فيحكم بيننا، أو إنا لا محالة ميتون منقلبون إلى الله، فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه، ﴿وَمَا نُنْقِمُ مِنَّا إِلَّا ءَأَنَّا ءَأَمْنَا﴾: وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله، أرادوا: وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها، وهو الإيمان؛ ومنه قوله [من الطويل]:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سَيُوفَهُمْ<sup>(١)</sup> .....

(١) على عرفات للطعان عوابس      بهن كلوم بين دام وجالب  
إذا استنزلوا للطعن عنهن أرقلوا      إلى الموت إرقال الجمال المصاعب  
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم      بهن فلول من قراع الكتابب

للنابغة الذبياني يصف فرساناً على أفراس عارقات صابرات عوابس كوالح، فيهن جروح رطبة بالدم، وأخر يابسة، عليها جلبة، أي قشرة. وإذا التحم القتال واقتضى الحال نزولهم عن الخيل، أسرعوا نازلين عنهن بائعين أعمارهم، كإسراع الجمال المصاعب، جمع مصعب. تقول: أصعبت الجمال إذا تركته عن العمل حتى صار صعباً شديداً. والفلول انثلامات في حد السيف. والقراع: المضاربة. =

﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾: هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا، حتى يفيض علينا ويغمرنا، كما يفرغ الماء فراغاً، وعن بعض السلف: إن أحدكم ليفرغ على أخيه ذنوباً ثم يقول: قد مازحتك، أي: يغمره بالحياء والخجل، أو صب علينا ما يطهرنا من أضرار الآثام، وهو الصبر على ما توعدنا به فرعون؛ لأنهم علموا أنهم إذا استقاموا وصبروا، كان ذلك مطهرة لهم، ﴿وَتَوَقَّأْ مُسْلِمِينَ﴾: ثابتين على الإسلام.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَنُقِيلُ آثَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ (١٧٧)

﴿وَيَذُرْكُ﴾: عطف على: (يفسدوا)؛ لأنه إذا تركهم ولم يمنعهم، وكان ذلك مؤذياً إلى ما دعوه فساداً، وإلى تركه، وترك آلهته، فكأنه تركهم لذلك، أو هو جواب للاستفهام بالواو، كما يجاب بالفاء؛ نحو قول الحطيئة [من الوافر]:

أَلَمْ أَكُ جَارِكُمْ وَيَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الْمَوَدَّةُ وَالْإِحَاءُ<sup>(١)</sup>  
والنصب بإضمار «أن» تقديره: أيكون منك ترك موسى، ويكون تركه إياك وآلهتك.

وقرىء: «ويذرك وآلهتك» بالرفع عطفاً على أنذر موسى، بمعنى: أنذره وأيذرك، يعني: تطلق له ذلك، أو يكون مستأنفاً أو حالاً على معنى: أنذره، وهو يذرك وآلهتك.

وقرأ الحسن: «ويذرك» بالجزم، كأنه قيل: يفسدوا، كما قرىء: ﴿وَأَكُنْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾؛ كأنه قيل: أصدق، وقرأ أنس - رضي الله عنه -: «ونذرك»، بالنون والنصب، أي: يصرفنا عن عبادتك فنذرها.

وقرىء: ويذرك وإلهتك، أي: عبادتك، وروي أنهم قالوا له ذلك؛ لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمائة ألف نفس، فأرادوا بالفساد في الأرض ذلك، وخافوا أن يغلبوا على الملك، وقيل: صنع فرعون لقومه أصناماً وأمرهم أن يعبدوها؛ تقريباً إليه، كما يعبد عبدة الأصنام الأصنام، ويقولون: ليقربونا إلى الله زلفى، ولذلك قال: «أنا ربكم

= والكتائب: الجماعات، والبيت من استتباع المدح بما يشبه الذم، أي إن كانت فلول السيف من ذلك عيباً، فأثبته، وهي ليست عيباً فلا عيب فيهم قط. وهو مبالغة في المدح.

ينظر ديوانه ص ٤٤، والأزهية ص ١٨٠، وإصلاح المنطق ص ٢٤، وخزانة الأدب ٣/٣٢٧، ٣٣١، ٣٣٤، والدرر ٣/١٧٣، وشرح شواهد المغني ص ٣٤٩، والكتاب ٢/٣٢٦، ومعاهد التنصيص ٣/١٠٧، وهمع الهوامع ١/٢٣٢، وبلا نسبة في الصحابي في فقه اللغة ص ٢٦٧، ولسان العرب (قرع)، (فلل)، ومعني اللبيب ص ١١٤.

(١) تقدم شرح هذا الشاهد.

الأعلى»، ﴿سَتَقِيلُ أُنْتَهُمْ﴾ / ١٢٥١ يعني: سنعيد عليهم ما كنا محناهم به من قتل الأبناء، ليعلموا أنا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر، وأنهم مقهورون تحت أيدينا كما كانوا، وأن غلبة موسى لا أثر لها في ملكنا واستيلائنا، ولئلا يتوهم العامة أنه هو المولود الذي أخبر المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده، فيبسطهم ذلك عن طاعتنا، ويدعوهم إلى اتباعه، وأنه منتظر بعد.

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾: قال لهم ذلك - حين قال فرعون: سنقتل أبناءهم فجزعوا منه وتضجروا - يسكنهم، وتسليهم، ويعددهم النصره عليهم، ويذكر لهم ما وعد الله بني إسرائيل من إهلاك القبط، وتوريثهم أرضهم وديارهم.

فإن قلت: لم أخليت هذه الجملة عن الواو، وأدخلت على التي قبلها؟

قلت: هي جملة مبتدأة مستأنفة، وأما: (وقال الملائكة): فمعطوفة على ما سبقها من قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾: يجوز أن تكون اللام للعهد، ويراد أرض مصر خاصة؛ كقوله: ﴿وَأُورِثْنَا الْأَرْضَ﴾ [الزمر: ٧٤] وأن تكون للجنس فيتناول أرض مصر؛ لأنها من جنس الأرض، كما قال ضمرة: إنما المرء بأصغريه، فأراد بالمرء الجنس، وغرضه أن يتناوله تناولاً أولياً، ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾: بشارة بأن الخاتمة المحمودة للمتقين منهم ومن القبط، وأن المشيئة متناولة لهم، وقرأ: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾: بالنصب: أبي وابن مسعود، عطفاً على الأرض.

﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾: يعنون قتل أبنائهم قبل مولد موسى - عليه السلام - إلى أن استنبيء، وإعادته عليهم بعد ذلك، وما كانوا يستعبدون به، ويمتهنون فيه من أنواع الخدم، والمهن، ويمسبون به من العذاب، ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ﴾: تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل، وكشف عنه، وهو إهلاك فرعون، واستخلافهم بعده في أرض مصر، ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾: فيرى الكائن منكم من العمل حسنه، وقيبحه، وشكر النعمة، وكفرانها، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم، وعن عمرو بن عبيد - رحمه الله - أنه دخل على المنصور قبل الخلافة، وعلى مائدته رغيف أو رغيفان، فطلب زيادة لعمرو فلم توجد، فقرأ عمرو هذه الآية، ثم دخل عليه بعد ما استخلف، فذكر له ذلك، وقال: قد بقي فينظر كيف تعملون.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَّصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (١٣٠)

﴿بِالسِّنِينَ﴾: بسني القحط، و«السنة»: من الأسماء الغالبة كالداية، والنجم، ونحو ذلك، وقد اشتقوا منها، فقالوا: أسنت القوم، بمعنى: أفحطوا، وقال ابن عباس - رضي الله عنه -: أما «السنون» فكانت لباديتهم وأهل مواشيمهم، وأما «نقص الثمرات»: فكان في أمصارهم، وعن كعب: يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا تمرة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾: فیتبھوا علی أن ذلك لإصرارهم/ ٢٥١ ب على الكفر<sup>(١)</sup>، وتكذيبهم لآيات الله، ولأن الناس في حال الشدة أضرع خدوداً، وألين أعطافاً، وأرق أفئدة، وقيل: عاش فرعون أربعمئة سنة، ولم ير مكروهاً في ثلثمائة وعشرين سنة، ولو أصابه في تلك المدة، وجع أو جوع أو حمى لما ادعى الربوبية.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣١)

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾: من الخصب والرخاء، ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾: أي: هذه مختصة بنا، ونحن مستحقوها، ولم نزل في النعمة والرفاهية، واللام مثلها في قولك: الجبل للفرس، ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: من ضيقة وجدب، ﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾: يتطيروا بهم، ويتشاءموا، ويقولوا: هذه بشؤمهم، ولولا مكانهم لما أصابتنا، كما قالت الكفرة لرسول الله - ﷺ -: هذه من عندك.

فإن قلت: كيف قيل؟ فإذا جاءتهم الحسنة بإذا وتعريف الحسنة<sup>(٢)</sup>، وإن تصبهم سيئة بيان وتكثير السيئة؟

قلت: لأن جنس الحسنة، وقوعه كالواجب؛ لكثرتة واتساعه، وأما السيئة فلا تقع إلا في الندره، ولا يقع إلا شيء منها؛ ومنه قول بعضهم: قد عدت أيام البلاء، فهل عدت أيام الرخاء؟ ﴿طَّيَّرْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: سبب خيرهم، وشرهم عند الله، وهو حكمه ومشيتته،

(١) قال محمود: «معنى لعلمهم يذكرون: يتنبهون لأن ذلك كان لإصرارهم... إلخ» قال أحمد: دلت اللام على دعواهم استحقاق الحسنة. وأما دعوى اختصاصها بهم حتى لا يشركهم فيها أحد فدل عليه تقدير الخبر الذي هو لنا، وقد علمت طريقة المصنف في إسناده الحصر من تقديم ما حقه أن يؤخر كالمفعول والخبر ونحوه.

(٢) عاد كلامه. قال: فإن قلت: «كيف قيل فإذا جاءتهم الحسنة... إلخ» قال أحمد: وقد ورد: ﴿إِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلم يراع فرق ما بينهما، ولعل بين سياق الآيتين اختلافاً أوجب في كل واحد منهما ما ذكر فيه.

والله هو الذي يشاء ما يصيهم من الحسنة والسيئة، وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨]، ويجوز أن يكون معناه: ألا إنما سبب شؤمهم عند الله، وهو عملهم المكتوب عنده الذي يجري عليهم ما يسوءهم لأجله، ويعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم الله في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا...﴾ [غافر: ٤٦]، الآية، ولا طائر أشأم من هذا.

وقرأ الحسن: «إنما طيركم عند الله»، وهو اسم لجمع طائر غير تكسير، ونظيره، التجر، والركب، وعند أبي الحسن: هو تكسير.

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّضَعَلَةٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

﴿وَمَهْمَا﴾: هي ما المضمنة معنى الجزاء<sup>(١)</sup>، ضمت إليها ما المزيدة المؤكدة للجزاء

(١) قال محمود: «مهما هي «ما» المضمنة معنى الجزاء ضمت إليها «ما» المزيدة المؤكدة للجزاء... إلخ» قال أحمد: والذي عده أولاً من كلام سيبويه، وسنذكره: قال سيبويه: وسألت الخليل عن مهما فقال: هي «ما» أدخلت معها «ما»، بلغوا بمنزلتها مع متى، إذا قلت: متى ما تأتي حدثتك. انتهى كلام سيبويه. وكان هذا القائل - والله أعلم - اغتر بتشبيه الخليل لها بمتى ما، فظنها في معناها. وإنما شبه الخليل بالثانية من مهما في لحاقها زائدة مؤكدة للأولى بما اللاحقة لمتى. عاد كلام سيبويه قال: ولكنهم استقبحوا تكرير لفظ واحد، فأبدلوا الهاء من الألف التي في الأولى انتهى نقله عن الخليل. قال سيبويه: ويجوز أن تكون كإذ ضمت إليها ما انتهى كلامه. قال أحمد: ومعنى تشبيه سيبويه لها بإذما أن الجزاء بجملة الكلمة لا بالجزء الأول منها خاصة وإلا لكان عين مذهب الخليل. والذي يحقق ذلك أن سيبويه قال أول هذا الباب: وأما «حيث» و«إذ» فلا يجازى بهما حتى يضم إليهما ما، فتصير إذ مع ما بمنزلة إنما وكأنما، وليست ما فيهما بلغو، ولكن كل واحدة منهما مع ما بمنزلة حرف واحد، فانظر قوله: وليست ما فيهما بلغو، يعني ليست زائدة مؤكدة، ولكن لها حظ في اقتضاء الجزاء حتى لا يفيد إلا اجتماع جزئي الكلمة ويبقى وراء ذلك نظر في أن سيبويه هل أراد أن «ما» ضمت إلى «مه» التي هي الصوت، أو إلى «ما» الجزائية. والظاهر من مراده أن انضمامها إلى الصوت، لأنها لو كانت منضمة إلى «ما» الجزائية، لكانت مستقلة بإفادة الجزاء قبل انضمام «ما» إليها، ولا تكون مثل إذا وحيث، ولا يكون تنظير سيبويه مطابقاً. وهذا الذي فهمه ابن طاهر وتبعه فيه تلميذه ابن خروف. وعزا ابن خروف هذا المذهب إلى سيبويه، ورد قول ابن بابشاذ أن هذا المذهب للخليل خاصة، وقد تواطأ ابن بابشاذ والزمخشري على نفي هذا المذهب عن سيبويه، وإعزائه إلى غيره. وأظهر ما قوى به مذهب الخليل - والله أعلم - أن هذه الكلمة استعملت في الاستفهام حسب استعمالها في الجزاء وأنشدوا [من الرجز]:

مهما لي الليلة مهما لي أودى بنعلي وسرسياليه

أراد: مالي الليلة، ولا إشكال ههنا أنها «ما» الاستفهامية كررت تأكيداً، كما يقولون: لا لا، ونعم نعم، ثم استكره تكرار اللفظ بعينه، فقلبت ألف الأولى هاء. وقد جاء قلب الاستفهامية وإن لم يكن =

في قولك: متى ما تخرج أخرج، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿فَأَمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾: إلا أن الألف قلبت هاء استثقلاً لتكرير المتجانسين، وهو المذهب السديد البصري، ومن الناس من زعم أن «مه»: هي الصوت الذي يصوت به الكاف، و«ما» للجزاء، كأنه قيل: كف ما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين.

فإن قلت: ما محل مهما؟

قلت: الرفع بمعنى: أيما شيء تأتينا به، أو النصب، بمعنى: أيما شيء تحضرنا<sup>(١)</sup> تأتينا به، ومن آية: تبيين لمهما، والضميران في (به) و(بها): راجعان إلى مهما، إلا أن أحدهما ذكر على اللفظ، والثاني آت على المعنى؛ لأنه في معنى الآية؛ ونحوه قول زهير [من الطويل]:

﴿وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ أَمْرِي مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُغْلَمُ﴾<sup>(٢)</sup>

وهذه الكلمة في عداد الكلمات التي يحرفها من لا يد له في علم العربية، فيضعها غير موضعها، ويحسب مهما بمعنى متى ما، ويقول مهما جتتني / ٢٥٢ أعطيتك، وهذا من وضعه، وليس من كلام واضح العربية في شيء، ثم يذهب فيفسر: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾: بمعنى الوقت، فيلحد في آيات الله، وهو لا يشعر، وهذا وأمثاله مما يوجب الجثو

= تكرار، فهو معه أجدر. وإذا وضع أن «مهما» الواقعة في الاستفهام أصلها «ما» مكررة، كان ذلك أوضح دليل على أن الواقعة في الجزء كذلك، والاستشهاد بالنظائر أميز حجج العربية، والله أعلم. وأما رد الزمخشري على من زعم أنها بمعنى «متى ما» فرد صحيح، والآية أصدق شاهد على رده، فإن الضمير المجرور فيها عائد إلى مهما حتماً، وقد اتصل به مفسراً له قوله (من آية) دل على أن الضمير واقع على الآية، فلزم وقوع «مهما» عليها ضرورة إيجاد المرجع في المضمر ومظهره، فذهاب هذا القائل إلى إيقاع «مهما» على الوقت زاعماً أنها بمعنى «متى ما» ذهاب عن الصواب. وعذر الزمخشري واضح في الرد على تسجيله وإغلاظ النكير عليه، وتفويق سهام التشنيع إليه. فتأمل هذا الفصل، ففيه إنارة للسيل، وشفاء للغيل، والله الموفق.

(١) قوله: «أيما شيء تحضرنا» لعله تحضر فقط.  
(٢) لزهير بن أبي سلمى من معلقته. ومهما: اسم شرط بمعنى أي شيء على المختار، فلذلك يعود عليه الضمير، ثم إن كان المراد به مؤثناً كما هنا، فتارة يعود عليه الضمير مذكراً باعتبار اللفظ كما في قوله: «يكن» وتارة مؤثناً باعتبار المعنى كما في قوله: «وإن خالها» ولم يجعل هذا عائداً على الخليفة، لأن «مهما» هو المحدث عنه، و«من خليفة» بيان له. ولما بين بالمؤنث حسن تأنيث ضميره بعد بيانه. يقول: أي طبيعة وسجية تكون في الإنسان تعلم للناس بأماراتها، وإن ظنها خافية عليهم.

ينظر: ديوانه ص (٣٢)، الجنى الداني ص (٦١٢)، الدرر (٤/١٨٤)، (٥/٨٢)، شرح وشواهد المغني ص (٣٨٦)، (٧٣٨)، (٧٤٣)، وشرح قطر الندى ص (٣٧)، ومغني اللبيب ص (٣٣٠)، شرح الأشموني (٣/٥٧٩)، همع الهوامع (٢/٣٥، ٥٨).

فإن قلت: كيف سموها آية، ثم قالوا لتسحرنا بها؟

قلت: ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية؛ وإنما سموها اعتباراً لتسمية موسى، وقصدوا بذلك الاستهزاء، والتلهي، «الطوفان»: ما طاف بهم، وغلبهم من مطر أو سيل، قيل: طغى الماء فوق حروثهم، وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام في ظلمة شديدة، لا يرون شمساً ولا قمراً، ولا يقدر أحدهم أن يخرج من داره، وقيل: أرسل الله عليهم السماء حتى كادوا يهلكون، وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة، فامتلت بيوت القبط ماء حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم، فمن جلس غرق، ولم تدخل بيوت بني إسرائيل قطرة، وفاض الماء على وجه أرضهم، وركد فمنعهم من الحرث والبناء والتصرف، ودام عليهم سبعة أيام، وعن أبي قلابة: «الطوفان»: الجدري، وأهو أول عذاب وقع فيهم، فبقي في الأرض، وقيل: هو «الموتان»<sup>(١)</sup> وقيل: الطاعون، فقالوا لموسى: ادع لنا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك، فدعا فرفع عنهم، فما آمنوا، فنبت لهم تلك السنة من الكلاً والزرع ما لم يعهد بمثله، فأقاموا شهراً، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت عامة زروعهم وثمارهم، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب، وسقوف البيوت، والثياب، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء، ففزعوا إلى موسى ووعده التوبة، فكشف عنهم بعد سبعة أيام: خرج موسى - عليه السلام - إلى الفضاء، فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب، فرجع الجراد إلى النواحي التي جاء منها، فقالوا: ما نحن بتاركي ديننا فأقاموا شهراً، فسلط الله عليهم القمل، وهو الحنان في قول أبي عبيدة كبار القردان، وقيل: الدبا، وهو أولاد الجراد، قيل: نبات أجنحتها، وقيل: البراغيث، وعن سعيد بن جبير: السوس، فأكل ما أبقاه الجراد، ولحس الأرض، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه، وكان يأكل أحدهم طعاماً فيمتلىء قملاً، وكان يخرج أحدهم عشرة أجربة إلى الرحي فلا يرد منها إلا يسيراً، وعن سعيد بن جبير، أنه كان إلى جنبهم كئيب أعفر، فضربه موسى بعصاه، فصار قملاً، فأخذت في أبقارهم، وأشعارهم، وأشفار عيونهم وحواجبهم، ولزم جلودهم كأنه الجدري، فصاحوا، وصرخوا، وفزعوا إلى موسى، فرفع عنهم، فقالوا: قد تحققنا الآن أنك ساحر، وعزة فرعون لا نصدقك أبداً، فأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع، فدخلت بيوتهم، وامتلت منها آنتهم وأطعمتهم، ولا يكشف أحد شيئاً من ثوب، ولا طعام، ولا شراب إلا وجد فيه الضفادع، وكان الرجل إذا أراد أن يتكلم، وثبت / ٢٥٢ ب الضفدع إلى فيه، وكانت

(١) قوله: «وقيل هو الموتان» في الصحاح: الموتان - بالضم: موت يقع في الماشية. وفيه أيضاً: الطاعون الموت الوحي من الوباء. وفيه: الوحي، على فعيل: السريع.

تمتلىء منها مضاجعهم فلا يقدرّون على الرقاد، وكانت تقذف بأنفسها في القدر وهي تغلي، وفي التناير وهي تفور، فشكوا إلى موسى، وقالوا: ارحمنا هذه المرة، فما بقي إلا أن تنوب التوبة النصوح ولا نعود، فأخذ عليهم العهود، ودعا فكشف الله عنهم، ثم نقضوا العهد، فأرسل الله عليهم الدم، فصارت مياههم دماً، فشكوا إلى فرعون، فقال: إنه سحر كم فكان يجمع بين القبطي والإسرائيلي على إناء واحد، فيكون ما يلي الإسرائيلي ماء، وما يلي القبطي دماً، ويستقيان من ماء واحد، فيخرج للقبطي الدم، وللإسرائيلي الماء، حتى إن المرأة القبطية تقول لجارتها الإسرائيلية: اجعلي الماء في فيك ثم مجيه في في، فيصير الماء في فيها دماً، وعطش فرعون حتى أشفى على الهلاك، فكان يمص الأشجار الرطبة، فإذا مضغها صار ماؤها الطيب ملحاً أجاجاً، وعن سعيد بن المسيب: سال عليهم النيل دماً، وقيل: سلط الله عليهم الرعاف، وروي أن موسى - عليه السلام - مكث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات، وروي أنه لما أراهم اليد، والعصا، ونقص النفوس، والثمرات، قال: يا رب، إن عبدك هذا قد علا في الأرض، فخذ به عقوبة تجعلها له ولقومه نقمة، ولقومي عظة، ولمن بعدي آية، فيحنثذ بعث الله عليهم الطوفان، ثم الجراد، ثم ما بعده من النقم؛ وقرأ الحسن: «والقمل»، بفتح القاف وسكون الميم، يريد «القمل» المعروف، ﴿مَائَتِي مَفَصَّلَتِي﴾: نصب على الحال، ومعنى مفصلات: مبيّنات، ظاهرات، لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وأنها عبرة لهم، ونقمة على كفرهم، أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم، وينظر أستميمون على ما وعدوا من أنفسهم، أم ينكثون؛ إلزاماً للحجة عليهم؟

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٦﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٧﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

﴿بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾: ما مصدرية، والمعنى بعهدك وهو النبوة، والباء إمّا أن تتعلق بقوله: ﴿ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ على وجهين: أحدهما أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة، أو ادع الله لنا متوسلاً إليه بعهدك عندك، وإمّا أن يكون قسماً مجاباً بلنؤمنن، أي: أقسمنا بعهد الله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك، ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ﴾ إلى حد من الزمن هم بالغوه، لا محالة فمعذبون فيه لا ينفعهم، ما تقدم لهم من الإمهال، وكشف العذاب إلى حلوله. ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾:

جواب «لما»، يعني: فلما كشفناه عنهم فاجاؤا النكت، وبادروا لم يؤخروه، ولكن كما كشف عنهم نكتوا، ﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمْ﴾: فأردنا الانتقام منهم، ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ﴾، «واليم»: البحر الذي لا يدرك قعره، وقيل/ ٢٥٣: هو لجة البحر ومعظم مائه، واشتقاقه من التيمم؛ لأن المستنفعين به يقصدونه، ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات، وغفلتهم عنها، وقلة فكرهم فيها.

﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانِ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ (١٣٧)

﴿الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾: هم بنو إسرائيل، كان يستضعفهم فرعون وقومه، والأرض: أرض مصر والشام، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة، وتصرفوا كيف شاءوا في أطرافها، ونواحيها الشرقية والغربية، ﴿بَدَرْنَا فِيهَا﴾ بالخصب وسعة الأرزاق ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ﴾ قوله: ﴿وَرُبُّدُ أَنْ تَمَّنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضِعُوا فِي الْأَرْضِ﴾، إلى قوله: ﴿مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ والحسنى: تأنيت الأحسن صفة للكلمة، ومعنى «تمت على بني إسرائيل»: مضت عليهم، واستمرت من قولك: تمَّ على الأمر إذا مضى عليه، ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾: بسبب صبرهم، وحسبك به حاثاً على الصبر، ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه، ومن قابله بالصبر، وانتظار النصر ضمن الله له الفرج، وعن الحسن: عجبت ممن خف كيف خف، وقد سمع قوله، وتلا الآية، ومعنى «خف»: طاش جزعاً وقلة صبر، ولم يرزن رزانه أولى الصبر، وقرأ عاصم في رواية: «وتمت كلمات ربك الحسنى»: ونظيره: ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨]، ﴿مَا كَانِ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾: ما كانوا يعملون، ويسوون من العمارات وبناء القصور، ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾: من الجنات، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٤١]: أو وما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء، كصرح هامان وغيره.

وقرىء: «يعرشون»، بالكسر والضم، وذكر اليزيدي أن الكسر أفصح، وبلغني أنه قرأ بعض الناس: «يفرسون»، من غرس الأشجار، وما أحسبه إلا تصحيفاً منه.

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكِفُونَ عَلَىٰ آصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مَوْسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (١٣٨) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَغَابُوا عَنَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٩) قَالَ أَغْيَرَ اللَّهُ آبِغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾

وهذا آخر ما اختص الله من نبي فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله، وظلمهم،

ومعاصيهم ثم أتبعه اقتصاص نبأ بني إسرائيل وما أحدثوه - بعد إنقاذهم من ملكة فرعون واستعباده، ومعانيتهم الآيات العظام، ومجاورتهم البحر - من عبادة البقر، وطلب رؤية الله جهرة، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، وليعلم حال الإنسان، وأنه كما وصفه ظلوم، كفار، جهول، كنود، إلا من عصمه الله، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]، وليسلي رسول الله - ﷺ - مما رأى من بني إسرائيل بالمدينة، وروي أنه عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله - تعالى - فرعون وقومه، فصاموه شكراً لله، تعالى، ﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمِهِ﴾: فمروا عليهم، ﴿يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ﴾: يواظبون على عبادتها ويلازمونها، قال ابن جريج: كانت تماثيل بقر: وذلك أول شأن العجل، وقيل: كانوا قوماً من لحم، وقيل: كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى - عليه السلام - بقتلهم، / ٢٥٣ ب وقرىء: «وجوزنا»، بمعنى أجزنا، يقال: أجاز المكان وجوزه وجاوزه بمعنى جازه؛ كقولك: أعلاه وعلاه وعالاه؛ وقرىء: «يعكفون»، بضم الكاف وكسرهما ﴿أَجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا﴾: صنماً نعكف عليه، ﴿كَمَا لَمْ يَلْهُمُ﴾: أصنام يعكفون عليها، و«ما» كافة للكاف؛ ولذلك وقعت الجملة بعدها، وعن علي - رضي الله عنه - أن يهودياً قال له: اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه، فقال: قلت: اجعل لنا إلهاً قبل أن تجف أقدامكم، ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾: تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى، فوصفهم بالجهل المطلق وأكدته؛ لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع، ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ يعني: عبدة تلك التماثيل، ﴿مُنْتَبِهَةٌ مَا هُمْ فِيهِ﴾: مدمر مكسر ما هم فيه، من قولهم: إناء متبر، إذا كان فضاهاً<sup>(١)</sup>، ويقال لكسار الذهب: التبر، قوله: يتبر الله، ويهدم دينهم الذي هم عليه على يدي، ويحطم أصنامهم هذه ويتركها رضاضاً، ﴿وَيَطَّلُ مَا كَانُوا يَمْلُوكُ﴾ أي: ما عملوا شيئاً من عبادتها فيما سلف إلا وهو باطل، مضمحل، لا ينتفعون به، وإن كان في زعمهم تقرباً إلى الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنَّ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْأَةً مِّنْثَوْرًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وفي إيقاع (هؤلاء) اسماً لأن، وتقديم خير المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار، وأنه لا يعدوهم ألبته، وأنه لهم ضربة لازب، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا، ويبغض إليهم ما أحبوا، ﴿أَغْرَىٰ اللَّهُ أَنْفُسَكُمْ إِلَهًا﴾: أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً، وهو فعل بكم ما فعل دون غيره، من الاختصاص بالنعمة التي لم يعطها أحداً غيركم، لتختصوه بالعبادة ولا تشركوا به غيره، ومعنى الهمزة: الإنكار والتعجب من طلبتهم - مع كونهم مغمورين في نعمة الله - عبادة غير الله.

(١) قوله: «فضاضاً» أي فتانا كالرضاض. أفاده الصحاح.

﴿وَإِذْ أٰجٰمٰتُكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُوْنَكُم سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُوْنَ اَبْنَآءَكُم وَيَسْتَحْيُوْنَ  
 نِسَآءَكُمۡ وَفِي ذٰلِكُمْ بَلَاةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ عَظِيْمَةٌ ﴿١٤١﴾﴾

﴿يَسُومُوْنَكُم سُوءَ الْعَذَابِ﴾: ييغونكم شدة العذاب، من سام السلعة إذا طلبها.

فإن قلت: ما محل يسومونكم؟

قلت: هو استئناف لا محل له، ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين أو من آل فرعون، و﴿ذٰلِكَ مِنْ﴾: إشارة إلى الإنجاء أو إلى العذاب، «والبلاء»: النعمة أو المحنة، وقرىء: يقتلون، بالتخفيف.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسٰى ثَلٰثِيْنَ لَيْلَةً وَّاْتَمَمْنٰهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مَّيَقَتُ رَبِّهِۦ اٰزْبَعِيْكَ لَيْلَةً وَقَالَ  
 مُوسٰى لِاٰخِيْهِ هٰذَا رُبُّكَ اَخْلَفْنِيۡ فِي قَوْمِيۡ وَاَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيْلَ الْمُفْسِدِيْنَ ﴿١٤٢﴾﴾

وروي أن موسى - عليه السلام - وعد بني إسرائيل، وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم، أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون، فلما هلك فرعون، سأل موسى ربه الكتاب، فأمره بصوم ثلاثين يوماً، وهو شهر ذي القعدة، فلما أتم الثلاثين، أنكر خلوف فيه فسوك، فقالت الملائكة: كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك.

وقيل: أوحى الله - تعالى - إليه: أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندي / ١٢٥٤ من ريح المسك، فأمره الله - تعالى - أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لذلك.

وقيل: أمره الله أن يصوم ثلاثين يوماً، وأن يعمل فيها بما يقربه من الله، ثم أنزلت عليه التوراة في العشر وكلم فيها، ولقد أجمل ذكر الأربعين في سورة البقرة، وفصلها ههنا، و﴿مَيَقَتُ رَبِّهِۦ﴾: ما وقته له من الوقت وضربه له، و﴿اٰزْبَعِيْكَ لَيْلَةً﴾: نصب على الحال، أي: تمّ بالغاً هذا العدد<sup>(١)</sup>، و﴿وَهَرُونَ﴾: عطف بيان لأخيه.

وقرىء: بالضم على النداء، ﴿اَخْلَفْنِيۡ فِي قَوْمِيۡ﴾: كن خليفتي فيهم، ﴿وَاَصْلِحْ﴾: وكن

(١) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «فعلى هذا لا تكون الحال «أربعين»، بل الحال هذا المحذوف، فينافي قوله». قلت: لا تنافي فيه؛ لأن النحاة لم يزالوا ينسبون الحكم للمعمول الباقي بعد حذف عامله المنوب عنه، وله شواهد منها: زيد في الدار، أو عندك، فيقولون: الجار والظرف خبر، والخبر في الحقيقة إنما هو الحدث المقدر العامل فيهما، وكذا يقولون: جاء زيد بشيابه، فثيابه حال، والحال إنما هو العامل فيه إلى غير ذلك. وقدره الفارسي بـ «معدوداً»، قال: كقولك: تمّ القوم عشرين رجلاً، أي: «معدودين هذا العدد». وهو تقدير حسن. انتهى. الدر المصون.

مصلحاً، أو: وأصلح ما يجب أن يصلح من أمور بني إسرائيل، ومن دعاك منهم إلى الإفساد، فلا تتبعه ولا تطعه.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي لِئَظُنَّرَ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرِيَنَّكَ وَلَكِن أُظَنَّرَ إِلَىٰ الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيَنَّكَ فَلَمَّا حَجَّلَ رَبُّهُ لِلجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٣﴾﴾

﴿لِمِيقَاتِنَا﴾: لوقتنا الذي وقتنا له وحددنا، ومعنى «اللام»: الاختصاص، فكأنه قيل: واختص مجيئه بميقاتنا، كما تقول: آتيته لعشر خلون من الشهر، ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾: من غير واسطة<sup>(١)</sup>، كما يكلم الملك، وتكليمه: أن يخلق الكلام<sup>(٢)</sup> منطوقاً به في بعض الأجرام، كما خلقه مخطوطاً في اللوح، وروي: أن موسى - عليه السلام - كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: كلمة أربعين يوماً، وأربعين ليلة، وكتب له الألواح. وقيل: إنما كلمه في أول الأربعين، ﴿أَرِنِي لِئَظُنَّرَ إِلَيْكَ﴾: ثاني مفعولي «أرني» محذوف<sup>(٣)</sup>، أي: أرني نفسك أنظر إليك.

(١) قال محمود: «معناه كلمة من غير واسطة... إلخ» قال أحمد: وهذا تصريح منه بخلق الكلام، كما هو معتقد المعتزلة، والذي يخص به هذه الآية من وجوه الرد عليه: أنها سقت مساق الامتنان على موسى باصطفاء الله له وتخصيصه إياه بتكليمه، وكذلك قال تعالى بعد آيات منها ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَاتِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١﴾ فلو كان تكليم الله له بمعنى خلق الحروف والأصوات في بعض الأجرام واستماع موسى لذلك، لكان كل أحد يساوي موسى عليه السلام في ذلك، بل كان آحاد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام أثر بهذه المزية وأحق بالخصوصية من موسى عليه السلام؛ لأنهم سمعوا الكلام على الوجه المذكور من أفضل الأجرام وأزكاها خلقاً في رسول الله ﷺ، وكانت مزيتهم أظهر وخصوصيتهم أوفر. ونحن نعلم ضرورة من سياق هذه الآية تمييز موسى عليه الصلاة والسلام بهذه المزية، فلا يحمل لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات الله سبحانه وتعالى بلا واسطة دليل عليه من حروف ولا غيرها، وكما أجزنا من المعقول أن ترى ذات الباري سبحانه وتعالى وإن لم يكن جسماً، فكذلك نجز أن يسمع كلامه وإن لم يكن حرفاً ولا صوتاً. والكلام في هذه العقيدة طويل، والشوط بطين. وهذه النكتة هي الخاصة بهذه الآية، والله الموفق.

(٢) قوله: «وتكليمه أن يخلق الكلام» هذا على مذهب المعتزلة: أن كلامه تعالى ألفاظ يخلقها الله في بعض الأجرام. أما على مذهب أهل السنة، فإن كلامه تعالى صفة قديمة قائمة بذاته، فتكليمه لعبده أن يكشف له عنها، كما تقرر في علم التوحيد.

(٣) عاد كلامه. قال: «وقوله أرني أنظر إليك محذوف المفعول الأول مذكور الثاني، والتقدير أرني نفسك أنظر إليك... إلخ» قال أحمد: ما أشد ما اضطرب كلامه في هذه الآية، لأن غرضه أن يدحض الحق بالضلالة، ويشين بكفه وجه الغزاة، هيئات قد تبين الصبح لذي عينين، فالحق أبلغ لا يمازجه ريب إلا عند ذي رين. أما حظ المعقول من إجازة رؤية الله تعالى فوظيفة علم الكلام، =

فإن قلت: الرؤية عين النظر، فكيف قيل: أرني أنظر إليك؟  
قلت: معنى أرني نفسك، اجعلني متمكناً من رؤيتك بأن تتجلى لي فأنظر إليك وأراك.

فإن قلت: فكيف قال: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾، ولم يقل: «لن تنظر إلي»، لقوله: (أنظر إليك)؟  
قلت: لما قال: (أرني) بمعنى: أجعلني متمكناً من الرؤية التي هي الإدراك، علم أن الطلبة هي الرؤية<sup>(١)</sup>، لا النظر الذي لا إدراك معه، فقيل: «لن تراني»، ولم يقل: «لن تنظر إلي».

فإن قلت: كيف طلب موسى - عليه السلام - ذلك - وهو من أعلم الناس بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز، وبتعالیه عن الرؤية التي هي إدراك ببعض الحواس، وذلك إنما يصح فيما كان في جهة، وما ليس بجسم، ولا عرض، فمحال أن يكون في جهة، ومنع المجبرة إحالته<sup>(٢)</sup> في العقول غير لازم؛ لأنه ليس بأول مكابرتهم وارتكابهم، وكيف يكون

= وأخصر وجه في إجابة ذلك: أن الوجود مصحح الرؤية، بدليل أن جواز الرؤية حكم يستدعي مصححاً. وقد شمل الجواز الجوهر والعرض، ولا جامع بينهما يمكن جعله مصححاً سوى الوجود، وإذا كان الوجود هو المصحح فقد صحت رؤيته تعالى لوجوده. وأما استبعاد أن يرى ما ليس في جهة فأمر وهمي مثله عرض للمعطلة فعميت بصائرهم، حتى أنكروا موجوداً لا في جهة، ومن اتبع الأوهام اغتسق مهامه الضلال وهام، ولو كانت الرؤية تتوقف على جهة المرئي لكانت المعرفة تتوقف على جهة المعروف، ولا خلاف أنه سبحانه يعرف لا في جهة، فكذلك يرى لا في جهة، فالحق أن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه، لعلمه بجواز ذلك على الله تعالى، والقدرية يجبرهم الطمع ويجرؤهم حتى يروموا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على معتقدتهم، وما هم حينئذ إلا ممن آذوا موسى فبراه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً، وأما قوله عليه السلام: ﴿أَتَيْتُكُمْ بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ يَتَاءً﴾ تبرياً من أفاعيلهم وتسفياً لهم وتضليلاً لرأيهم، فلا راحة للقدرية في الاستشهاد به على إنكار موسى عليه السلام لجواز الرؤية، فإن الذي كان الإهلاك بسببه إنما هو عبادة العجل في قول أكثر المفسرين ثم. وإن كان السبب طلبهم للرؤية، فليس لأنها غير جائزة على الله. ولكن لأن الله تعالى أخبر أنها لا تقع في دار الدنيا والخير صدق، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية فلما سألو وقد سمعوا الخير بعدم وقوعها، كان طلبهم خلاف المعلوم تكديماً للخبر، فمن ثم سفههم موسى عليه السلام وتبراً من طلب ما أخبر الله أنه لا يقع ثم، ولو كان سؤالهم الرؤية قبل إخبار الله تعالى بعدم وقوعها، فإنما سفههم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية الخاصة، وتوقيفهم الإيمان عليها حيث قالوا (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) ألا ترى أن قولهم ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَنظُرَ نَا مِنْ الْأَرْضِ يَلْوَعًا﴾ إنما سألوا فيه جائزاً، ومع ذلك قرعوا به لاقتراحهم على الله ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه، فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الزمخشري بعين الهوى وعمايته عن سبيل الهدى، والله الموفق.

(١) قوله: «أن الطلبة هي الرؤية» في الصحاح «الطلبة» بكسر اللام: ما طلبته من شيء.

(٢) قوله: «ومنع المجبرة إحالته» يعني أهل السنة، حيث ذهبوا إلى جواز رؤيته تعالى ومنعوا اشتراط =

طالبه وقد قال - حين أخذت الرجفة الذين قالوا: أرنا الله جهرة - ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ إلى قوله: ﴿تُصَلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ﴾: فتبرأ من فعلهم، ودعاهم سفهاء وضلالاً؟

قلت: ما كان طلب الرؤية إلا لبيكت هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالاً، وتبرأ من فعلهم، وليلقهم الحجر؛ وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكروا عليهم وأعلمهم الخطأ، ونبههم على الحق، فلجوا وتمادوا في لجاجهم وقالوا: لا بد، ولن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك، وهو قوله: ﴿لَنْ تَرَوْنِي﴾: ليتيقنوا/ ٢٥٤ ب وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة؛ فلذلك قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾.

فإن قلت: فهلا قال: أرهم ينظروا إليك<sup>(١)</sup>؟

قلت: لأن الله سبحانه إنما كلم موسى - عليه السلام - وهم يسمعون، فلما سمعوا كلام رب العزة أرادوا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه، كما أسمعته كلامه فسمعوه معه؛ إرادة مبنية على قياس فاسد؛ فلذلك قال موسى: «أرني أنظر إليك»، ولأنه إذا زجر عما طلب، وأنكر عليه في نبوته واختصاصه وزلفته عند الله - تعالى - وقيل له: لن يكون ذلك، كان غيره أولى بالإنكار، ولأن الرسول إمام أمته، فكان ما يخاطب به أو ما يخاطب راجعاً إليهم، وقوله: ﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، وما فيه من معنى المقابلة<sup>(٢)</sup> التي هي محض التشبيه

== كون المرئي في جهة. قال تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ والجائر قد يتنفي في بعض الأوقات ويقع في بعض. والحديث كما سيأتي «سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» ومحل الكلام علم الكلام.

(١) عاد كلامه. قال: فإن قلت: هلا قال أرهم ينظروا إليك... إلخ؟ قال أحمد: وهذا الكلام الآخر من الطراز الأول، وأقرب شاهد على رده أنه لو كان طلب الرؤية لهم حتى إذا سمعوا منع الله تعالى لها أيقنوا أنها ممتنعة لكان طلبها عبثاً غير مفيد لهذا الغرض، لأن هؤلاء لا يخلو أمرهم. إما أن يكونوا مؤمنين بموسى، أو كفاراً به، فإن كانوا مؤمنين به، فإخباره إياهم بأن الله تعالى لا يرى ولا يجوز عليه ذلك، كاف في حصول المقصود من غير حاجة إلى أن يسأل موسى عليه السلام من الله أن يريه ذاته، على علم بأن ذلك محال. وإن كانوا كفاراً بموسى عليه السلام فلا يحصل الغرض من ذلك أيضاً؛ لأن الله تعالى إذا منعه مسؤوله من الرؤية، فإنما يثبت ذلك لهم بقول موسى عن الله تعالى أنه منعه ذلك، وهم كفار بموسى عليه السلام، فكيف يفيدهم غيره عن الله بامتناع ذلك؟ فهذا أوضح مصداق؛ لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه اعتقاداً لجوازه على الله تعالى، فأخبره الله أن ذلك لا يقع في الدنيا إن كان جائزاً.

(٢) عاد كلامه: قال: «وقوله أنظر إليك وما فيه من معنى المقابلة... إلخ» قال أحمد: ودعواه أن النظر يستلزم الجسمية قد سلف ردها. وأما تنزيهه موسى عليه السلام بنسبة اعتقاد استحالة الرؤية إليه فهو غني عنه. وأما إقناعه في تفصيله برجحانه عليه السلام في العلم بالله وبصفاته على وأصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظام وأبي الهذيل والشيخين، فهو نقص عن منصبه العلي، وأقل العوام المقلدين لأهل السنة، راجع عند الله على أصحاب البدع والأهواء، وإن ملؤا الأرض نفاقاً، وشحنوا =

والتجسيم، دليل على أنه ترجمة عن مقترحهم وحكاية لقولهم، وجل صاحب الجمل أن يجعل الله منظوراً إليه، مقابلًا بحاسة النظر، فكيف بمن هو أعرق في معرفة الله - تعالى - من واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، والنظام، وأبي الهذيل والشيخين، وجميع المتكلمين؟

فإن قلت: ما معنى: (لن)؟

قلت: تأكيد النفي الذي تعطيه: «لا»<sup>(١)</sup>، وذلك أن: «لا» تنفي المستقبل، تقول: لا أفعل غداً، فإذا أكدت نفيها، قلت: لن أفعل غداً، والمعنى: أن فعله ينافي حالي؛ كقوله: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ أَحْتَمَمُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]، فقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾: نفي للرؤية فيما يستقبل، ولن تراني تأكيد وبيان؛ لأن المنفي مناف لصفاته.

فإن قلت: كيف اتصل الاستدراك في قوله: ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ﴾ بما قبله؟

قلت: اتصل به على معنى أن النظر إلي محال، فلا تطلبه، لكن عليك بنظر آخر: وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك، وبمن طلبت الرؤية لأجلهم، كيف أفعل به، وكيف أجعله دكاً بسبب طلبك الرؤية؟ لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره، كأنه - عز وجل - علة - حقق عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد<sup>(٢)</sup> إليه في قوله: ﴿وَيَخْرُجُ لِيَبْأَلْ هَذَا أَزْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَكَ﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]، ﴿فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ﴾: كما كان مستقراً ثابتاً ذاهباً<sup>(٣)</sup> في جهاته، ﴿فَسَوْفَ تَرِنُّنَا﴾: تعليق لوجود الرؤية بوجود ما لا يكون من استقرار

= مصفاتهم عناداً لأهل السنة وشقاقاً، فكيف بكليم الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

(١) عاد كلامه. قال: «فإن قلت ما معنى لن؟ قلت تأكيد النفي الذي تعطيه لا... إلخ» قال أحمد: «لن» كما قال تشارك «لا» في النفي وتمتاز بمزية تأكيده. وأما استنباط الزمخشري من ذلك منافاة الرؤية لحال الباري عز وجل، ثم إطلاق الحال على الله تعالى مما يستحز عنه. واستشهاده على أن «لن» تشعر باستحالة المنفي بها عقلاً، مردود كثيراً بكثير من الآي، كقوله تعالى ﴿قُلْ لَنْ نُخْرِجُوا مَعِيَ أَبَدًا﴾، فذلك لا يحيل خروجهم عقلاً، و﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ﴾، ﴿لَنْ نَسْتَمُوتَا﴾. فهذه كلها جائزات عقلاً، لولا أن الخير منع من وقوعها، فالرؤية كذلك.

(٢) عاد كلامه. قال: «ثم حقق تعالى عند طلب الرؤية ما مثله عند نسبة الولد... إلخ» قال أحمد: نسبة جواز الرؤية إلى الله تعالى عند الزمخشري كنسبة الولد إليه، وهذا مفرع على المعتقد السالف بطلانه، وليس له في هذا الفصل وظيفة إلا تتبع الشبه لامتناع الرؤية، تلقفها من كل فج. والحق أن ذلك الجبل إنما كان لأن الله عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء. ولا تستقر الدنيا لإظهار شيء من ملكوت السماء. وهذا هو المأثور عن السلف في هذه الآية. ومعناه عند أبي الحسن رحمه الله فعل فعلاً سماه تجلياً، وكان الغضب إما لأنهم طلبوا رؤية جسمانية في جهة، وإما لأنهم كتموا الخير. بأنه لا يرى في الدنيا، وإما لأنهم كفروا بالافتراح أو بالمجموع.

(٣) عاد كلامه: قال: «ومعنى فإن استقر مكانه: فإن ثبت كما كان ذاهباً... إلخ» قال أحمد: وهذا من =

الجبل مكانه حين يدكه دكاً ويسويه بالأرض، وهذا كلام مدمج بعضه في بعض، وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع؛ ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك؟ ثم كيف بني الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية؟ أعني قوله: ﴿فَإِنْ أَسْتَقَرَّ مَكَانَهُمْ فَسَوْفَ تَرْتَبِي﴾، ﴿فَلَمَّا جَلَّ رَبُّهُ لَلْجَبَلِ﴾: فلما ظهر له اقتداره وتصدى له أمره وإرادته، ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي: مذكوكاً مصدر بمعنى مفعول كضرب الأمير، والدك والدق أخوان، كالشك والشق، وقرئ: «دكاء»، / ٢٥٥ أ والدكاء: اسم للرابية الناشزة من الأرض، كالدكة أو أرضاً دكاء مستوية، ومنه قولهم: ناقة دكاء متواضعة السنام، وعن الشعبي: قال لي الربيع بن خثيم: ابسط يدك دكاء، أي: مذهباً مستوية، وقرأ يحيى بن وثاب: دكاً، أي: قطعاً، «دكاً»: جمع: دكاء، ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾: من هول ما رأى، وصعق من باب: فعلته ففعل، يقال: صعقته فصعق، وأصله: من الصاعقة، ويقال لها: «الصاعقة»، من صعقه إذا ضربه على رأسه، ومعناه: خرّ مغشياً عليه غشية كالموت، وروي أن الملائكة مرّت عليه وهو مغشي عليه<sup>(١)</sup>، فجعلوا يلكزونه بأرجلهم، ويقولون: يا ابن النساء الحيض أطمعت في رؤية رب العزة؟ ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾: من صعقته، ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾: أنزهك مما لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها، ﴿تَبَّتْ إِيَّاتِكَ﴾: من طلب الرؤية، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: بأنك لست بمرتي ولا مدرك بشيء من الحواس.

فإن قلت: فإن كان طلب الرؤية للغرض الذي ذكرته، فمّمّ تاب<sup>(٢)</sup>؟

= حيل القدرية في إحالة الرؤية يقولون: قد علقها الله على شرط محال وهو استقرار الجبل حال دكه، والمعلق على المحال محال. وهذه حيلة باطلة، فإن المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار، وذلك ممكن جائز، وتعلق العلم بأنه لا يستقر له، لا يرفع إمكان استقراره، وتعلق العلم لا يغير المعلوم ولا ينقل حكمه من إمكان إلى امتناع ولا العكس. وحينئذ يتوجه دليلاً لأهل السنة فنقول: استقرار الجبل ممكن، وقد علق عليه وقوع الرؤية، والمعلق على الممكن ممكن، والمعتزلة يعتقدون أن خلاف المعلوم لا يجوز أن يكون مقدوراً ونحن نقول مقدوراً، ولكن ما تعلق المشيئة بإيجاده. وقلنا أقعد بالأداب، وأسعد بالإجلال في الخطاب.

(١) عاد كلامه: قال: «ومعنى خر موسى صعقاً: خر مغشياً عليه غشية كالموت وروي أن الملائكة مرّت عليه... إلخ» قال أحمد: وهذه حكاية إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية فيتخذها عوناً وظهراً على المعتقد الفاسد. والوجه التورك بالغلط على ناقلها وتنزيه الملائكة عليهم السلام من إهانة موسى كليم الله بالوكز بالرجل والغمص في الخطاب.

(٢) عاد كلامه: قال: «فإن قلت إن كان طلب الرؤية للغرض الذي ذكرته فمّمّ تاب... إلخ؟» قال أحمد: أما ذلك الجبل، فقد سلف الكلام على سره. وأما تسبيح موسى عليه السلام فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا، والله تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه وعن الخلف في خيره الحق وقوله الصدق، فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم سبح الله وقُدس علمه وخبره عن الخلف. وأما التوبة في حق الأنبياء فلا تستلزم كونها عن ذنب، لأن منصبهم =

قلت: من إجرائه تلك المقالة العظيمة، وإن كان لغرض صحيح على لسانه، من غير إذن فيه من الله - تعالى - فانظر إلى إعظام الله - تعالى - أمر الرؤية في هذه الآية، وكيف أرفج الجبل بطالبها وجعله دكاً، وكيف أصعقهم ولم يخل كلمه من نفيان<sup>(١)</sup> ذلك؛ مبالغة على إعظام الأمر، وكيف سبح ربه ملتجئاً إليه، وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه، وقال: أنا أول المؤمنين، ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة<sup>(٢)</sup>، كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً، ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة؛ فإنه من منصوبات أشياخهم؛ والقول ما قال بعض العدلية<sup>(٣)</sup> فيهم [من الكامل]:

لَجَمَاعَةٌ سَمَّوْا هَوَاهُمْ سُنَّةً      وَجَمَاعَةٌ حُمِرُ لَعَمْرِي مُوَكَّفَةٌ  
قَدْ شَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ وَتَخَوَّفُوا      شَنَّعَ الْوَرَى فْتَسْتَرُوا بِالْبَلْكَفَةِ<sup>(٤)</sup>

وتفسير آخر: وهو أن يريد بقوله: ﴿أَرَيْتَ أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾ عرّفني نفسك تعريفاً واضحاً جلياً، كأنها إراءة في جلائها بآية مثل آيات القيامة التي تضطر الخلق إلى معرفتك، ﴿أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾: أعرفك معرفة اضطرار؛ كأنني أنظر إليك، كما جاء في الحديث: «سَتَرُونَ رَبِّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» (٦١٠) بمعنى: ستعرفونه معرفة جلية هي في الجلاء كإبصاركم

٦١٠ - أخرجه البخاري (٤٠/٢): كتاب مواقيت الصلاة: باب فضل صلاة العصر، حديث (٥٥٤)، =

= الجليل ينبغي أن يكون منزهاً مبرأ من كل ما ينحط به، ولا شك أن التوقف في سؤال الرؤية عن الإذن كان أكمل. وقد ورد: سيئات المقربين حسنات الأبرار.

(١) قوله: «ولم يخل كلمه من نفيان ذلك» قوله: «نفيان» هو ما يتطاير من قطر المطر، وقطر الدلو، ومن الرمل عند الوطء، ومن الصوف عند النفش، ونحو ذلك. كذا في شرح المعلقات للعلامة الزوزني.

(٢) عاد كلامه. قال: «ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة... إلخ» قال أحمد رحمه الله: وقد انتقل الزمخشري في هذا الفصل إلى ما تسمعه من هجاء أهل السنة. ولولا الاستناد بحسان بن ثابت الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ وشاعره والمنافع عنه وروح القدس معه، لقلنا لهؤلاء المتلقين بالعدلية وبالناجين سلاماً، ولكن كما نافع حسان عن رسول الله ﷺ أعداءه، فنحن نافع عن أصحاب سنة رسول الله ﷺ أعداءهم فنقول [من الطويل]:

وجماعة كفروا برؤية ربهم      حقاً ووعد الله ما لن يخلفه  
وتلقبوا عدلية قلنا: أجل      عدلوا بربهم فحسبهمو سفه  
وتلقبوا الساجين كلا إنهم      إن لم يكونوا في لظى فعلى شف

(٣) قوله: «والقول ما قال بعض العدلية» غفر الله للمصنف ما لوث به لسانه وقلبه في ذكر هذه الآيات.

(٤) للزمخشري في أهل السنة، أي هم جماعة سموها هوى أنفسهم سنة، ولكن من عرف أن مستند المعتزلة العقل، ومستند الجماعة النقل عرف الهوى من الهدى. وحمري أي كالحمر. موكفة: أي موضوع عليها الإكاف، مبالغة في التشبيه. قد شبهوه: أي الله عز وجل بخلقه حيث قالوا: إنه يرى =

القمر إذا امتلاً واستوى، ﴿قَالَ لَنْ تَرِنِي﴾ أي: لن تطبق معرفتي على هذه الطريقة، ولن تحتمل قوتك تلك الآية المضطربة، ولكن انظر إلى الجبل، فإني أورد عليه، وأظهر له آية من تلك الآيات، فإن ثبت لتجليها واستقر مكانه ولم يتضعض، فسوف تثبت لها وتطبقها، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾: فلما ظهرت له آية من آيات قدرته وعظمته، ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءً وَخَرَّ مُوسَى صِعْقاً﴾: لعظم ما رأى، ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ﴾: مما اقترحت/ ٢٥٥ب وتجاسرت، ﴿وَأَنَا أَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾: بعظمتك وجلالك، وأن شيئاً لا يقوم لبطشك وبأسك.

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُن مِّنَ

### الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

﴿اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾: اخترتك على أهل زمانك وآثرتك عليهم، ﴿بِرِسَالَتِي﴾ وهي: أسفار التوراة، ﴿وبِكَلِمِي﴾: وبتكليمي إياك، ﴿فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ﴾: ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة، ﴿وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾: على النعمة في ذلك فهي من أجل النعم، وقيل: خزر موسى صعقاً يوم عرفة، وأعطى التوراة يوم النحر.

فإن قلت: كيف قيل: اصطفتك على الناس وكان هارون مصطفى مثله ونبياً؟

قلت: أجل، ولكنه كان تابعاً له وردءاً ووزيراً، والكليم: هو موسى - عليه السلام - والأصيل في حمل الرسالة.

-----  
 وأطرافه في: (٥٧٣، ٤٨٥١، ٧٤٣٤، ٧٤٣٥، ٧٤٣٦)، ومسلم (١٤٣/٣ - ١٤٤ - النووي): كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب: فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما حديث (٢١١ - ٢١٢ / ٢١٢) من طريق جرير بن عبد الله وأخرجه البخاري (٤٣٠/١٣): كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِنُ بِآيَاتِهِ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾، حديث (٧٤٣٧)، ومسلم (٢١/٢ - ٢٢ - النووي): كتاب الإيمان: باب معرفة طريق الرؤية، حديث (٢٩٩ - ٣٠٠ / ١٨٢) من طريق أبي هريرة به.

وأخرجه البخاري (٤٣١/١٣): كتاب التوحيد: باب قول الله تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِنُ بِآيَاتِهِ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾، حديث (٧٤٣٩)، ومسلم (٢٤/٢ - ٢٥ - النووي): كتاب الإيمان: باب معرفة طريق الرؤية، حديث (٣٠٢ - ٣٠٣ / ١٨٣) من طريق أبي سعيد الخدري به.

قال الحافظ: متفق عليه من حديث جرير بن عبد الله الجلي قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر. فقال: أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر - الحديث» وللبخاري من رواية: «إنكم سترون ربكم عياناً»، واتفقا عليه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة بمعناه. انتهى.

-----  
 بالعين، فخافوا تشنيع الناس عليهم فستروا بقولهم: إنه يرى بلا كيف. فالبلكفة منحوتة من ذلك.

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا يَهُودُ وَآمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَكْرُوا سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

ذكروا في عدد الألواح، وفي جوهرها، وطولها أنها كانت عشرة ألواح، وقيل: سبعة، وقيل: لوحين، وأنها كانت من زمرد جاء بها جبريل عليه السلام وقيل: من زبرجدة خضراء وياقوتة حمراء، وقيل: أمر الله موسى بقطعها من صخرة صماء لينها له، فقطعها بيده وشقها بأصابعه، وعن الحسن: كانت من خشب نزلت من السماء فيها التوراة، وأن طولها كان عشرة أذرع، وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾: في محل النصب مفعول كتبنا، و﴿مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا﴾: بدل منه، والمعنى: كتبنا له كل شيء كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام، وقيل: أنزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير، يقرأ الجزأ منه في سنة لم يقرأها إلا أربعة نفر: موسى، ويوشع، وعزير، وعيسى عليهم السلام، وعن مقاتل: كتب في الألواح: «إني أنا الله الرحمن الرحيم، لا تشركوا بي شيئاً، ولا تقطعوا السبيل، ولا تحلفوا باسمي كاذبين؛ فإن من حلف باسمي كاذباً فلا أزيه، ولا تقتلوا، ولا تزنوا، ولا تعقوا الوالدين، فَخَذَهَا، فقلنا له: خذها، عطفاً على كتبنا، ويجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿فَخَذَ مَا آتَيْنَاكَ﴾، والضمير في (خذها): للألواح، أو لكل شيء؛ لأنه في معنى الأشياء، أو الرسالات، أو للتوراة، ومعنى ﴿يَهُودُ﴾: بجد وعزيمة فعل أولي العزم من الرسل، ﴿يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: فيها ما هو حسن وأحسن، كالاقتصاص، والعفو، والانتصار، والصبر، فمرهم أن يحملوا على أنفسهم في الأخذ بما هو أدخل في الحسن وأكثر للثواب؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥]، وقيل: يأخذوا بما هو واجب أو ندى؛ لأنه أحسن من المباح، ويجوز أن يراد: يأخذوا بما أمروا به، دون ما نهوا عنه، على قولك: الصيف أحر من الشتاء، ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾: يريد دار فرعون وقومه وهي مصر، كيف أفقرت منهم، ودمروا لفسقهم، لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل نكالهم، وقيل: منازل عاد، وثمود، والقرون الذين / ٢٥٦ أهلكهم الله، لفسقهم في ممرّكم عليها في أسفاركم، وقيل: دار الفاسقين: نار جهنم.

وقرأ الحسن: «سأوريكم»، وهي لغة فاشية بالحجاز، يقال: أورني كذا، وأوريته، ووجهه أن تكون من أوريت الزند، كأن المعنى: بينه لي وأنره لأستبينه.

وقرىء: «سأورثكم»، وهي قراءة حسنة يصححها قوله: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَمُّونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾: بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم، فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها؛ غفلة وانهماكاً فيما يشغلهم عنها من شهواتهم، وعن الفضيل بن عياض: ذكر لنا عن رسول الله - ﷺ -: «إِذَا عَظَّمْتَ أُمَّتِي الدُّنْيَا نُزِعَ عَنْهَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ، وَإِذَا تَرَكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنُّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ حُرِمَتْ بَرَكَةُ الْوَحْيِ» (٦١١)، وقيل: سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون أن يبطل آية موسى، بأن جمع لها السحرة، فأبى الله إلا علو الحق وانتكاس الباطل، ويجوز: سأصرفهم عنها وعن الطعن فيها والاستهانة بها، وتسميتها سحراً بإهلاكهم، وفيه إنذار للمخاطبين من عاقبة الذين يصرفون عن الآيات؛ لتكبرهم وكفرهم بها؛ لثلا يكونوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم، ﴿يَتَّبِعِ الْحَقُّ﴾: فيه وجهان: أن يكون حالاً بمعنى يتكبرون غير محقين؛ لأن التكبر بالحق لله وحده، وأن يكون صلة لفعل التكبر، أي: يتكبرون بما ليس بحق وما هم عليه من دينهم، ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً﴾: من الآيات المنزلة عليهم، ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾: وقرأ مالك بن دينار: «وإن يروا» بضم الياء، وقرىء: «سبيل الرشاد»، و«الرشد»، و«الرشاد»؛ كقولهم: السقم، والسقم، والسقام، وما أسفه من ركب المفازة، فإن رأى طريقاً مستقيماً أعرض عنه وتركه، وإن رأى معسفاً مردباً أخذ فيه وسلكه، ففاعل نحو ذلك في دينه أسفه، ﴿ذَلِكَ﴾: في محل الرفع أو النصب على معنى: ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو صرفهم الله ذلك الصرف بسببه، ﴿وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ﴾: يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به، أي: ولقائهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها، ومن إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى: ولقاء ما وعد الله في الآخرة.

﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَدْوٍ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَّهُمْ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا

٦١١ - قال الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٤٧٣/١): لم أجده عن الفضيل بن عياض. وعزاه إلى الحكيم الترمذي في «نوادير الأصول» قال الحافظ ابن حجر: وفي إسناده البخاري بن عبيد وهو ضعيف.

قال الحافظ:

لم أجده من هذا الوجه، وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادره من حديث أبي هريرة مثله، وزاد: «وإذا تسابت أمتي سقطت من أعين الناس»، ذكره في الخامس والسبعين بعد المائة. وفي إسناده البخاري بن عبيد. وهو ضعيف. انتهى.

يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ  
ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴿

﴿ مِنْ بَدْوٍ ﴾ : من بعد فراقه إياهم إلى الطور .

فإن قلت : لم قيل : واتخذ قوم موسى عجلاً ، والمتخذ هو السامري ؟

قلت : فيه وجهان :

أحدهما : أن ينسب الفعل إليهم ؛ لأن رجلاً منهم باشره ووجد فيما بين ظهرانيهم ،  
كما يقال : بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا ، والقائل والفاعل واحد ؛ ولأنهم كانوا مرادين  
لاتخاذهم راضين به ، فكانهم أجمعوا عليه .

والثاني : أن يراد واتخذوه إلهاً وعبوده ، وقرئ : ( من حليهم ) بضم الحاء والتشديد ،  
جمع حلي / ٢٥٦ ب ، كحدي وثدي ، و« من حليهم » - بالكسر - للإتباع كدلي ؛ و« من  
حليهم » ، على التوحيد ، والحلي : اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة .

فإن قلت : لم قال : من حليهم ، ولم يكن الحلي لهم ، إنما كانت عواري في أيديهم ؟

قلت : الإضافة تكون بأدنى ملابسة ؛ وكونها عواري في أيديهم كفى به ملابسة على  
أنهم قد ملكوها بعد المهلكين ، كما ملكوا غيرها من أملاكهم ؛ ألا ترى إلى قوله - عز  
وعلا - : ﴿ فَأَعْرَجْتَهُم مِّنْ حَنَّتِ وَيُؤْتُونَ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْثَقْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾  
[الشعراء : ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩] ، ﴿ جَسَدًا ﴾ : بدناً ذا لحم ودم كسائر الأجساد ، و« الخوار » : صوت  
البقر ، قال الحسن : إن السامري قبض قبضة من تراب من أثر فرس جبريل - عليه السلام -  
يوم قطع البحر ، فقفذه في العجل ، فكان عجلاً له خوار ، وقرأ علي - رضي الله عنه - :  
« جوار » ، بالجيم والهمزة ، من جار إذا صاح ، وانتصاب جسداً على البدل من : ( عجلاً ) ،  
﴿ أَلَّا يَرَوْا ﴾ : حين اتخذوه إلهاً أنه لا يقدر على كلام ولا على هداية سبيل ، حتى لا  
يختاروه على من « لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفذ كلماته » ، وهو الذي  
هدى الخلق إلى سبيل الحق ومناهجه بما ركز في العقول من الأدلة ، وبما أنزل في كتبه ،  
ثم ابتداء فقال : ﴿ اتَّخَذُوهُ ﴾ ، أي : أقدموا على ما أقدموا عليه من الأمر المنكر ، ﴿ وَكَانُوا  
ظَالِمِينَ ﴾ : واضعين كل شيء في غير موضعه ، فلم يكن اتخاذ العجل بدعا منهم ، ولا  
أول منكريهم ، ﴿ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ : ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل ؛  
لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعض يده غمماً ، فتصير يده مسقوطاً فيها ؛ لأن فاه  
قد وقع فيها ، و( سقط ) : مسند إلى : ( في أيديهم ) ، وهو من باب الكناية ، وقرأ أبو

السميفع: سقط في أيديهم، على تسمية الفاعل، أي: وقع العض فيها، وقال الزجاج: معناه سقط الندم في أيديهم، أي: في قلوبهم وأنفسهم، كما يقال: حصل في يده مكروه، وإن كان محالاً أن يكون في اليد؛ تشبيهاً لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾: وتبينوا ضلالهم تبيناً كأنهم أبصروه بعيونهم.

وقرىء: «لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا»، بالتاء، وربنا، بالنصب على النداء، وهذا كلام التائبين؛ كما قال آدم وحواء - عليهما السلام -: «وإن لم تغفر لنا وترحمنا».

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتُ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٦﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

الأسف: الشديد الغضب، ﴿فَلَمَّا اسْفُوتْنَا أَنْقَمْنَا بِنَهْمٍ﴾، وقيل: هو الحزين، ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾: قمتم مقامي وكنتم خلفائي من بعدي، وهذا الخطاب: إما أن يكون لعبدة العجل من السامري وأشياعه، أو لوجوه بني إسرائيل، وهم هارون - عليه السلام - والمؤمنون منه؛ ويدل عليه قوله: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: ١٤٢]، والمعنى: بثما خلفتموني؛ حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله، أو حيث لم تكفوا من عبد غير الله.

فإن قلت: أين ما تقتضيه بئس من الفاعل والمخصوص بالذم؟

قلت: الفاعل مضمرة يفسره ما خلفتموني، والمخصوص / ٢٥٧ بالذم محذوف تقديره: بئس خلافة خلفتمونيها من بعد خلافتكم.

فإن قلت: أي معنى لقوله: ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ بعد قوله: ﴿خَلَفْتُمُونِي﴾؟

قلت: معناه من بعد ما رأيتم مني، من توحيد الله، ونفي الشركاء عنه، وإخلاص العبادة له، أو من بعد ما كنت أحمل بني إسرائيل على التوحيد، وأكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر، حين قالوا: ﴿أَجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمُ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه؛ ونحوه: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. أي: من بعد أولئك الموصوفين بالصفات الحميدة، يقال: عجل عن الأمر إذا تركه غير تام، ونقيضه تم عليه وأعجله عنه غيره، ويضمن معنى سبق فيعدى تعديته، فيقال: عجلت الأمر، والمعنى: أعجلتكم عن أمر ربكم، وهو انتظار موسى حافظين لعهدده وما وصاكم به، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد

بلغ آخره ولم أرجع إليكم، فحدثتم أنفسكم بموتي، فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم، وروي أن السامري قال لهم - حين أخرج لهم العجل وقال هذا إلهكم وإله موسى -: إن موسى لن يرجع، وإنه قد مات، وروي أنهم عدّوا عشرين يوماً بلياليها فجعلوها أربعين، ثم أحدثوا ما أحدثوا، ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابِحَ﴾: وطرحتها لما لحقه من فرط الدهش وشدة الضجر عند استماعه حديث العجل؛ غضباً لله وحمية لدينه، وكان في نفسه حديداً شديد الغضب، وكان هارون ألين منه جانباً، ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل من موسى، وروي أن التوراة كانت سبعة أسباع، فلما ألقى الألواح، تكسرت، فرغ منها ستة أسباعها وبقي منها سبع واحد، وكان فيما رفع تفصيل كل شيء وفيما بقي الهدى والرحمة، ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ أي: بشعر رأسه، ﴿يَجْرُهُ إِلَيْهِ﴾: بذؤابته، وذلك لشدة ما ورد عليه من الأمر الذي استفزه وذهب بفطنته، وظناً بأخيه أنه فرط في الكف، ﴿ابْنَ أُمِّ﴾ قرىء بالفتح؛ تشبيهاً بخمسة عشر، وبالكسر على طرح ياء الإضافة، «وابن أمي» بالياء، «وابن إم»، بكسر الهمزة والميم، وقيل: كان أخاه لأبيه وأمه، فإن صح، فإنما أضافه إلى الأم؛ إشارة إلى أنهما من بطن واحد، وذلك أدعى إلى العطف والرقّة، وأعظم للحق الواجب؛ ولأنها كانت مؤمنة فاعتدّ بنسبها، ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها، ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي﴾ يعني: أنه لم يأل جهداً في كفهم بالوعظ والإنذار، وبما بلغته طاقته من بذل القوة في مضادتهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه، ﴿فَلَا تَسْمِتُ بِكَ الْأَعْدَاءَ﴾: فلا تفعل بي ما هو أمّنتهم من الاستهانة بي والإساءة إليّ، وقرىء: «فلا يشمت بي الأعداء»، على نهى الأعداء عن الشماتة، والمراد ألا يحل به ما يشمتون به/ ٢٥٧ ب لأجله، ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾: ولا تجعلني في موجدتك عليّ وعقوبتك لي قريناً لهم وصاحباً، أو: ولا تعتقد أنني واحد من الظالمين مع براءتي منهم ومن ظلمهم، لما اعتذر إليه أخوه وذكر له شماتة الأعداء، ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي﴾: ليرضي أخاه، ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه فلا تتم لهم شماتتهم. واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه، ولأخيه أن عسى فرط في حسن الخلافة، وطلب ألا يتفرقا عن رحمته، ولا تزال منتظمة لهما في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعَجَلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي

الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ﴾ الغضب: ما أمروا به من قتل أنفسهم، والذلة: خروجهم من ديارهم؛ لأنّ ذل الغربة مثل مضروب.

وقيل: هو ما نال أبناءهم، وهم بنو قريظة والنضير، من غضب الله - تعالى - بالقتل

والجلاء، ومن الذلة بضرب الجزية، ﴿الْمُفْتَرِينَ﴾: المتكذبين على الله، ولا فرية أعظم من قول السامري: هذا إلهكم وإله موسى، ويجوز أن يتعلق في الحياة الدنيا بالذلة وحدها، ويراد: سينالهم غضب في الآخرة، وذلة في الحياة الدنيا، ﴿وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبِ رَبِّهِمْ﴾.

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾: من الكفر والمعاصي كلها، ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾: ثم رجعوا، ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾: إلى الله واعتذروا إليه، ﴿وَآمَنُوا﴾: وأخلصوا الإيمان، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾: من بعد تلك العظائم، ﴿لَعَفُورٌ﴾: لستور عليهم محاء لما كان منهم، ﴿رَحِيمٌ﴾: منعم عليهم بالجنة، وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل ومن عداهم، عظم جنائتهم<sup>(١)</sup> أولاً ثم أوقفها تعظيم رحمته؛ ليعلم أن الذنوب وإن جلت وعظمت، فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل، ولكن لا بد من حفظ الشريطة، وهي وجوب التوبة<sup>(٢)</sup> والإنابة، وما وراءه طمع فارغ، وأشعبية باردة<sup>(٣)</sup>، لا يلتفت إليها حازم.

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي سُخْرِيهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾<sup>(٤)</sup>: هذا مثل؛ كأن الغضب كان يغيره<sup>(٥)</sup> على ما

(١) قال محمود: «عظم جنابة متخذي العجل أولاً، ثم أوقفها بحكم عام... إلخ» قال أحمد: يعرض بوجوب وعيد الفساق وأن مغفرة الذنوب بدون التوبة منه من المحال الممتنع، وقد تقدم عد ذلك من الأهواء والبدع، بل الحق أن المغفرة لما عدا الشرك موكولة إلى المشيئة، غير ممتنعة عقلاً، ثم واقعة نقلاً، والله الموفق.

(٢) قوله: «من حفظ الشريطة وهي وجوب التوبة» مذهب المعتزلة أن الكبيرة لا تغفر إلا بالتوبة. ومذهب أهل السنة أنها قد تغفر بمجرد الفضل.

(٣) قوله: «وأشعبية باردة» خصلة منسوبة إلى أشعب، وهو رجل كان طماعاً. ويضرب به المثل في الطمع، كما في الصحاح.

(٤) قوله - تعالى - ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ﴾... الآية. بين المفسر أن في الفعل «سكت» مجاز عن الانقطاع، وتمثيل له بالسكوت، والبلاغيون في هذا المضمار قد حققوا معنى هذا المجاز من جميع جهاته، ونقف بسبيل الآية في النقاط التالية:

١ - الاستعارة: طلب إعارة الشيء أي أخذه ممن يقوم عليه، وفعله استعار واصطلاحاً: «استعمال الكلمة أو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي» وبهذا التحديد نارت الاستعارة الكناية وبهذا المفهوم أخذ البلاغيون يقسمون الاستعارة من =

فعل، ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجز برأس أخيك إليك، فترك النطق

= جهة اللفظ المحذوف والمذكور إلى تصريحية ومكنية، وينظرون في اللفظ المستعار وقسموها إلى أصلية وتبعية، وقد جرى المفسر العلامة على هذا المنحى، ويبينون أسرار الاستعارة وحسنها وحيوتها.

٢ - وقفوا عند الاستعارات المكنية كقوله - تعالى - ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧] وبينوا أن النقص يكون للجهل، ولأن عهد الله شبيه به صحت الاستعارة إلا أنه حذف المشبه به بعد استعارته للمشبه في النفس ثم رمز إليه «أي الجهل» بشيء من لوازمه وهو ينقضون، وأسند هذا اللازم للمشبه. وقد بين المفسر العلامة سر هذا المجاز وهذا الاصطلاح «الاستعارة» لم يكن معروفاً عند العلماء أيام الزمخشري، ولكنه عرف فيما بعد، إلا أن التقسيمات عرفت عندهم بأسماء لم تحدد، فلما كان العهد بعد الزمخشري ثم الاصطلاح على أسماء هذه التقسيمات إلى يومنا هذا، وقد عرف اصطلاح الاستعارة بالكناية في كتاب «نهاية الإيجاز» وهو مما كتب بعد الكشف بما يقرب من قرن وقد بين الزمخشري قرينة المكنية كما بين أنها قد تكون استعارة تصريحية باعتبار آخر ومعلوم أن قرينة المكنية استعارة تخيلية، وقد بين السيد الشريف في حاشيته على المطول مراد الزمخشري وناقش ذلك.

وحسن الاستعارة المكنية يكمن في جعل الشيء مصوراً بما يعجب، فيصور الحياة في الجماد، ويجسد المعاني، ويشخصها كأظفار المنية، ويد الشمال، وأنف العشيعة، وهذا التصوير له سره في النفوس وأثره في العقول، والذي يثبت هذا الأثر أن هذه القرائن على معانيها الحقيقية فحينما نسمع: شجاع يفترس أقرانه، تصورنا أن هذا الشجاع في صورة الأسد، وشكله، وضخامته، وقوته، فهذا هو السر في جمال الاستعارة بالكناية، ولهذا إذا صرفنا الافتراض إلى المعنى المجازي أي شدة القتل مثلاً فقد ضعف المعنى في النفس وسير المفسر العلامة على هذا الاتجاه والفهم في آيات القرآن، ولهذا نراه يكرر هذا في قوله - تعالى - ﴿هُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقال فيها الزمخشري «وهي من أحسن الاستعارات وأشدها على البلاغة».

٣ - ويأتي إلى الاستعارة التبعية في قوله - تعالى - ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى الْغَضِبُ﴾ فيبين أن الغضب كإنسان يدفعه إلى ما فعل ويقول له كما شرح المفسر. والملحوظ أن المفسر لم يوضح الأقسام مفصلة لأن ذلك قد كان في أول الأمر، وجاءت التفريعات البلاغية عند السكاكي ومن والاه.

٤ - وقد بين الاستعارة في المصادر، وأوضحها عند قوله - تعالى - ﴿وَتَنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَنَاسِكًا وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْهَا حَظًّا مَلَكًا مَّوَدَّىٰ﴾ [الزخرف: ٤٥] والمقصود: انظر في آديانهم حتى ترى أن الله هو المعبود بحق ولا إله إلا هو، فالسؤال واقع مجازاً، وهذا ما وقع للشعراء من مساءلة الديار والأطلال والدارس.

٥ - وقد عرف المفسر الاستعارة في الحرف عند قوله - تعالى -: ﴿فَاللِّقَّةُ مَالٌ مَّعْرُورٌ لِيَكُونَ لَهُمُ عَدُوٌّ وَحَزَنٌ﴾ [القصص: ٨].

وبين المفسر أن اللام في «ليكون» للتعليل، ولكن ما بعدها لم يكن حقيقة العلة، بل ما صار إليه الأمر، ولهذا عرفت فيما بعد «بلام العاقبة والصيرورة»، ولهذا وقف عندها الزمخشري وبين أن اللام خرجت عن حقيقتها خروج الأسد إلى معنى الرجل الشجاع.

وقد شرح المفسر العلامة هذا الخروج شرحاً دقيقاً، وطبق هذا على قوله - سبحانه - ﴿وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ الْأَثَلِ﴾ [طه: ٨٤].

بذلك، وقطع الإغراء، ولم يستحسن هذه الكلمة، ولم يستفصحها كل ذي طبع سليم، وذوق صحيح إلا لذلك؛ ولأنه من قبيل شعب البلاغة، وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة: «ولما سكن عن موسى الغضب»، لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة، وطرفاً من تلك الروعة.

وقرىء: «ولما سُبِكَت»، و«أسكت»، أي: أسكته الله، أو أخوه باعتذاره إليه وتنصله، والمعنى: ولما طفىء غضبه، ﴿أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ﴾: التي ألقاها، ﴿وَفِي نُشْحَتِهَا﴾: وفيما نسخ منها، أي: كتب؛ «والنسخة»: فعلة، بمعنى: مفعول، كالخطبة، ﴿لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾: دخلت اللام لتقدم المفعول؛ لأن تأخر الفعل عن مفعوله / ٢٥٨ ب يكسبه ضعفاً؛ ونحوه: ﴿لِلرَّيَّةِ نَعْرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣]، وتقول: لك ضربت.

﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَلَاتًا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن

= وهل تجري الاستعارة في الحرف أو في مدخول الحرف؟ في كلامه الاتجاهان كما هما الآن.  
٦ - وقد تعرض للاستعارة الأصلية عند قوله - تعالى -: ﴿رَبِّكَ وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْهِ نِجَمَ صَاعِكًا﴾ فكلمة «إصرأ» إستعارة للتكاليف الشرعية الشاقة التي كانت على بني إسرائيل كما بين «الآية هي الأخيرة ٢٨٦ من سورة البقرة» ويأتي المفسر العلامة إلى قوله - تعالى - ﴿فِي قُلُوبِهِمْ كَرَاهٍ﴾ فينظر إلى كلمة «مرض» بإمعان فيراها مرة حقيقة ومرة مجازاً وكلاهما محتمل.  
٧ - وفي النهاية أقول يكفي الزمخشري ومن تبعه هذه اللفتات الفنية، وهذه الإشارات البلاغية، فإنها تدل على قدرة فائقة في الفهم الرائق، والغوص وراء الدقائق ولا مشاجة في الاصطلاح، فالأسماء ميسورة، والمقصود المسميات المرادة، ودائماً أرى أبا السعود يأخذ من كلام الزمخشري إما بلفظه أو بمعناه ويضيف ما أفاد من سواه أو فتح الله به عليه - فالله هو الفتح العليم.  
«يراجع مفتاح العلوم للسكاكي ١٧٢ وما بعدها والإيضاح للقرظيني وحواشي شيخنا الخفاجي عليه ١٢/٥ وما بعدها، والمطول للسعد ٣٥٢ وما بعدها وزهر الربيع في المعاني والبيان والبديع للحملاني ١٢٢ وما بعدها، ودروس تطبيقية د. فتحي فريد ٦٨ وما بعدها - ط. الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٢ م والبلاغة القرآنية لأبي موسى ٤٩٦ وما بعدها.  
ومن البلاغة العربية في نور القرآن والسنة النبوية لفتحي حجازي وزميله ١٨٢ وما بعدها، وتفسير أبي السعود ٣٠٠/٢.

(٥) قال محمود: «هذا مثل، كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وخذ برأس أخيك... إلخ» قال أحمد: وهو من النمط الذي قدمته من قلب الحقيقة إلى المجاز، وكان الأصل: ولما سكت موسى عن الغضب، ولذلك عده بعض أهل العربية من المقلوب، وسلكه في نمط خرق الثوب المسمار. والتحقيق أنه ليس منه وأن هذا القلب أشرف وأفصح، لأنه بماله على معنى بليغ وهو أن الغضب كان متمكناً من موسى حتى كان كأنه يصرفه في أوامره، وكل ما وقع منه حينئذ فعن الغضب صادر، حتى كأنه هو الذي أمره به. ومثل هذه النكتة الحسنة لا تلقى في خرق الثوب المسمار، بل هي موجودة في قوله تعالى ﴿حَقِيقٌ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ على خلاف قراءة نافع. وقد تقدم ذلك آنفاً، والله الموفق.

تَنَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْعَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴿١٥٦﴾ وَأَكْتَبَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً  
 وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ  
 فَسَأَلْتُمَهَا لِلَّذِينَ يُنْفِقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِعَائِدِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ  
 الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ  
 لِمَعْرُوفٍ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ  
 عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۗ أَلَّذِينَ كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا  
 النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴿١٥٨﴾

﴿واختار موسى قومه﴾ أي من قومه، فحذف الجار وأوصل الفعل؛ كقوله [من الطويل]:

وَمِنَّا الَّذِي اخْتِيرَ الرَّجَالَ سَمَاحَةً ..... (١)

قيل: اختار من اثني عشر سبطاً، من كل سبط ستة حتى تماموا اثنين وسبعين، فقال:  
 ليتخلف منكم رجلان، فتشاحوا، فقال: إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج، فقعد  
 كالب ويوشع، وروي أنه لم يصب إلا ستين شيخاً، فأوحى الله - تعالى - إليه أن تختار من  
 الشبان عشرة، فاخترهم فأصبحوا شيوخاً، وقيل: كانوا أبناء ما عدا العشرين، ولم  
 يتجاوزوا الأربعين، قد ذهب عنهم الجهل والصبأ، فأمرهم موسى أن يصوموا، ويتطهروا،  
 ويظهروا ثيابهم، ثم خرج بهم إلى طور سينا لميقات ربه، وكان أمره ربه أن يأتيه في  
 سبعين من بني إسرائيل، فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى  
 الجبل كله، ودنا موسى ودخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، فدنوا، حتى إذا دخلوا في الغمام  
 وقعدوا سجداً، فسمعوه وهو يكلم موسى بأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل، ثم انكشف  
 الغمام فأقبلوا إليه، فطلبوا الرؤية فوعظهم، وزجرهم، وأنكر عليهم، فقالوا: يا موسى،  
 لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فقال: رب أرني أنظر إليك، يريد: أن يسمعوا الردَّ  
 والإنكار من جهته، فأجيب: بـ «لن تراني» ورجف بهم الجبل فصعقوا، ولما كانت

(١) ومنا الذي اختير الرجال سماحة وجوداً إذا هب الرياح الزعازع

المعنى: ومنا الذي اختاره الناس من بين الرجال، فالرجال نصب على نزع الخافض. وسماحة:  
 تمييز لبيان جهة الاختيار. وجوداً عطف عليه، إذا هب الرياح، كناية عن دخول الشتاء، فتهدج  
 الرياح الزعازع، أي الشديدة المحركة للأشياء، وإذا جاد زمن انقطاع الميرة، فكيف بالصف.  
 البيت للفرزدق ينظر: ديوانه ٤١٨/١، والكتاب ٣٩/١، والمقتضب ٣٣١/٤، والأشياء والنظائر  
 ٣٣١/٢، وخزانة الأدب ١١٣/٩، ١١٥/٥، ١٢٣، ١٢٤، والدرر ٢٩١/٢ وشرح أبيات سيويه  
 ٤٢٤/١، وشرح شواهد المغني ١٢/١ ولسان العرب «خير»، وشرح المفصل لابن يعيش ٥١/٨،  
 وهمع الهوامع ١٦٢/١ والدر المصون ٣٥١/١.

الرجفة، ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَائْتِنْتُ﴾، وهذا تمنٍّ منه للإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تبعه طلب الرؤية، كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوء المغيبة: لو شاء الله، لأهلكني قبل هذا، ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ إِنَّهُمْ بِآيَاتِنَا أَغْفَلُونَ﴾ يعني: أتهلكنا جميعاً، يعني: نفسه وإياهم؛ لأنه إنما طلب الرؤية زجراً للسفهاء، وهم طلبوها سفهاً وجهلاً، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: محنتك وابتلاؤك حين كلمتني وسمعوا كلامك، فاستدلوا بالكلام على الرؤية استدلالاً فاسداً، حتى افتتنوا وضلوا، ﴿تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾، تضلّ بالمحنة الجاهلين غير الثابتين في معرفتك، وتهدي العالمين بك الثابتين بالقول الثابت، وجعل ذلك إضلالاً من الله وهدى منه؛ لأن محنته لما كانت سبباً<sup>(١)</sup>، لأن ضلوا، واهتدوا، فكانه أضلهم بها، وهداهم على الاتساع في الكلام، ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا﴾: مولانا القائم بأمرنا، ﴿وَأَكْتَبْنَا لَكَ﴾: وأثبت لنا واقسم، ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: عافية، وحياة طيبة، وتوفيقاً في الطاعة، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾: الجنة، ﴿هُدًى لِيَّكَ﴾: تسبنا إليك، وهاد إليه يهود إذا رجع وتاب، واليهود: جمع هائد، وهو التائب؛ ول بعضهم [من المجتث]

يَا زَاكِبَ / ٢٥٨ب الذُّنْبِ هُذُودٌ وَأَسْجُدُ كَأَنَّكَ هُذُودٌ<sup>(٢)</sup>  
 وقرأ أبو وجرة السعدي: «هدنا إليك»، بكسر الهاء، من هاده يهيده إذا حرّكه وأمّاله، ويحتمل أمرين: أن يكون مبنياً للفاعل والمفعول، بمعنى: حرّكنا إليك أنفسنا وأملائنا أو حرّكنا إليك وأملائنا على تقدير: فعلنا؛ كقولك: عدت يا مريض بكسر العين، فعلت من العيادة، ويجوز: عدت بالإشمام، وعدت، بإخلاص الضمة فيمن قال: عود المريض، وقول القول، ويجوز على هذه اللغة أن يكون (هدنا): بالضم، فعلنا من هاده يهيده، ﴿عَدَائِي﴾: من حاله وصفته أني، ﴿أَصِيبُ يَدِي مِّنْ أَسَاءَةٍ﴾ أي: من وجب عليّ في الحكمة<sup>(٣)</sup> تعذيبه، ولم يكن في العفو عنه مساع؛ لكونه مفسدة، وأما: (رحمتي): فمن حالها وصفتها أنها واسعة تبلغ كل شيء، ما من مسلم، ولا كافر، ولا مطيع، ولا عاص، إلا وهو متقلب في نعمتي، وقرأ الحسن: «من أساء»، من الإساءة، فسأكتب هذه الرحمة كتبة خاصة منكم يا بني إسرائيل للذين يكونون في آخر الزمان من أمة محمد - ﷺ - الذين

(١) قوله: «لأن محنته لما كانت سبباً» صرف الكلام عن ظاهره؛ لأنه تعالى لا يخلق الشر عندهم. أما على مذهب أهل السنة فلا حاجة إلى ذلك.

(٢) للزمخشري، شبه ملازمته للذنوب بملازمة الراكب للمركوب. وهاد يهود، إذا تاب ورجع. وهد: أمر منه، وكرر للتوكيد. ثم قال: واسجد كأنك هدهد، فشبهه به لكثرة ما يطرق برأسه إلى الأرض لا في السرعة، فالعنى: أسجد كثيراً.

ينظر روح المعاني ٧٦/٩، وحاشية الشهاب ٢٢٤/٤ والدر المصون ٣٥٢/٣.

(٣) قوله: «أي من وجب عليّ في الحكمة» هذا عند المعتزلة. وأما أهل السنة فلا يجب على الله تعالى عندهم شيء.

هم بجميع آياتنا وكتبنا يؤمنون؛ لا يكفرون بشيء منها، ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ آيَاتَ رَسُولٍ﴾: الذي نوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو: «القرآن»؛ ﴿التَّيَّعَ﴾: صاحب المعجزات، ﴿الَّذِي يَهْدُونَا﴾: يجد نعته أولئك الذين يتبعونه من بني إسرائيل، ﴿مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ... وَيُحَدِّثُ لَهُمُ الظَّالِمَاتِ﴾: ما حرم عليهم من الأشياء الطيبة، كالشحوم وغيرها، أو ما طاب في الشريعة والحكم مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح، وما خلى كسبه من السحت، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾: ما يستخبث من نحو الدم، والميتة، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به أو ما خبث في الحكم، كالربا، والرشوة، وغيرهما من المكاسب الخبيثة، «الإصر»: الثقل الذي يأصر صاحبه، أي: يحبسه من الحراك، لثقله، وهو مثل لثقل تكليفهم وصعوبته، نحو اشتراط قتل الأنفس في صحة توبتهم، وكذلك الأغلال، مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة، نحو: بت القضاء بالقصاص عمداً كان أو خطأ من غير شرع الدية، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب، وإحراق الغنائم، وتحريم العروق في اللحم، وتحريم السبت، وعن عطاء: كانت بنو إسرائيل إذا قامت تصلي، لبسوا المسوح، وغلوا أيديهم إلى أعناقهم، وربما ثقب الرجل ترقوته، وجعل فيها طرف السلسلة، وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة، وقرىء: «آصارهم»، على الجمع، ﴿وَعَزَّزُوهُ﴾: ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدو، وقرىء: بالتخفيف، وأصل العز: المنع، ومنه: التعزير للضرب دون الحد؛ لأنه منع عن معاودة القبيح؛ ألا ترى إلى / ٢٥٩ تسمية الحد، والحد: هو المنع، و﴿التَّوْرَةَ﴾: القرآن.

فإن قلت: ما معنى قوله: ﴿أَنْزَلَ مَعَهُ﴾، وإنما أنزل مع جبريل؟ قلت: معناه أنزل مع نبوته؛ لأن استنباهه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به، ويجوز أن يعلق باتبعوا، أي: واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي، والعمل بسنته، وبما أمر به ونهي عنه، أو: واتبعوا القرآن، كما اتبعه مصاحبين له في اتباعه.

فإن قلت: كيف انطبق هذا الجواب على قول موسى - عليه السلام - ودعائه؟

قلت: لما دعا نفسه ولبنى إسرائيل، أجيب بما هو منطوق على توبيخ بني إسرائيل على استجازتهم الرؤية على الله - تعالى - وعلى كفرهم بآيات الله العظام التي أجزاها على يد موسى، وعرض بذلك في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَشَاءُ يَتَّبِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٨]، وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ - وما جاء به كـ «عبد الله بن سلام» وغيره من أهل الكتابين؛ لطفاً لهم، وترغيباً في إخلاص الإيمان، والعمل الصالح، وفي أن يحشروا معهم، ولا يفرق بينهم، وبين أعقابهم عن رحمة الله<sup>(١)</sup> التي وسعت كل شيء.

(١) قوله: «عن رحمة الله» لعله «في رحمة الله». أو ضمن التفريق معنى الإبعاد، فعدى بعن.

﴿ قُلْ يَتَّبِعُهَا النَّاسُ إِنْ رَسُوهُ اللهُ إِيَّاكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَتَمِيتُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَأَتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١٥٨)

﴿ إِنْ رَسُوهُ اللهُ إِيَّاكُمْ جَمِيعًا ﴾، قيل: بعث كل رسول إلى قومه خاصة، وبعث محمد - ﷺ - إلى كافة الإنس، وكافة الجن، «وجميعاً»: نصب على الحال من إليكم.

فإن قلت: ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾، ما محله؟

قلت: الأحسن أن يكون منتصباً بإضمار أعني؛ وهو الذي يسمى النصب على المدح. ويجوز أن يكون جرّاً على الوصف، وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله: «إليكم»، ﴿ إِيَّاكُمْ جَمِيعًا ﴾، وقوله: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾: بدل من الصلة التي هي له ملك السموات والأرض، وكذلك: ﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾، وفي ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾: بيان للجملته قبلها؛ لأن من ملك العالم، كان هو الإله على الحقيقة، وفي يحيي ويميت: بيان لاختصاصه بالإلهية؛ لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره، ﴿ وَكَلِمَاتِهِ ﴾: وما أنزل عليه، وعلى من تقدّمه من الرسل من كتبه ووجيه.

وقرىء: «وكلمته» على الإفراد، وهي: «القرآن»، أو أراد جنس ما كلم به، وعن مجاهد: أراد عيسى ابن مريم.

وقيل: هي الكلمة التي تكوّن منها عيسى وجميع خلقه، وهي قوله: (كن)، وإنما قيل: إن عيسى كلمة الله، فخص بهذا الاسم؛ لأنه لم يكن؛ لكونه سبب غير الكلمة، ولم يكن من نطفة تمنى، ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾: إرادة أن تهتدوا.

فإن قلت: هلا قيل: فأسنوا بالله وبني، بعد قوله: إني رسول الله إليكم؟

قلت: عدل عن المضمّر إلى الاسم الظاهر، لتجري عليه الصفات التي أجريت عليه، ولما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة، وليعلم أنّ الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته، كائناً من كان، أنا أو غيري؛ إظهاراً للنصفة، وتفادياً/ ٢٥٩ ب من العصبية لنفسه.

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾ (١٥٩)

﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ ﴾ هم: المؤمنون التائبون من بني إسرائيل؛ لما ذكر الذين تزلزلوا منهم في الدين، وارتابوا، حتى أقدموا على العظيمنتين: عبادة العجل، واستجازة رؤية الله

- تعالى ، ذكر أنّ منهم أمة موقنين، ثابتين، يهدون الناس بكلمة الحق، ويدلونهم على الاستقامة ويرشدونهم، وبالحق يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون، أو أراد الذين وصفهم من أدرك النبي - ﷺ - وآمن به من أعقابهم.

وقيل: إنّ بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم، وكفروا، وكانوا اثني عشر سبطاً تبرا سبط منهم مما صنعوا واعتدروا، وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم، ففتح الله لهم نفقاً في الأرض، فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين، وهم هنالك حنفاء مسلمون، يستقبلون قبلتنا، وذكر عن النبي - ﷺ - أن جبريل ذهب به ليلة الإسراء نحوهم، فكلّمهم، فقال لهم جبريل: هل تعرفون من تكلمون؟ قالوا: لا، قال: هذا محمد النبي الأمي، فأمنوا به وقالوا: يا رسول الله، إن موسى أوصانا من أدرك منكم أحمد، فليقرأ عليه مني السلام، فردّ محمد على موسى - عليهما السلام - ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة، ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة، وأمرهم أن يقيموا مكانهم، وكانوا يسبتون، فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت، وعن مسروق، قرىء: بين يدي عبد الله، فقال رجل: إني منهم، فقال عبد الله - يعني: لمن كان في مجلسه من المؤمنين -: وهل يزيد صلحاؤكم عليهم شيئا من يهدي بالحق وبه يعدل.

وقيل: لو كانوا في طرف من الدنيا متمسكين بشريعة ولم يبلغهم نسخها، كانوا معذورين، وهذا من باب الفرض والتقدير، وإلا فقد طار الخبر بشريعة محمد - ﷺ - إلى كل أفق، وتغلغل في كل نفق، ولم يبق الله أهل مدر، ولا وبر، ولا سهل، ولا جبل، ولا برّ، ولا بحر في مشارق الأرض ومغاربها، إلا وقد ألقاه إليهم، وملا به مسامعهم، وألزمهم به الحجة، وهو سائلهم عنه يوم القيامة.

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَلَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ ﴾ وصيرناهم قطعاً، أي فرقا، وميزنا بعضهم من بعض؛ لقلّة الألفة بينهم. وقرىء: «وقطعناهم» بالتخفيف، ﴿ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا ﴾؛ كقولك: اثنتي عشرة قبيلة، «والأسباط»: أولاد الولد، جمع سبط، وكانوا اثنتي عشرة قبيلة من اثني عشر ولداً من ولد يعقوب، عليه السلام.

فإن قلت: مميز ما عدا العشرة مفرد، فما وجه مجيئه مجموعاً؟ وهلا قيل: اثني عشر سبطاً؟

قلت: لو قيل ذلك لم يكن تحقيقاً لأن المراد (٢٦٠/أ): وقطعناهم اثنتي عشرة قبيلة، وكل قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباطاً موضع قبيلة؛ ونظيره [من الرجز]:

بَيْنَ رِمَاحِي مَالِكٍ وَنَهْشَلٍ<sup>(١)</sup>

﴿وَأُمّاً﴾: بدل من اثنتي عشرة، بمعنى: وقطعناهم أمماً؛ لأن كل أسباط كانت أمة عظيمة، وجماعة كثيفة العدد، وكل واحدة كانت تؤمّ خلاف ما تؤمّه الأخرى، لا تكاد تأتلف.

وقرىء: «اثنتي عشرة» بكسر الشين، ﴿فَأَبْجَسَتْ﴾: فانفجرت، والمعنى واحد، وهو الانفتاح بسعة وكثرة، قال العجاج [من الرجز]:

وَكَيْفَ غَزَزْنِي ذَالِجٌ تَبَجَّسَا<sup>(٢)</sup>

(١) تبقلت في أول التبقل بين رماحي مالك ونهشل  
في حبة حرف وحمض هيكل مستأسد ذبانه في عيطل  
يقلن للرائد: أعشبت انزل

لأبي النجم، يصف رمكة باعتبارها الحروب واقتحامها المكاره من أول أمرها. يقال: تبقلت الغنم وغيرها: رعت البقل وهو النبات الرطب. شبه اقتحام تلك الفرس للحروب من صغرهما حتى اعتادتها برعي الدابة للكلا واعتيادها عليه، بجامع التمرن والاعتیاد والسهولة، بل والاستلذاذ، ثم استعار التبقل لذلك على طريق التصريحية، وبلغ في ذلك حيث أسند الفعل إليها، كأنه لا دخل له فيه. ويروى: من أول التبقل، بين رماحي مالك ونهشل: أي بين رماح مالك بن ضبعة ورماح نهشل بن دارم من أمراء العرب، فشئى الرماح دلالة على التنوع والتمايز. وقال أبو حنيفة: الحبة بالكسر اليبس المنكسر المتراكم. وقال الأزهري: هي البذور الساقطة مع الأوراق في آخر الصيف والحرف: اليابسة الدقيقة. والحمض نوع من النبات. والهيكل: الطويل الضخم. والمستأسد: الطويل الغليظ أيضاً. وذبان جمع ذباب، كغربان وغراب. والعيطل - بالعين المهملة -: الأصوات المختلطة. والرائد: هو الذي يتقدم القوم لطلب الخصب. يقلن، أي الذبان. وأعشب الرجل: وجد العشب، وصف النبات بالكثرة والالتفاف حتى كثرت ذبانه وصارت له أصوات مختلطة، فكان يدعو الرائد ويحمله على النزول في هذا المكان عند سماع صوته، فاستعار القول لذلك على سبيل التصريح. وروي: مستأسد أذناه في عيطل. تقول للرائد، فالأذنان جمع ذنب، أي أطرافه تصوت بالريح بقول ذلك النبات والمجاز كما تقدم. هذا، وحق الرواية: بين رماحي مالك ونهشل. والرمكة: الأنثى من البراذين والخيل، وجمعها رماك وأرماك ورمكات، كثمرة وثمار وأثمار وثمرات. يصف فرسه بأنها رعت البقل حقيقة مع تلك الخيول والبراذين؛ فلا مجاز هنا. ينظر: العمدة ٢/٤١٣، الخزانة ٢/٣٩٠، الدر المصون ٣/٣٥٧.

(١) واتحلبت عيناه من فرط الأسى وكيف غربي دالج تبجّسا  
فرط الأسى: شدة الحزن. والوكيف: مصدر نصب بانحلبت؛ لأن معناه: وكفت. والغرب: الدلو =

فإن قلت: فهلا قيل: فاضرب فانجست؟

قلت: لعدم الإلباس، وليجعل الإنجاس مسبباً عن الإيحاء بضرب الحجر؛ للدلالة على أن الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر، وأنه من انتفاء الشك عنه، بحيث لا حاجة إلى الإفصاح به، من قوله: ﴿كُلُّ أَنَاثٍ﴾: نظير قوله: اثنتي عشرة أسباطاً، يريد كل أمة من تلك الأمم الثنتي عشرة، «والأناس»: اسم جمع غير تكسير، نحو، رخال، وتواء، وتوام<sup>(١)</sup>، وأخوات لها، ويجوز أن يقال: إن الأصل الكسر والتكسير، والضممة بدل من الكسرة؛ كما أبدلت في نحو: سكارى، وغيارى<sup>(٢)</sup>، من الفتحة<sup>(٣)</sup>، ﴿وَمَا ظَلَمْنَا عَلَيْهِمْ﴾: وجعلناه ظليلاً عليهم في التيه، و﴿وَكُلُّوا﴾: على إرادة القول، ﴿وَمَا ظَلَمُوا﴾: وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرانهم النعم، ولكن كانوا يضرون أنفسهم، ويرجع وبال ظلمهم إليهم.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوهَا

= العظيم. والدالج: من يأخذ الدلو من البئر فيفرغه في الحوض. والتبجس. اتساع الانفجار. يقول: انصبت دموع عينيه من شدة الحزن، كانصباب دلو ي رجل مفرغ لها في الحوض تفجراً بسعة. وفيه تشبيه العينين بالغريين.

ينظر: ديوانه (١٨٥/١)، ومقاييس اللغة (١٩٩/١)، وأساس البلاغة (بجس)، و(كف)، وكتاب العين (٤١٣/٥)، لسان العرب (بجس)، وتهذيب اللغة (٥٩٩/١٠).

(١) قوله: «ونحو رخال وتواء وتوام» رخال: هي الإناث من أولاد الضأن. والتواء: القاطنون بالبلد. والتوام - بالمد - واحده توأم، وزان كوكب. أفاده الصحاح (ع).

(٢) قوله: «نحو سكارى وغيارى» غار الرجل على أهله فهو غيور. وجمعه غير وغيران. وجمعه غيارى وغيارى، كذا في الصحاح.

(٣) قال السمين الحلبي: قال الشيخ: «ولا يجوز ما قال؛ لوجهين، أحدهما: أنه لم يُنطق بـ «إناس» بكسر الهمزة، فيكون جمع تكسير، حتى تكون الضمة بدلاً من الكسرة، بخلاف «سُكَّازِي» و«غِيَّارِي» فإنَّ القياس فيه «فَعَالِي» بفتح فاء الكلمة وهو مسموع فيهما. والثاني: أن «سُكَّازِي، و«غِيَّارِي، و«عُجَّالِي» وما ورد من نحوها ليست الضمة فيه بدلاً من الفتحة، بل نص سيبويه في كتابه على أنه جمع تكسير أصل، كما أن «فَعَالِي» جمع تكسير أصل، وإن كان لا ينقاس الضم كما ينقاس الفتح. قال سيبويه - في حد تكسير الصفات -: «وقد يكسرون بعض هذا على «فَعَالِي» وذلك قول بعضهم: عُجَّالِي، وسُكَّازِي». وقال سيبويه - في الأبنية أيضاً -: «ويكون «فَعَالِي» في الاسم، نحو: حُبَّارِي، وسُمَّانِي، ولُبَّادِي. ولا يكون وصفاً إلا أن يكسَّر عليه الواحد للجمع، نحو: سُكَّازِي، و«عُجَّالِي». فهذان نصابان من سيبويه على أنه جمع تكسير. وإذا كان جمع تكسير أصلاً لم يسغ أن يدعى أن أصله «فَعَالِي» وأنه أبدلت الحركة فيه. وذهب المبرد إلى أنه اسم جمع أعني فعالي بضم الفاء وليس بجمع تكسير، فالزمخشري لم يذهب إلى ما ذهب إليه سيبويه، ولا إلى ما ذهب إليه المبرد، لأنه عند المبرد اسم جمع، فالضمة في فائه أصل، ليست بدلاً من الفتحة، بل أحدث قولاً ثالثاً انتهى». انتهى. الدر المصون.

الْبَابِ مُجَدِّدًا نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٦﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ  
قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا  
يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾: واذكر إذ قيل لهم؛ والقرية: بيت المقدس.

فإن قلت: كيف اختلفت العبارة ههنا وفي سورة البقرة؟

قلت: لا بأس باختلاف العبارتين، إذا لم يكن هناك تناقض، ولا تناقض بين قوله: «اسكنوا هذه القرية وكلوا منها»، وبين قوله: «فكلوا»، لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها، فقد جمعوا في الوجود بين سكنها والأكل منها، وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو أخرجوها، فهم جامعون في الإيجاد بينهم، وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته، وقوله: ﴿نَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾: موعده بشيئين: بالغفران، وبالزيادة؛ وطرح الواو لا يخل بذلك؛ لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقبل له: سزيد المحسنين؛ وكذلك زيادة: ﴿مِنْهُمْ﴾: زيادة بيان، وأرسلنا، وأنزلنا، و﴿يَظْلِمُونَ﴾: ويفسقون من واد واحد.

وقرىء: «يغفر لكم خطيئاتكم»، و«تغفر لكم خطاياكم»، وخطيئاتكم، وخطيئتك، على البناء للمفعول.

﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ  
تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ  
بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١١٧﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْبُدُونَ قَوْمًا لَمْ يَغْطُوا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا  
شَدِيدًا قَالُوا مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ ﴿١١٨﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ  
يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَيْسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١١٩﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ  
مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

﴿وسألهم﴾: وسل اليهود، وقرىء: «واسألهم»، وهذا السؤال معناه: التقرير، والتقريع، بتقديم كفرهم، وتجاوزهم حدود الله، والإعلام بأن هذا من علومهم التي لا تعلم إلا بكتاب أو وحي، فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم، علم أنه من جهة ٢٦٠/ ب الوحي، ونظيره: همزة الاستفهام التي يراد بها التقرير في قولك: أعدوتم في السبت؟ والقرية: أيلة، وقيل: مدين، وقيل: طبرية، والعرب تسمى المدينة قرية، عن أبي عمرو بن العلاء، ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج، يعني: رجلين من أهل المدن،

﴿حَاصِرَةُ الْبَحْرِ﴾: قريبة منه راكبة لشاطئه، ﴿إِذْ يَمْدُونُ فِي السَّبْتِ﴾: إذ يتجاوزون حد الله فيه، وهو اصطيادهم في يوم السبت، وقد نهوا عنه.

وقرىء: «يَعْدُونَ»، بمعنى: يعتدون، أدغمت التاء في الدال، ونقلت حركتها إلى العين «وَيُعْدُونَ» من الإعداد، وكانوا يعدون آلات الصيد يوم السبت، وهم مأمورون بالأشغال فيه بغير العبادة، والسبت: مصدر سبتت اليهود، إذا عظمت سبتها بترك الصيد والاشتغال بالتعب، فمعناه: يعدون في تعظيم هذا اليوم؛ كذلك قوله: ﴿يَوْمَ سَكَبْتُمُ﴾، معناه: يوم تعظيمهم أمر السبت؛ ويدل عليه قوله: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبُتُونَ﴾، قراءة عمر بن عبد العزيز: «يوم إسباتهم».

وقرىء: «لا يسبوتون»، بضم الباء، وقرأ على: «لا يُسبِتُونَ» بضم الياء، من أسبتوا، وعن الحسن: «لا يسبتون» على البناء للمفعول، أي: لا يدار عليهم السبت، ولا يؤمرون بأن يسبتوا.

فإن قلت: إذ يعدون، وإذ تأتيتهم، ما محلها من الإعراب؟

قلت: أما الأول: فمجرور بدل من القرية، والمراد بالقرية: أهلها؛ كأنه قيل: واسألهم عن أهل القرية، وقت عدوانهم في السبت، وهو من بدل الاشتمال، ويجوز أن يكون منصوباً بكانت، أو بحاضرة، وأما الثاني: فمنصوب بيعدون، ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل، والحيتان: السمك، وأكثر ما تستعمل العرب الحوت في معنى السمكة، ﴿شُرَيْعًا﴾: ظاهرة على وجه الماء، وعن الحسن: تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض، يقال: شرع علينا فلان إذا دنا منا وأشرف علينا، وشرعت على فلان في بيته فرأيتة يفعل كذا، ﴿كَذَلِكَ بَلَّوْهُمْ﴾ أي: مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم، ﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾: معطوف على إذ يعدون، وحكمه حكمه في الإعراب، ﴿أُمَّةٌ مِنْهُمْ﴾: جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين ركبوا الصعب والذل في موعظتهم، حتى أسوا من قبولهم، لآخرين كانوا لا يقلعون عن وعظهم، ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ أي: مخترمهم، ومطهر الأرض منهم، ﴿أَوْ مَعِدَّيْهِمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾: لتمامهم في الشر؛ وإنما قالوا ذلك، لعلمهم أن الوعظ لا ينفع فيهم، ﴿قَالُوا مَذْرَأَةُ إِبْنِ رِيكْرٍ﴾ أي: موعظتنا إبلاء عذر إلى الله، ولثلا نسب في النهي عن المنكر إلى بعض التفريط، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾: ولطمعنا في أن يتقوا بعض الانتقاء، وقرىء: (معدرة) بالنصب، أي: وعظناهم/ ٢٦١ أ معدرة إلى ريكم، أو اعتذرنا معدرة، ﴿فَلَمَّا سَوَّأُ﴾ يعني: أهل القرية، فلما تركوا ما ذكرهم به الصالحون، ترك الناسي لما ينساه، ﴿أَتَجِئْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا﴾: الظالمين الراكبين للمنكر.

فإن قلت: الأمة الذين قالوا: (لم تعظون)، من أي الفريقين هم؟ أمن فريق الناجين أم المعذبين؟

قلت: من فريق الناجين؛ لأنهم من فريق الناهين، وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه؛ حيث لم يروا فيه غرضاً صحيحاً لعلمهم بحال القوم، وإذا علم الناهي حال المنهي، وأن النهي لا يؤثر فيه، سقط عنه النهي، وربما وجب الترك لدخوله في باب العيب؛ ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر<sup>(١)</sup>، والجلادين المرتبين للتعذيب لتعظهم وتكفهم عما هم فيه، كان ذلك عبثاً منك؛ ولم يكن إلا سبباً للتلهي بك، وأما الآخرون: فإنما لم يعرضوا عنهم، إنا: لأن بأسهم لم يستحکم كما استحکم بأس الأولين، ولم يخبروهم كما خبروهم، أو لفرط حرصهم وجذهم في أمرهم كما وصف الله - تعالى - رسوله - عليه الصلاة والسلام - في قوله: ﴿فَلَمَّا كَبِخَعُ نَفْسَكَ﴾ [الكهف: ٦]، وقيل: الأمة هم الموعوظون؛ لما وعظوا قالوا للواعظين: لم تعظون منا قوماً تزعمون أن الله مهلكهم أو معذبهم؟

وعن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه قال: يا ليت شعري ما فعل بهؤلاء الذين قالوا: لم تعظون قوماً؟

قال عكرمة: فقلت: جعلني الله فداك؛ ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه، وخالفوهم وقالوا: لم تعظون قوماً الله مهلكهم، فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا، وعن الحسن: نجت فرقتان، وهلكت فرقة، وهم الذين أخذوا الحيتان، وروي أن اليهود أمروا باليوم الذي أمرنا به، وهو يوم الجمعة، فتركوه واختاروا يوم السبت، فابتلوا به، وحرم عليهم فيه الصيد، وأمروا بتعظيمه، فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعاً، بيضاً، سمناً، كأنها المخاض، لا يرى الماء من كثرتها، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم جاءهم إبليس، فقال لهم: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا حياً تسوقون الحيتان إليها يوم السبت، فلا تقدر على الخروج منها، وتأخذونها يوم الأحد، وأخذ رجل منهم حوتاً، وربط في ذنبه خيطاً إلى خشبة في الساحل، ثم شواه يوم الأحد، فوجد جاره ريح السمك، فتطلع في تنوره، فقال له: إني أرى الله سيعذبك، فلما لم يره عذب، أخذ في السبت القابل حوتين، فلما رأوا أن العذاب لا يعاجلهم، صادوا، وأكلوا، وملحوا، وباعوا، وكانوا نحواً من سبعين ألفاً، فصار أهل القرية اثلاثاً، ثلث نهوا وكانوا نحواً من اثني عشر ألفاً، وثلث قالوا/ ٢٦١ب: لم تعظون قوماً؟ وثلث: هم أصحاب

(١) قوله: «على المآصر» المآصر هي المحابس، من أصره الله حبسه. كذا في الصحاح.

الخطيئة، فلما لم ينتهوا، قال المسلمون: إنا لا نساكنكم، فقسّموا القرية بجدار: للمسلمين باب، وللمعتدين باب، ولعنهم داود - عليه السلام - فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم، ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس شأنًا، فعلوا الجدار فنظروا، فإذا هم قردة، ففتحوا الباب، ودخلوا عليهم، فعرفت القردة أنسبها من الإنس، والإنس لا يعرفون أنسبها من القردة، فجعل القرد يأتي نسيبه فيشم ثيابه، ويبكي، فيقول: ألم نهك؟ فيقول برأسه: بلى، وقيل: صار الشباب قردة، والشيوخ خنازير، وعن الحسن: أكلوا والله أوحم أكلة أكلها أهلها، أثقلها خزيًا في الدنيا، وأطولها عذابًا في الآخرة، هاهنا وايم الله، ما حوت أخذته قوم فأكلوه أعظم عند الله من قتل رجل مسلم، ولكن الله جعل موعداً، والساعة أدهى وأمر، ﴿بَيْسٍ﴾: شديد، يقال: بؤس ببؤس بأساً، إذا اشتد، فهو بئيس.

وقرىء: ﴿بَيْسٍ﴾. بوزن حَذِير، «وبيس» على تخفيف العين ونقل حركتها إلى الفاء، كما قال: كبد في كبد. وبيس على قلب الهمزة ياء، كذيب في ذئب، وبيس على فيعل، بكسر الهمزة وفتحها. «وبيس»، بوزن ريس، على قلب همزة بيس ياء، وإدغام الياء فيها، و«بيس» على تخفيف بيس، كهين في هين، وبانس على فاعل، ﴿فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا هُوَ﴾: فلما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه؛ كقوله: ﴿وَعَتَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾، ﴿فَلَمَّا هَمَّ كُونُوا قَرَدَةً﴾: عبارة عن مسخهم قردة؛ كقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، والمعنى: أن الله - تعالى - عذبهم أولاً بعذاب شديد، فعتوا بعد ذلك فمسخهم، وقيل: فلما عتوا، تكرير لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ والعذاب البئيس: هو المسخ.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١١٧)

﴿تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾: عزم ربك، وهو تفعل من الإيدان، وهو الإعلام؛ لأن العازم على الأمر يحدث نفسه به، ويؤذنها بفعله، وأجرى مجرى فعل القسم؛ كعلم الله، وشهد الله؛ ولذلك أوجب بما يجاب به القسم، وهو قوله: ﴿لِيُبْعَثَنَّ﴾، والمعنى: وإذ حتم ربك وكتب على نفسه، ليبعث على اليهود، ﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾: فكانوا يؤذون الجزية إلى المجوس، إلى أن بعث الله محمداً - ﷺ - فضربها عليهم، فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر، ومعنى: «ليبعثن عليهم» ليسلطن عليهم؛ كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥].

﴿ وَقَطَعْتُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

﴿ وَقَطَعْتُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا ﴾ : وفرقناهم فيها، فلا يكاد يخلو بلد من فرقة منهم، ﴿ وَمِنْهُمْ الصَّالِحُونَ ﴾ : الذين آمنوا منهم بالمدينة، أو الذين وراء الصين، ﴿ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ﴾ : ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه، وهم الكفرة والفسقة.

فإن قلت: ما محل دون ذلك؟

قلت: الرفع، وهو صفة لموصوف محذوف، معناه: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح؛ ونحوه: ﴿ وَمَا يَنبَأُ إِلَّا لَهُمْ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٨﴾ ﴾، بمعنى: وما منا أحد إلا له مقام، ﴿ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ﴾ : بالنعم، والنقم، ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ : ينتهون فينبون، ﴿ فَخَلَفَ ﴾ : من بعد المذكورين، ﴿ خَلْفِهِمْ ﴾ : وهم الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ، ﴿ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾ : التوراة بقيت في أيديهم بعد سلفهم. يقرؤونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهي والتحليل والتحريم، ولا يعملون بها، ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى ﴾ أي: حطام هذا الشيء الأدنى، يريد الدنيا وما يتمتع به منها، وفي قوله: (هذا الأدنى): تخسيس وتحقير، والأدنى: إما من الدنو بمعنى القرب؛ لأنه عاجل قريب، وإما من دنو الحال وسقوطها وقلتها، والمراد: ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على العامة، ﴿ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ : لا يؤاخذنا الله بما أخذنا، وفاعل: (سيغفر) الجار والمجرور، وهو: (لنا)، ويجوز أن يكون الأخذ الذي هو مصدر يأخذون، ﴿ وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ : الواو: للحال، أي: يرجون المغفرة، وهم مصرون عائدون إلى مثل فعلهم، غير تائبين، وغفران الذنوب لا يصح إلا بالتوبة، والمصر لا غفران له، ﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ ﴾ يعني: قوله في التوراة: من ارتكب ذنباً عظيماً؛ فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة، ﴿ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ﴾ : في الكتاب من اشتراط التوبة في غفران الذنوب، والذي عليه المجبرة<sup>(١)</sup>، هو مذهب اليهود بعينه كما ترى، وعن مالك بن دينار - رحمه الله - : يأتي على الناس زمان إن قصروا عما أمروا به، قالوا: سيغفر لنا؛ لأننا لم نشرك بالله شيئاً، كل أمرهم إلى الطمع، خيارهم فيهم المداهنة، فهؤلاء من هذه الأمة أشباه الذين ذكرهم الله،

(١) قوله: «في غفران الذنوب والذي عليه المجبرة» يعني أهل السنة، ومذهبهم تجوز المغفرة بمجرد الفضل، لا الطمع فيها مع الإصرار على المعصية.

وتلا الآية، ﴿وَالَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾: من ذلك العرض الخسيس، ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾: الرشا ومحارم الله.

وقرىء: «ورثوا الكتاب»، «وألا تقولوا»، بالتاء، «وآذارسوا»، بمعنى: تدارسوا، «وأفلا تعقلون»، بالياء والتاء.

فإن قلت: ما موقع قوله: ﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾؟

قلت: هو عطف بيان لميثاق الكتاب، ومعنى: «ميثاق الكتاب»، الميثاق المذكور في الكتاب، وفيه أن إثبات المغفرة بغير توبة خروج عن ميثاق الكتاب، واقتراء على الله، وتقول عليه ما ليس بحق، وإن فسر ميثاق الكتاب بما تقدم ذكره كان: (أن لا يقولوا): مفعولاً له، ومعناه: لثلا يقولوا، ويجوز أن تكون: (أن): مفسرة، و(لا تقولوا): نهياً، كأنه قيل: ألم يقل لهم: لا تقولوا على الله إلا الحق؟

فإن قلت: علام عطف قوله: (ودرسوا ما فيه)؟

قلت: على ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنه تقرير، فكأنه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه.

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٧)

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾: فيه وجهان، أحدهما: أن يكون مرفوعاً بالابتداء، وخبره: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾، والمعنى: إنا لا نضيع أجرهم؛ لأن المصلحين في معنى الذين يمسكون بالكتاب؛ كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، والثاني: أن يكون مجروراً عطفاً على الذين يتقون، / ٢٦٢ ب ويكون قوله: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ﴾: اعتراضاً.

وقرىء: «يمسكون»، بالتشديد؛ وتنصره قراءة أبي: «والذين مسكوا بالكتاب».

فإن قلت: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة، ومنها إقامة الصلاة، فكيف أفردت؟

قلت: إظهاراً لمزية الصلاة؛ لكونها عماد الدين، وفارقة بين الكفر والإيمان، وقرأ ابن مسعود - رضي الله عنه -: «والذين استمسكوا بالكتاب».

﴿وَإِذْ نَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١٧)

﴿وَإِذْ نَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾: قلعناه ورفعناه؛ كقوله: ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾، ومنه: نتق

السقاء، إذا نفضه ليقطلع الزبدة منه، والظلة: كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب، وقرىء: بالطاء، من أطل عليه إذا أشرف، ﴿وَطَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾: وعلموا أنه ساقط عليهم، وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة؛ لغلظها وثقلها، فرفع الله الطور على رؤسهم مقدار عسكرهم، وكان فرسخاً في فرسخ، وقيل لهم: إن قبلتموها بما فيها، وإلا ليقعن عليكم، فلما نظروا إلى الجبل، خَرَّ كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من سقوطه؛ فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر، ويقولون: هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة، ولما نشر موسى الألواح وفيها كتاب الله، لم يبق جبل، ولا شجر، ولا حجر إلا اهتز؛ فلذلك لا ترى يهودياً تقرأ عليه التوراة إلا اهتز وأنغض لها رأسه<sup>(١)</sup>، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾: على إرادة القول، أي: وقلنا خذوا ما آتيناكم، أو قائلين: خذوا ما آتيناكم من الكتاب، ﴿يَقْوُونَ﴾: وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه، ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾: من الأوامر، والنواهي، ولا تنسوه، أو واذكروا ما فيه من التعريض للشواب العظيم فارغبوا فيه، ويجوز أن يراد: خذوا ما آتيناكم من الآية العظيمة بقوة إن كنتم تطبقونه؛ كقوله: ﴿إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ [الرحمن: ٢٣]، ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾: من الدلالة على القدرة الباهرة والإنذار، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: ما أنتم عليه، وقرأ ابن مسعود: «وتذكروا»، وقرىء: «واذكروا»، بمعنى: وتذكروا.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

﴿من ظُهُورِهِمْ﴾: بدل من بني آدم بدل البعض من الكل، ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم: إخراجهم من أصلابهم نسلًا وإشهادهم على أنفسهم، وقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾: من باب التمثيل والتخييل<sup>(٢)</sup>! ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته

(١) قوله: «وأنغض لها رأسه» أي حرك رأسه كالمتعجب. أفاده الصحاح.

(٢) قال محمود: «هذا من باب التمثيل والتخييل... الخ» قال أحمد: إطلاق التمثيل أحسن، وقد ورد الشرع به. وأما إطلاقه التخييل على كلام الله تعالى فمردود، ولم يرد به سمع، وقد كثر إنكارنا عليه لهذه اللفظة. ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر ما لم يخالف المعقول يجب إقراره على ما هو عليه، فلذلك أقره الأكثرون على ظاهره وحقيقته ولم يجعلوه مثلاً. وأما كيفية الإخراج والمخاطبة فالله أعلم بذلك.

ووحدايته، وشهدت بها عقولهم، وبصائرهم التي ركبها فيهم، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكانه أشهدهم على أنفسهم، وقرره، وقال لهم: أأست بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى، أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا، وأقرنا بوحدانيتك، وباب التمثيل واسع في كلام الله - تعالى - ورسوله - عليه السلام - وفي كلام العرب، ونظيره قوله تعالى / ٢٦٣: ﴿إِنَّمَا قَوْلُ لِسِيٍّ إِذَا أَرَدْتَهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آئِنًا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وقوله [من الرجز]:

إِذْ قَالَتِ الْأَنْسَاءُ لِلْبَطْنِ: الْحَقِي<sup>(١)</sup>

[ومن الرجز]:

قَالَتْ لَهُ رِيحُ الصَّبَا: قَرَقَارِ<sup>(٢)</sup>

ومعلوم أنه لا قول نم، وإنما هو تمثيل، وتصوير للمعنى، ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾: مفعول له، أي: فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول، كراهة ﴿أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾: لم ننبه عليه، ﴿أَوْ﴾: كراهة أن: ﴿تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ

(١) مر شرح هذا الشاهد عند تفسير آية ١١٧ من سورة البقرة فراجعه هناك إن شئت اهـ.

(٢) قالت له ريح الصبا قرقار واختلط المعروف بالإنكار

لأبي النجم العجلي. و«قرقار» اسم فعل بمعنى قرقر: أمر للسحاب لتنزله منزلة العاقل، أي: صوت بالرعد. هذا قول سيويه. وقال المبرد تبعاً للمازني: هو حكاية صوت الرعد، وهو على كل مبني على الكسر على أصل التخلص من التقاء الساكنين، لكنه على الأول متحمل للضمير، فهو مركب. وعلى الثاني: لا ضمير فيه، فهو مفرد، لكن فيه أن حكاية الأصوات لا تفيد حثاً ولا زجراً. وهنا يفيد الحث لقرينة المقام ولا فعل لها، وهذا له فعل. يقال: قرقرت الدجاجة إذا صوتت، إلا أن يقال إن المعنى: صوت يا رعد قرقار. وقولهم: قرقرت الدجاجة، مأخوذ من قرقار، كما أخذوا العياط من عيط بكسرتين بينهما سكون، حكاية لصوت المتلاعبين. واختلط يحتمل أنه أمر وهو أنسب بما قبله. ويحتمل أنه ماض. والمراد بالإنكار المنكر، ولا قول للريح. وإنما شبهها حيث تسوق السحاب بمن يصح منه القول، على طريق المكينة والقول تخييل. ويجوز أن يستعار القول لصوت السحاب، على طريق التصريح. ويجوز أنه من باب الكناية. وعلى هذا النحو قوله في ناقة صالح: فأتاها أحيمر كأخي السهم بغضب، فقال كوني عقيراً. وصرف الممنوع للضرورة. وأضاف الملقى لغير الملقى، ليدل على الملازمة لوجه شبه العاقر بالمهم. أي قالت الصبا للسحاب: قرقر بالرعد. واختلط الأماكن التي اعتدت سقيها بالتي كنت لا تبلغها بالسقي، أي سو بين الجميع فيه. ويحتمل أن المعروف المطر والمنكر الرعد والبرق والصواعق، أي افعل الجميع على أنه ماض، فهو عطف على قالت. وليس من قول الريح. وعليه فيجوز أيضاً رفع المعروف، ويكون الفعل لازماً. وهذا البيت من أبيات الكتاب.

ينظر: الكتاب (٢٧٦/٣)، وشرح المفصل لابن يعيش (٥١/٤)، والأشْمُونِي (١٦٠/٣)، الدر المصون (٣٧١/٣).



أدعو على من معه الملائكة، فألحوا عليه، ولم يزالوا به حتى فعل، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾: لعظمناه، ورفعناه إلى منازل الأبرار من العلماء بتلك الآيات، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾: مال إلى الدنيا، ورغب فيها، وقيل: مال إلى السفالة.

فإن قلت: كيف علق رفعه بمشيئة الله - تعالى - ولم يعلق بفعله الذي يستحق به الرفع؟

قلت: المعنى: ولو لزم/ ٢٦٣ ب العمل بالآيات، ولم ينسلخ منها، لرفعناه بها، وذلك أن مشيئة الله - تعالى - رفعه تابعة؛ للزومه الآيات، فذكرت المشيئة، والمراد: ما هي تابعة له ومسببة عنه، كأنه قيل: ولو لزمها لرفعناه بها؛ ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو فعله، فوجب أن يكون: (ولو شئنا)، في معنى ما هو فعله، ولو كان الكلام على ظاهره، لوجب أن يقال: ولو شئنا لرفعناه، ولكننا لم نشأ، ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾: فصفته التي هي مثل في الخسة والضعفة، كصفة الكلب في أحسن أحواله، وأذلها، وهي حال دوام اللهث<sup>(١)</sup> به واتصاله، سواء حمل عليه - أي: شد عليه، وهيج فطرد - أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه؛ وذلك أن سائر الحيوان لا يكون منه اللهث إلا إذا هيج منه وحرك، وإلا لم يلهث، والكلب يتصل لهثه في الحالتين جميعاً، وكان حق الكلام أن يقال: ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه أخلد إلى الأرض، فحططناه، ووضعنا منزلته، فوضع قوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾: موضع حططناه أبلغ حط؛ لأن تمثيله بالكلب في أحسن أحواله، وأذلها في معنى ذلك، وعن ابن عباس - رضي الله عنه -: الكلب منقطع الفؤاد، يلهث إن حمل عليه، أو لم يحمل عليه، وقيل: معناه إن وعظته فهو ضال، وإن لم تعظه فهو ضال، كالكلب إن طردته فسعى لهث، وإن تركته على حاله لهث.

فإن قلت: ما محل الجملة الشرطية؟

قلت: النصب على الحال؛ كأنه قيل: كمثل الكلب ذليلاً دائماً الذلة لاهتاً في الحالتين، وقيل: لما دعا بلعم على موسى - عليه السلام - خرج لسانه فوق على صدره، وجعل يلهث كما يلهث الكلب، ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾: من اليهود بعد ما قرؤا نعت رسول الله - ﷺ - في التوراة، وذكر القرآن المعجز وما فيه، وبشروا الناس

(١) قوله: «دوام اللهث به» في الصحاح لهث الكلب إذا خرج لسانه من التعب أو العطش. وقوله تعالى ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتَرَجَّعْهُ يَلْهَثْ﴾ لأنك إذا حملت على الكلب نبح وولى هارباً. وإن تركه شد عليك ونبح، فيتعب نفسه في الحالين فيعتربه عند ذلك ما يعتربه عند العطش من إخراج اللسان.

باقتراب مبعثه، وكانوا يستفتحون به، ﴿فَأَقْصِبْ﴾: قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم، ﴿لَمَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: فيحذرون مثل عاقبته، إذ ساروا نحو سيرته، وزاغوا شبه زيغه، ويعلمون أنك علمته من جهة الوحي، فيزدادوا إيقاناً بك، وتزداد الحجة لزوماً لهم.

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٧٧)

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ﴾: أي: مثل القوم، أو ساء أصحاب مثل القوم، وقرأ الجحدري: ساء مثل القوم، ﴿وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾: إما أن يكون معطوفاً على كذبوا، فيدخل في حيز الصلة بمعنى: الذين جمعوا بين التكذيب، وآيات الله، وظلم أنفسهم، وإما أن يكون كلاماً منقطعاً عن الصلة، بمعنى: وما ظلموا إلا أنفسهم بالتكذيب، وتقديم المفعول به للاختصاص؛ كأنه قيل: وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعداها إلى غيرها.

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰئِرُونَ﴾ (١٧٨)

﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ﴾: حمل على اللفظ، و﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰئِرُونَ﴾: حمل على المعنى.

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغٰفِلُونَ﴾ (١٧٩)

﴿كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ / ٢٦٤: هم المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم، وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر، كأنهم عدمو فهم القلوب، وإبصار العيون، واستماع الآذان، وجعلهم - لإعراقهم<sup>(١)</sup> في الكفر، وشدة شكائهم فيه، وأنه لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار - مخلوقين للنار؛ دلالة على توغلهم في الموجبات، وتمكنهم فيما يؤهلهم لدخول النار؛ ومنه كتاب عمر - رضي الله عنه - إلى خالد بن الوليد: بلغني أن أهل الشام اتخذوا لك دلوكة<sup>(٢)</sup> عجن تخمر، وإني لأظنكم آل المغيرة ذرة النار (٦١٢)، ويقال لمن كان عريقاً في بعض الأمور: ما خلق فلان إلا لكذا،

٦١٢ - عزاه الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٤٧٣/١) إلى أبي عبيد القاسم بن سلام في «غريب الحديث». قال الحافظ: أخرجه أبو عبيد في غريبه: حدثني إسماعيل بن عياش عن حميد بن ربيعة عن سليمان. =

(١) قوله: «لإعراقهم» يقال أعرق الشجر والنبات - بالعين المهملة - إذا امتدت عروقه في الأرض. وأعرق النازع في القوس - بالمعجمة - أي استوفى مداها من الصحاح.  
(٢) قوله: «دلوكة» في الصحاح: الدلوكة ما يدلك به من طيب وغيره.

والمراد: وصف حال اليهود<sup>(١)</sup> في عظم ما أقدموا عليه من تكذيب رسول الله - ﷺ - مع علمهم أنه النبي الموعود، وأنهم من جملة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأتى منهم، كأنهم خلقوا للنار، ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾: في عدم الفقه، والنظر للاعتبار، والاستماع للتدبير، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾: من الأنعام، عن الفقه، والاعتبار، والتدبير، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾: الكاملون في الغفلة، وقيل: الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتلتزم بعض ما تبصره، وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار.

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾: التي هي أحسن الأسماء<sup>(٢)</sup>؛ لأنها تدل على معان حسنة، من تمجيد وتقديس، وغير ذلك، ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾: فسموه بتلك الأسماء، ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: واركبوا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها، فيسمونه بغير الأسماء الحسنى؛ وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه، كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم<sup>(٣)</sup>: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه، يا نخي، أو أن يأبوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى، نحو أن يقولوا: يا أله، ولا يقولوا: يا رحمن، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ﴾ [الإسراء: ١١٠] ويجوز أن يراد: والله الأوصاف الحسنى<sup>(٤)</sup>، وهي الوصف بالعدل، والخير، والإحسان، وانتفاء شبه الخلق فصفوه بها، وذروا الذين

== قال الحافظ: أخرجه أبو عبيد في غريبه: حدثني إسماعيل بن عياش عن حميد بن ربيعة عن سليمان بن موسى: أن عمر كتب إلى خالد - فذكره منقطعاً. انتهى.

(١) قوله: «والمراد وصف حال اليهود» إنما فسره بذلك لأنه تعالى يجب عليه الأصلح للعبد عند المعتزلة، وخلق له جهنم ليس أصلح له. وعند أهل السنة لا يجب عليه شيء.

(٢) قال محمود: «معنى الحسنى التي هي أحسن الأسماء... إلخ» قال أحمد: أي مما يجوز عليه وإن لم يرد إطلاقه شرعاً، كالشريف والعارف، ونحو ذلك.

(٣) قال محمود: «كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم... إلخ» قال أحمد: وفي هذا التأويل بعد، لأن ترك الدعاء ببعض الأسماء لا يطلق عليه إلحاد في العرف، وإنما يطلق على فعل لا على ترك، ولكن يتميز عن الوجه السالف بأنه أضاف الأسماء الملحد فيها إلى ذاته، وهذا أدل على الرحمن منه على مثل أبيض الوجه ونحوه، فإن هذا ليس من أسمائه، إلا أن يقال: أضافه إليه تنزيلاً على زعمهم.

(٤) قال محمود: «ويجوز أن يراد: والله الأوصاف الحسنى، وهي الوصف بالعدل والخير... إلخ» قال أحمد: لا يدع حشو العقائد الفاسدة في غير موضع يسمها، فإن يكن المراد الأوصاف، فالحسنى منها وصف الله بعموم القدرة والانفراد بالمخلوقات، حتى لا يشرك معه عباده في خلق أفعالهم. =

يلحدون<sup>(١)</sup> في أوصافه، فيصفونه بمشيئة القبائح، وخلق الفحشاء، والمنكر، وبما يدخل في التشبيه، كالرؤية، ونحوها، وقيل: إلحادهم في أسمائه: تسميتهم<sup>(٢)</sup> الأصنام: آلهة، واشتقاقهم اللات من الله، والعزى من العزيز.

﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾

لما قال: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا﴾ فأخبر أن كثيراً من الثقلين عاملون بأعمال أهل النار، أتبعه قوله: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾، وعن النبي - ﷺ - أنه كان يقول إذا قرأها: «هذه لكم، وقد أعطيتي القوم بين أيديكم مثلها» (٦١٣)، ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ / ٢٦٤ ب، وعنه - ﷺ -: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي قَوْمًا عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَنْزِلَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ» (٦١٤)، وعن الكلبي: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب، وقيل: هم العلماء، والدعاة إلى الدين.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَأُمَلِّ لَهُمْ آيَاتٍ كِيدِي مَتِينٌ﴾

٦١٣ - ذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٧٢/٣)، وعزاه الزيلعي في تخریج الأحاديث والآثار (٤٧٤/١) رقم (٤٧٧) إلى الثعالبي في تفسيره.

قال الحافظ:

ذكره الثعالبي عن قتادة وابن جريج. وإسناده إليهما مذكور في أول كتابه. انتهى.

٦١٤ - أخرجه أحمد في مسنده: (٤٢٩/٤ و ٤٣٤ و ٤٣٧) عن عمران بن حصين به. وأخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده: (٥٩/٤ - ٦٠) رقم (٣١٣/٢٠٧٨)، وأحمد (٣/٣٤٥ - ٣٨٤) عن جابر فذكره.

وذكره السيوطي في الدر المنثور (٢٧٢/٣)، وعزاه الزيلعي (٤٧٤/١) رقم (٤٧٨) إلى البخاري في تاريخه الأوسط في ترجمة عبيد الله الطفاوي عن جابر به.

كما عزاه إلى الثعالبي في تفسيره عن الربيع بن أنس به.

ويعظم الله تعالى بأنه لا يسأل عما يفعل، وأن كل قضائه عدل، وأنه لا يجب عليه رعاية ما يتوهمه الخلق مصلحة بعقولهم، وأن وعده الصدق وقوله الحق. وقد وعد رؤيته فوجب وقوعها، إلى غير ذلك من أوصافه الجليلة، وذروا الذين يلحدون في أوصافه فيجحدونها، ثم يزعمون أنه لا تشمل قدرته المخلوقات، بل هي مقسومة بينه وبين عباده، ويوجبون عليه رعاية ما يتوهمونه مصلحة، ويحجرون واسعاً من مغفرته وعفوه وكرمه على الخطائين من موحيده، إلى غير ذلك من الإلحاد المعروف بالطائفة المتلقين عدلية، المزكين لأنفسهم وهو أعلم بمن اتقى.

(١) قوله: «وذو الذين يلحدون» يريد أهل السنة القائلين: كل كائن فهو مراد ومخلوق له تعالى ولو شراً، وتجاوز رؤيته، خلافاً للمعتزلة في كل ذلك، كما تقرر في محله.

(٢) قال محمود: «وقيل إلحادهم في أسمائه: تسميتهم... إلخ» قال أحمد: وهذا تفسير حسن ملائم، والله أعلم.

أَوْلَمَ يَنْفَكُرُوا مَا بَصَّاحِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوْلَمَ يَنْظُرُوا فِي مَلَكَوَاتِ  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَيَأْتِيهِمْ حَدِيثٌ بَعْدَهُ  
يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴿١٨٥﴾

الاستدراج: استفعال من الدرجة بمعنى الاستعداد، أو الاستنزال درجة بعد درجة؛  
قال الأعشى [من الطويل]:

فَلَوْ كُنْتُ فِي جُبِّ ثَمَانِينَ قَامَةً      وَرُقِيتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلْمٍ  
نَيْسْتَدْرِجُكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَهْرَهُ      وَتَعَلَّمْتُ أَنِّي عَنْكُمْ غَيْرَ مُفْحَمٍ <sup>(١)</sup>  
ومنه: درج الصبي إذا قارب بين خطاه، وأدرج الكتاب: طواه شيئاً بعد شيء، ودرج  
القوم: مات بعضهم في أثر بعض، ومعنى: ﴿سَتَدْرِجُهُمْ﴾: سنستدينهم قليلاً قليلاً إلى ما  
يهلكهم، ويضاعف عقابهم، ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾: ما يراد بهم، وذلك أن يواتر الله نعمه  
عليهم مع انهماكهم في الغي، فكلما جدد عليهم نعمة، ازدادوا بطراً، وجددوا معصية،  
فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم، ظانين أن مواترة النعم أثرة من الله وتقريب؛  
وإنما هي خذلان منه وتبعيد، فهو استدراج الله تعالى، نعوذ بالله منه، ﴿وَأَمَلِي لَهُمْ﴾:  
عطف على (سنستدرجهم)، وهو داخل في حكم السين، ﴿إِنْ كِيدِي تَتِينُ﴾: سماه كيداً؛  
لأنه شبيه بالكيد؛ من حيث أنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان، ﴿مَا بَصَّاحِهِمْ﴾:  
بمحمد - ﷺ - ﴿مَنْ جِنَّةٍ﴾: من جنون، وكانوا يقولون، شاعر مجنون، وعن قتادة أن  
النبي - ﷺ - علا الصفا، فدعاهم فخذاً فخذاً، يحذرهم بأس الله، فقال قائلهم: إن  
صاحبكم هذا لمجنون، بات يهوت <sup>(٢)</sup> إلى الصباح (٦١٥) ﴿أَوْلَمَ يَنْظُرُوا﴾: نظر استدلال،

قال الحافظ: =

ذكره الثعلبي عن الربيع بن أنس: «وإسناده إليه في أول كتابه. رواه أحمد من حديث عمران بن  
حصين بلفظ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق حتى يأتي أمر الله، وينزل عيسى بن مريم»، وفي  
تاريخ البخاري عن عبيدالله الطفاوي عن جابر نحوه، ورواه أبو يعلى من وجه آخر، وزاد: «فيقول  
إمامهم: تقدم يا روح الله، فيقول: أنتم أحق، أمر أكرم الله به هذه الأمة». انتهى.  
٦١٥ - أخرجه الطبري في تفسيره (١٣٤/٦ - ١٣٥) رقم (١٥٤٧٢)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/  
٢٧٣) وعزاه إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ عن قتادة به. وعزاه الزيلعي  
في تخريج الكشاف (٤٧٥/١) رقم (٤٨٠) إلى الثعالبي في تفسيره.

(١) تقدم.

وينظران في ديوانه ١٨٢، الكتاب ٢٨/٢ مجاز القرآن ٣٠٢/١، ابن يعيش ٧٤/٢، الجامع لأحكام  
القرآن ١٣٢/٩، اللسان؛ سبب: درج الدر المصون ٣٧٦/٣.

(٢) قوله: «بات يهوت» أي يصيح.

﴿ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾: فيما تدلان عليه من عظم الملك، والملكوت: الملك العظيم، ﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾: وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء، من أجناس لا يحصرها العدد، ولا يحيط بها الوصف، ﴿ وَأَنْ عَسَى ﴾: «أن» مخففة من الثقيلة، والأصل: أنه عسى، على أن الضمير ضمير الشأن، والمعنى: أو لم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى، ﴿ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾: ولعلمهم يموتون عما قريب، فيسارعوا إلى النظر، وطلب الحق، وما ينجيهم، قبل مغافصة الأجل<sup>(١)</sup>، وحلول العقاب، ويجوز أن يراد باقتراب الأجل: اقتراب الساعة، ويكون من «كان» التي فيها ضمير الشأن.

فإن قلت: بم يتعلق قوله: ﴿ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾؟

قلت: بقوله: ﴿ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ﴾، كأنه قيل: لعل أجلهم قد اقترب، فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان بالقرآن قبل الفوت، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق، وبأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا.

﴿ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

قرىء: ﴿ وَيَذَرُهُمْ ﴾، بالياء والنون، والرفع على الاستثناف / ١٢٦٥، ويذرهم، بالياء، والجزم، عطفاً على محل، ﴿ فَكَلا هَادِيَ لَهُ ﴾، كأنه قيل: من يضل الله لا يهده أحد ويذرهم.

﴿ يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مَرَسَهَا قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِهَا لَوْ قَنَبَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْةٌ يَسْتَأْذِنُكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ يَسْتَأْذِنُكَ ﴾: قيل إن قوماً من اليهود قالوا: يا محمد، أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً؛ فإننا نعلم متى هي، وكان ذلك امتحاناً منهم، مع علمهم أن الله - تعالى - قد استأثر بعلمها، وقيل: السائلون قريش، و﴿ السَّاعَةِ ﴾: من الأسماء الغالبة، كالنجم للثريا، وسميت القيامة بالساعة؛ لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها، أو على العكس لطولها، أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق، ﴿ أَيَّانَ ﴾ بمعنى: متى، وقيل: اشتقاقه من أي

قال الحافظ: أخرجه الطبري بإسناد صحيح إلى قتادة قال: «ذكر لنا - فذكره. فانزل الله: ﴿ أُولَئِكَ يَنْفَكُرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جِنَّةٍ... الآية ﴾ انتهى.

(١) قوله: «قبل مغافصة الأجل» أي أخذه إياهم على حين غفلة. اهـ من الصحاح.

فعلان منه؛ لأن معناه: أي وقت، وأي فعل، من أويت إليه؛ لأن البعض آو إلى الكل متساند إليه، قاله ابن جنى، وأبى أن يكون من «أين»؛ لأنه زمان، و«أين»: مكان، وقرأ السلمي: «إيان»، بكسر الهمزة<sup>(١)</sup>، ﴿مُرْسِنَهَا﴾: إرساؤها، أو وقت إرسائها؛ أي إثباتها وإقرارها، وكل شيء ثقيل رسوّه ثباته واستقراره، ومنه: رسى الجبل، وأرسى السفينة، والمرسى: الأنجر الذي ترسى به، ولا أثقل من الساعة؛ بدليل قوله: ﴿ثَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والمعنى: متى يرسيها الله، ﴿إِنَّمَا عَلَّمَهَا﴾ أي: علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به، لم يخبر به أحداً من ملك مقرب، ولا نبي مرسل، يكاد يخفيها من نفسه؛ ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، كما أخفى الأجل الخاص، وهو وقت الموت لذلك، ﴿لَا يَجْلِيهَا لَوْ قَبَّ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تزال خفية، لا يظهر أمرها، ولا يكشف خفاء علمها، إلا هو وحده إذا جاء بها في وقتها بغتة، لا يجليها<sup>(٢)</sup> بالخبر عنها قبل مجيئها أحد من خلقه؛ لاستمرار الخفاء بها على غيره إلى وقت وقوعها، ﴿ثَقَلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: كل من أهلها من الملائكة والثقلين أهمه شأن الساعة، وبودّه أن يتجلى له علمها، وشق عليه خفاؤها، وثقل عليه، أو ثقلت فيها؛ لأن أهلها يتوقعونها، ويخافون شدائدھا وأحوالها، أو لأن كل شيء لا يطيقها، ولا يقوم لها، فهي ثقيلة فيها، ﴿إِلَّا بَغْتَةً﴾: إلا فجأة على غفلة منكم، وعن النبي - ﷺ - «إِنَّ السَّاعَةَ تُهَيِّجُ بِالنَّاسِ وَالرَّجُلُ يُضْلِحُ حَوْضَهُ»<sup>(٣)</sup>، وَالرَّجُلُ يَسْقِي مَا شِئْتَهُ، وَالرَّجُلُ يَقَوْمُ سَلْعَتَهُ فِي سَوْقِهِ، وَالرَّجُلُ يَخْفِضُ مِيزَانَهُ وَيَرْفَعُهُ» (٦١٦)، ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنَّا﴾: كأنك عالم بها، وحقيقته: كأنك بليغ في أسؤال عنها<sup>(٤)</sup>؛ لأن من بالغ في المسألة عن الشيء والتنقير عنه، استحکم علمه فيه

٦١٦ - أخرجه الطبري في تفسيره (١٣٨/٦) رقم (١٥٤٩٠)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٢٧٤)، وعزاه لابن جرير وعبد بن حميد وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (٤٧٦/١) رقم (٤٨٠) إلى الثعالبي في تفسيره.

قال الحافظ: أخرجه الطبري بالإسناد المذكور إلى قتادة قال ذكر لنا - فذكره، وفي الصحيحين عن أبي هريرة رفعه: «لتقوم الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقوم الساعة وقد انصرف الرجل بلبن... الحديث». انتهى.

- (١) قوله: «وقرأ السلمي إيان بكسر الهمزة» في الصحاح «أيان» سؤال عن زمان و«إيان» بكسر الهمزة لغة سليم. وبه قرأ السلمي (إيان يعثون) (ع).
- (٢) قوله: «بغتة لا يجليها» لعله: وقيل لا يجليها، بل لعله «أو لا يجليها» (ع).
- (٣) قوله: «والرجل يصلح حوضه» في البخاري: يليط حوضه. وروى «يلوط» أي يصلحه اهـ.
- (٤) قال محمود: «معناه كأنك بليغ في السؤال عنها... إلخ» قال أحمد وفي هذا النوع من التكرير نكتة لا تلقى إلا في الكتاب العزيز، وهو أجل من أن يشارك فيها، وذاك أن المعهود في أمثال هذا التكرير أن الكلام إذا بني على مقصد، واعترض في أثناءه عارض فأريد الرجوع لتتميم المقصد =

ورصن<sup>(١)</sup>، وهذا التركيب معناه المبالغة، ومنه: إحقاء الشارب، واحتفاء البقل: استئصاله، وأحفى في المسألة، إذا ألحف<sup>(٢)</sup>، وحفى بفلان وتحفى به: بالغ في البرّ به، وعن مجاهد: استحفيت عنها السؤال حتى علمت.

وقرأ ابن مسعود: «كأنك حفيّ بها»، أي: عالم بها، بليغ في العلم/ ٢٦٥ ب بها، وقيل: (عنها): متعلق بيسألونك، أي: يسألونك عنها كأنك حفيّ، أي: عالم بها، وقيل: إن قريشاً قالوا له: إن بيننا وبينك قرابة، فقل لنا متى الساعة؟ فقيل: يسألونك عنها كأنك حفيّ تحفى بهم، فتختصمهم بتعليم وقتها، لأجل القرابة، وتزوي علمها عن غيرهم، ولو أخبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله في إخبارك به، لكنك مبلغه القريب والبعيد من غير تخصيص؛ كسائر ما أوحى إليك، وقيل: «كأنك حفيّ بالسؤال عنها تحبه وتؤثره»، يعني: أنك تكره السؤال عنها؛ لأنها من علم الغيب الذي استأثر الله به، ولم يؤته أحداً من خلقه.

= الأول وقد بعد عهده، طرى بذكر المقصد الأول لتتصل نهايته ببدايته، وقد تقدم لذلك في الكتاب العزيز أمثال، وسيأتي وهذا منها، فإنه لما ابتدأ الكلام بقوله ﴿يَتْلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنَهَا﴾ ثم اعترض ذكر الجواب المضمن في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ إلى قوله (بغثة) أريد تسميم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم، وهو المضمن في قوله ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ وهو شديد التعلق بالسؤال، وقد بعد عهده فطرى ذكره تطرية عامة، ولا نراه أبداً يطري إلا بنوع من الإجمال كالتذكرة للأول مستغنى عن تفصيله بما تقدم، فمن ثم قيل (يسألونك) ولم يذكر المسؤول عنه وهو الساعة، اكتفاء بما تقدم، فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضاً مجملاً فقال ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ ويلاحظ هذا في تلخيص الكلام بعد بسطه. ومن أدق ما وقفت عليه العرب في هذا النمط من التكرير لأجل بعد العهد تطرية للذكر قوله [من الرجز]:

عجل لنا هذا وألحقنا بهذا الـ شحم إننا قد مللناه بجبل  
أي فقط، فذكر الألف واللام خاتمة للأول من الرجزين، ثم لما استفتح الرجز الثاني استبعد العهد بالأولى، فطرى ذكرها وأبقى الأولى في مكانها. ومن ثم استدل ابن جني على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء فهو بيت كامل وليس بنصف، كما ذهب إليه أبو الحسن، قال: ولو كان بيتاً واحداً لم يكن عهد الأولى متباعداً، فلم يكن محتاجاً إلى تكريرها. ألا ترى أن عبيداً لما جاء بقصيدة طريئة الأبيات وجعل آخر المصراع الأول آل، لم يعدها أول المصراع الثاني، لأنها بيت واحد، فلم ير عهدها بعيداً. وذلك قوله [من الرمل]:

يا خليلي أربعا واستخيرا الـ حنزل المدارس من أهل الحلال  
مثل سحق البرد عني بعدك الـ قططر مغناه وتأويب الشمال  
ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتاً، فانظر هذه النكتة كيف بالغت العرب في رعايتها حتى عدت القريب بعيداً والمقاصر مديداً، فتأملها فإنها تحفة إنما تفق عند الحذاق الأعيان في صناعتي العربية والبيان، والله المستعان.

(١) قوله: «ورصن» أي: ثبت وتمكن اهـ (ع).

(٢) قوله: «إذا ألحف» أي ألح وعنف اهـ (ع).

فإن قلت: لم كرر يسألونك، وإنما علمها عند الله؟

قلت: للتأكيد، ولما جاء به من زيادة قوله: ﴿كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾، وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة زائدة، منهم: محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة - رحمهما الله - ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أنه العالم بها، وأنه المختص بالعلم بها.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ  
الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١٧٨)

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾: هو إظهار للعبودية، والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب، أي: أنا عبد ضعيف، لا أملك لنفسي اجتلاب نفع، ولا دفع ضرر، كما الممالك والعبيد، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ﴾: ربي ومالكي من النفع لي والدفع عني، ﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾: لكانت حالي على خلاف ما هي عليه، من استكثار الخير، واستغزار المنافع، واجتناب السوء والمضار، حتى لا يمسنني شيء منها، ولم أكن غالباً، مرة ومغلوباً أخرى في الحروب، ورايحاً وخاسراً في التجارات، ومصيباً مخطئاً في التدابير، ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا﴾: عبد أرسلت نذيراً وبشيراً، وما من شأني أنني أعلم الغيب، ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: يجوز أن يتعلق بالنذير، والبشير جميعاً؛ لأن النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم، أو يتعلق بالبشير وحده، ويكون المتعلق بالنذير محذوفاً، أي: إلا نذير للكافرين، وبشير لقوم يؤمنون.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا  
حَمَلَتْ حَمَلاً خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنِ آتَيْنَا صَلَاحًا لِنُكُونَنَّ مِنَ  
الشَّاكِرِينَ﴾ (١٧٩) ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَلَاحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَلَى اللَّهُ عَمَّا  
يُشْرِكُونَ﴾ (١٨٠)

﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾: وهي نفس آدم، عليه السلام، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: وهي حواء، خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه، أو من جنسها؛ كقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [الشورى: ١١]. ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾: ليطمئن إليها، ويميل ولا تنفر؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس، وإذا كانت بعضاً منه، كان السكون والمحبة أبلغ، كما يسكن الإنسان إلى ولده، ويحبه محبة نفسه، لكونه بضعة منه.

وقال: (ليسكن): فذكر بعد ما أنت في قوله: واحدة منها زوجها، ذهاباً إلى معنى النفس؛ لبيان أن المراد بها آدم، ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها، فكان

التذكير أحسن طباقاً للمعنى، والتغشي: كناية عن الجماع، وكذلك الغشيان والإتيان، ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا حَوِيفًا﴾: خف عليها، ولم تلق منه ما يلقي بعض الحبالى من حملهن من الكرب والأذى، ولم تستقله كما يستقله، وقد تسمع/ ٢٦٦ بعضهن تقول في ولدها: ما كان أخفه على كبدي حين حملته، ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾: فمضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج، ولا إزلاق<sup>(١)</sup>، وقيل: ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا حَوِيفًا﴾ يعني: النطفة، (فمرت به): فقامت به وقعدت، وقرأ ابن عباس - رضي الله عنه -: «فاستمرت به»، وقرأ يحيى بن يعمر: «فمرت به»، بالتخفيف، وقرأ غيره: «فمارت به»، من المرية؛ كقوله: ﴿أَفْتَنَرُوهُ﴾ [النجم: ١٢] وأفتمرونه. ومعناه: فوقع في نفسها ظن الحمل، فارتأبت به، ﴿فَلَمَّا أَثَقَلَتْ﴾ حان وقت ثقل حملها؛ كقولك: أقربت<sup>(٢)</sup>، وقرئ: «أثقلت»، على البناء للمفعول: أي أثقلها الحمل (دعوا الله ربهما) دعا آدم وحواء ربهما، ومالك أمرهما الذي هو الحقيقي بأن يدعى ويلتجأ إليه، فقالا: ﴿لَيْنَ مَاتَيْنَا﴾: لئن وهبت لنا. ﴿صَالِحًا﴾: ولداً سوياً قد صلح بدنه وبرئ<sup>(٣)</sup>، وقيل: ولداً ذكراً؛ لأن الذكورة من الصلاح والجودة، والضمير في: ﴿مَاتَيْنَا﴾، و﴿لَنَكُونَنَّ﴾: لهما، ولكل من يتناسل من ذريتهما<sup>(٤)</sup>، ﴿فَلَمَّا مَاتَهُمَا﴾: ما طلباه من الولد الصالح السوي، ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾: أي: جعل أولادهما له شركاء، على حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، وكذلك: ﴿فِيمَا مَاتَهُمَا﴾: أي: أتى أولادهما؛ وقد دل على ذلك بقوله: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ حيث جمع الضمير، وآدم وحواء بريتان من الشرك، ومعنى إشراكهم فيما آتاهم الله: تسميتهم أولادهم بعبد العزى، وعبد مناة<sup>(٥)</sup>،

(١) قوله: «من غير إخداج ولا إزلاق» إخداج: أي نقصان. ولا إزلاق: أي إسقاط.

(٢) قوله: «كقولك أقربت» أي قرب ولادها (ع).

(٣) قوله: «وبرئ» لعله: وبرئ من الآفات (ع).

(٤) قال محمود: «الضمير في (آتينا) و(لنكونن) لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما... الخ» قال أحمد: وأسلم من هذين التفسيرين وأقرب - والله أعلم - أن يكون المراد جنسي الذكر والأنثى، لا يقصد فيه إلى معين، وكان المعنى - والله أعلم - خلقكم جنساً واحداً، وجعل أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهن، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر الجنس الآخر الذي هو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت. وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون، لأن المشركين منهم ﴿أَوْفَا مَا يَشَاءُ لَسَوْفَ نُخْرِجُ حَيًّا﴾ و﴿قِيلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرًا﴾ (٧)، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ﴾ (٨) كما أنه كذلك على التفسير الأول أضاف الشرك إلى أولاد آدم وحواء وهو واقع من بعضهم وعلى التفسير الثاني أضافه إلى قصي وعقبه، والمراد البعض؛ فهذا السؤال وارد على التأويلات الثلاثة، وجوابه واحد ويسلم هذا الثالث من حذف المضاف المضطر إليه في التأويل الأول. ومما ينصرف إلى التأويل الثاني من استبعاد تخصيص قصي بهذا الأمر المشترك في الجنس، وهو جعل زوجته منه وكون المراد بذلك أن يسكن إليها لأن ذلك عام في الجنس، والله أعلم.

(٥) قوله: «وعبد مناة» في النسفي: وعبد مناف (ع).

وعبد شمس، وما أشبه ذلك، مكان عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم، ووجه آخر، وهو: أن يكون الخطاب لقريش، الذين كانوا في عهد رسول الله - ﷺ - وهم آل قصي؛ ألا ترى إلى قوله في قصة أم مَعْبِدٍ (٦١٧) [من الطويل]:  
 فَيَا لِقُصَيِّ مَا زَوَى اللهُ عَنْكُمْ بِهِ مِنْ فَخَارٍ لَا يُبَارَى وَسُوْدِدٍ<sup>(١)</sup>

٦١٧ - أخرجه الحاكم (٩/٣ - ١٠)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» ص (٢٤٤ - ٢٤٦)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤٩٤/٢)؛ كلهم من طريق حبش بن خالد به.  
 وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأخرجه أيضاً الطبراني في «المعجم الكبير» (٧/١٢٣ - ١٢٤) رقم (٦٥١٠)، وأخرجه الحاكم (١١/٣) من حديث أبي معبد الخزاعي.  
 وسكت عنه.

قال الحافظ: هذا طرف من حديث أم معبد في هجرة النبي ﷺ. وقد أخرجه الحاكم مطولاً. من حديثها وحديث أخيها حبش بن خالد. ومن حديث زوجها أبي معبد، وطريق أم معبد رواها في الغيلانيات. وفي الطبراني وفي الدلائل لأبي نعيم والبيهقي. انتهى.

(٢) جزى الله رب الناس خير جزائه  
 هما نزلا بالبر ثم ترحلا  
 فيا لقصي ما زوى الله عنكم  
 ليهن بني سعد مقام فتاتهم  
 رفيقين حلا خيمتي أم معبد  
 فيا فوز من أمسى رفيق محمد  
 به من فخار لا يبارى وسوّد  
 ومقعدا للمؤمنين بمرصد

لرجل من الجن، سمعوا صوته بمكة ولم يروا شخصه، حين خرج رسول الله ﷺ من مكة مع أبي بكر مهاجراً وجهل أهلها خبرهما بعد خروجهما من الغار. ويروى «جزاية» بالتاء كهداية. ويروى «قالا» بدل «حلا» والمعنى متقارب، إلا أن الثاني خاص بالاستراحة في منتصف النهار. و«خيمتي» نصب على التوسع بحذف حرف الجر و«أم معبد» امرأة من بني سعد نزلا عندها بالبر والخير. ذكر بعضهم أن اسمها عاتكة بنت خالد الخزاعية و«بالقصي» أصله «يا آل قصي» فخفف وقد اختلف فيها، فقيل: أصلها يا آل قصي أيضاً. وقيل: هي حرف جر، فقيل زائد. وقيل أصلي متعلق بيا عند سيويه، وبالفعل الذي نابت عنه عند ابن جني «وما» استفهامية، والمعنى: يا آل قصي، أتدرون ما قبضه الله ومنعه بخروج رسول الله من بينكم من فخار لا يضاهى ومن شرف عظيم؟ وفي هذا الاستفهام معنى التعجب والاستعظام، حتى كأن المستفهم عنه لا يعرف كنهه. ويجوز أن اللام للتعجب، و«ما» موصول بدل من «قصي». ويجوز أن اللام للاستغاثة، كأنه استغاث بهم لعلمهم بتداركون ما فاتهم. وساد في قومه: شرف، ومصدره السوّد، بالهمز وضم الدال، وبالواو فتفتح داله كما هنا. والأصل: السود - بالضم - كالحسن، فزيدت الدال للإلحاق ويرفع وجندب. و«ليهن» مجزوم بلام الأمر، والمقصود الدعاء. و«مقام» فاعل، و«بني» مفعول. يقال: هنا الطعام ونحوه، بالهمز: إذا نفعه وحمدت عاقبته عنده، وهو من بابي نفع وضرب، ويبدل همزة بما يناسب ما قبله، وقد يحذف البدل كما هنا، كأنه أصلي، لكن الحذف عامي. والمرصد والمرصاد: الطريق يرصد فيه الرصد. وقوله: «للمؤمنين» فيه حث على الهجرة.  
 البيت للفرزدق. ينظر: ديوانه ١/١٧٣، الكتاب ٢/٢٣٤، الهمع ١/٢٠٠، الشذور ٢٣٥، الدرر ١/١٦٩، الدر المصون ١/٢٣١.

ويراد: هو الذي خلقكم من نفس قصي، وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية؛ ليسكن إليها، فلما آتاها ما طلبا من الولد الصالح السوي جعل له شركاء فيما آتاها؛ حيث سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف، وعبد العزى، وعبد قصي، وعبد الدار، وجعل الضمير في: (يشركون) لهما، ولأعقابهما، الذين اقتدوا بهما في الشرك، وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه، وفريء: «شركاء»، أي: ذوي شرك وهم الشركاء، أو أحداً لله شركاً في الولد.

﴿أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْتَعْبِقُوا سَوَاءً عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

أجريت الأصنام مجرى أولي العلم في قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾، بناء على اعتقادهم فيها، وتسميتهم إياها آلهة، والمعنى: أيشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله، وهم يخلقون؟ لأن الله - عز وجل - خالقهم، أو لا يقدر على اختلاق شيء؛ لأنه جماد، وهم يخلقون؛ لأن عبدتهم يخلقونهم، فهم أعجز من عبدتهم، ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾: لعبدتهم، ﴿نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾: فيدفعون عنها ما يعترها من الحوادث، بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم ويحامون عليهم، ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ﴾: وإن تدعوا هذه الأصنام/ ٢٦٦ ب ﴿إِلَى الْهُدَىٰ﴾ أي: إلى ما هو هدى وارشاد، وإلى أن يهدوكم، والمعنى: وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى، لا يتبعوكم إلى مرادكم وطلبكم، ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله؛ ويدل عليه قوله: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، ﴿سَوَاءً عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾: أم صمتتم عن دعائهم، في أنه لا فلاح معهم.

فإن قلت: هلا قيل: أم صمتتم؟ ولم وضعت الجملة الإسمية موضع الفعلية؟

قلت: لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر، دعوا الله دون أصنامهم؛ كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسُ ضُرًّا﴾، فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم، فقيل: إن دعوتهم، لم تفرق الحال بين إحداثكم دعاءهم، وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ ﴿١٩٥﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله، ﴿عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾، وقوله: ﴿عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾: استهزاء بهم، أي: قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء

عقلاء، فإن ثبت ذلك، فهم عباد أمثالكم، لا تفاضل بينكم، ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال: ﴿أَلَمْ أَزُجِّلْ يَمْسُونَ بِهَا﴾ وقيل: عباد أمثالكم مملوكون أمثالكم، وقرأ سعيد بن جبير: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَاداً أَمْثَالِكُمْ» بتخفيف «إن»، ونصب «عباداً أمثالكم»، والمعنى: ما الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم، على إعمال: «إن» النافية عمل «ما»: الحجازية، ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾: واستعينوا بهم في عداوتي، ﴿ثُمَّ كِيدُونَ﴾: جميعاً أنتم وشركاؤكم، ﴿فَلَا تُظْهَرُونَ﴾: فإني لا أبالي بكم، ولا يقول هذا إلا واثق بعصمة الله، وكانوا قد خَوفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك، كما قال قوم هود له: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ قال لهم: ﴿أَنْتِ بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظَرُونَ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٥].

﴿إِنَّ وَرَثَةَ اللَّهِ الَّذِينَ نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٧﴾

﴿إِنَّ وَرَثَةَ اللَّهِ﴾ أي: ناصري عليكم الله، ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ الذي أوحى إلي كتابه وأعزني برسالته، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾، ومن عادته أن ينصر الصالحين من عباده وأنبيائه، ولا يخذلهم.

﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (١٩٨)

﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾: يشبهون الناظرين إليك؛ لأنهم صَوَّروا أصنامهم بصورة من قلب حدقته إلى الشيء ينظر إليه، ﴿وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾: وهم لا يدركون المرئي.

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩)

﴿الْعَفْوُ﴾: ضد الجهد، أي: خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم، وتسهل من غير كلفة، ولا تداقهم، ولا تطلب منهم الجهد، وما يشق عليهم؛ حتى لا ينفروا؛ كقوله - ﷺ -: «يَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا» (٦١٨) قال [من الطويل]:

٦١٨ - أخرجه البخاري (١٩٦/١): كتاب العلم: باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، حديث (٦٩) وطرفه في (٦١٢٥)، ومسلم (٢٨٣/٦ - النووي) كتاب الجهاد والسير؛ باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، حديث (١٧٣٤/٨). من طريق أنس بن مالك فذكره. قال الحافظ: متفق عليه من حديث أنس أتم منه. انتهى.

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَعْصَبُ<sup>(١)</sup>

وقيل: خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم؛ وذلك قبل نزول آية الزكاة، فلما نزلت، أمر أن يأخذهم بها طوعاً أو كرهاً، والعرف: المعروف والجميل من الأفعال، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾: ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم، واحلم عنهم، وأغض على ما يسوؤك منهم، وقيل: لما نزلت الآية، سأل «جبريل»، فقال: لا أدري حتى أسأل، ثم رجع، فقال: «يا محمد، إن ربك أمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك» (٦١٩) وعن جعفر الصادق: أمر الله نبيه - عليه الصلاة والسلام - بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم/ ٢٦٧ الأخلاق منها.

﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾

﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾: وإما ينخسك منه نخس، بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به، ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾: ولا تطعه، النزغ والنسخ: الغرز والنخس، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي، وجعل النزغ نازغاً، كما قيل: جدّ جدّه، وروي أنها لما نزلت، قال رسول الله - ﷺ -: «كَيْفَ يَا رَبِّ وَالْعَصْبُ» (٦٢٠)، فنزل: ﴿وَأِمَّا

٦١٩ - أخرجه الطبري في تفسيره (١٥٤/٦) رقم (١٥٥٥٨ - ١٥٥٥٩)، وعبد الرزاق في تفسيره (٢/٢٤٦)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٢٨٠)، وعزاه الزيلعي في تخريج الكشاف (١/٤٧٧) رقم (٤٨٢) إلى ابن مردويه في تفسيره.  
قال الحافظ:

أخرجه الطبري من طريق سفيان بن عُيينة عن أبي المرادي قال: لما أنزل الله فذكره وهذا منقطع. وأخرجه ابن مردويه موصولاً من حديث جابر، ومن حديث قيس بن سعد. وزاد في أوله: «لما نظر رسول الله ﷺ إلى حمزة قال: والله لأمثلن بسبعين منهم. فجاء جبريل بهذه الآية، فذكر الحديث»، وفي مسند أحمد عن عقبة بن عامر «أن النبي ﷺ قال له: يا عقبة، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا: أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وغفل الطيبى فقال في حديث الأصل: رواه أحمد من حديث عقبة بن عامر. انتهى.

٦٢٠ - أخرجه الطبري (١٥٥/٦) رقم (١٥٥٦٤)، وذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/٢٨٣)، وعزاه الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (١/٤٨١) رقم (٤٨٤) إلى الشعالي في تفسيره، وإلى الواحدي في تفسيره الوسيط.

قال الحافظ: أخرجه الطبري من رواية ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم «لما نزلت» فذكره مفصلاً. انتهى.

(١) تقدم.

يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعًا\*، ويجوز أن يراد بنزع الشيطان: اعتراء الغضب؛ كقول أبي بكر - رضي الله عنه -: إن لي شيطاناً يعتريني (٦٢١)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آتَقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢١)  
 ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْفِتَنِ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (٢٢)

﴿طَٰئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾: لمة منه مصدر؛ من قولهم: طاف به الخيال يطيف طيفاً؛ قال [من الكامل]:

أَتَى أَلَمَ بِكَ الْخَيَالُ يُطِيفُ<sup>(١)</sup> .....

أو هو تخفيف طيف فيعل، من طاف يطيف كلين، أو من طاف يطوف كهين، وقرىء: «طائف»، وهو يحتمل الأمرين - أيضاً - وهذا تأكيد، وتقرير لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزع الشيطان، وأن المتقين هذه عادتهم: إذا أصابهم أدنى نزع من الشيطان، وإمام بوسوسته: ﴿تَذَكَّرُوا﴾، ما أمر الله به، ونهى عنه، فأبصروا السداد، ودفعوا ما وسوس به

٦٢١ - عزاه الزيلعي في «تخريج الكشاف» (٤٨٢/١) وعزاه إلى إسحاق بن راهويه بسنده إلى الحسن عن أبي بكر الصديق، وأخرجه أيضاً الزيلعي بإسناده عن الحسن عن أبي بكر. قال الحافظ:

أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده. وابن سعد في الطبقات قال: حدثنا وهب بن جرير حدثنا جرير بن حازم سمعت الحسن يقول: «خطب أبو بكر - رضي الله عنه - يوماً. فقال: أما والله، ما أنا بخيركم ولقد كنت لمقامي هذا كارهاً. ولوددت أن فيكم من يكفيني أفرط، وأن أعمل فيكم بسنة رسول الله ﷺ إذ لا أقوم لها، إن رسول الله ﷺ كان يعتصم بالوحي. وكان معه ملك. وإن لي شيطاناً يعتريني. فإذا غضبت فاجتنبوني الحديث، رواه عبد الرزاق عن معمر عن رجل عن الحسن نحوه. ورويناه في جزء الأنصاري من طريق أبي هلال عن الحسن قال: «لما استخلف أبو بكر بدأ بكلام والله ما تكلم به أحد غيره» فذكر نحوه. انتهى.

(١) أنى ألم به الخيال يطيف ومطافه بك ذكرة وشغوف

لكعب بن زهير. وأنى: استفهام تعجبي بمعنى كيف، أو من أين. وألم: أي نزل للزيارة. والخيال: ما يراه النائم. وطاف به الخيال يطيف طيفاً ومطافاً: أقبل عليه. وطاف حوله يطوف طوافاً وطوفاناً: حام عليه ودار حوله، ويكنى به عن اللمس. وقوله: «يطيف» جملة حالية مؤكدة أو مؤسمة. ومطافه: أي طيفه هو سبب التذكر ووصول الحب لشغاف القلب، فأقام المسبب مقام السبب، وعبر عن نفسه أولاً بضمير الغيبة، وثانياً بالخطاب. على طريق الالتفات فراراً من شبهة التكرار. وروى بك بالخطاب.

ينظر: ديوانه (٨٤)، والطبري ٣٣٥/١٣، اللسان «ذكر» والكشاف ١٣٩/٢، والبحر ٤٤٥/٤ والدر المصون ٣٨٨/٣.

إليهم، ولم يتبعوه أنفسهم، وأما إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين، فإن الشياطين يمدونهم في الغي، أي: يكونون مدداً لهم فيه ويعضدونهم، وقرئ: «يُمدونهم» من الإمداد، «ويمادونهم» بمعنى: يعاونونهم، ﴿ثُمَّ لَا يَقْضُونَ﴾: ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصروا ولا يرجعوا، وقوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ﴾؛ كقوله [من البسيط]:  
 قَوْمٌ إِذَا الْخَيْلُ جَالُوا فِي كَوَائِبِهَا<sup>(١)</sup>  
 .....

في أن الخبر جار على ما هو له، ويجوز أن يراد بالإخوان: الشياطين، ويرجع الضمير المتعلق به إلى الجاهلين، فيكون الخبر جارياً على ما هو له؛ والأول أوجه؛ لأن إخوانهم في مقابلة الذين اتقوا.

فإن قلت: لم جمع الضمير في إخوانهم والشيطان مفرد؟

قلت: المراد به الجنس؛ كقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أُنزِلَتْ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

اجتنبى الشيء، بمعنى جباه لنفسه أي جمعه؛ كقولك: اجتمع، أو جبي إليه فاجتبه؛ أي أخذه؛ كقولك: جلست إليه العروس فاجتلاها، ومعنى: ﴿لَوْلَا أُنزِلَتْ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّي﴾: هلا اجتمعتها، افتعالاً من عند نفسك؛ لأنهم كانوا يقولون: ﴿ما هذا إلا إنك مفترى﴾ [سبأ: ٤٣]، أو هلا أخذتها منزلة عليك مقترحة؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنزِلَ مِنَ رَبِّي﴾: ولست بمفتعل للآيات، أو لست بمقترح لها، ﴿هَذَا بَصَائِرٌ﴾: هذا القرآن بصائر، ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾: أي: حجج بنية يعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى، أو هو بمنزلة بصائر القلوب.

(١) قوم إذا الخيل جالوا في كوائبها فوارس الخيل لا ميل ولا قدم

«الخيل» الأفراس. و«الكائبة» للفرس القربوس، وللبعير الغارب، وللرجل الكاهل. وللحمار السيسيا. و«الميل» جمع أميل، وهو الذي لا يثبت على ظهر فرسه. والقدم: جمع أقدم، وهو اللثيم الضعيف. أو جمع قدم بالسكون بمعناه. وضمير «جالوا» للقوم، فجري الخبر على غير ما هو له. أي إذا الخيل جالوا هم في سروجها وما يبرز الضمير هكذا، لأن محل وجوبه في الصفة لا الفعل، أو لأمن اللبس، لأن الواو ضمير العقلاء. فإن قيل: إن «إذا» لا تضاف إلا للجملة الفعلية، فالخيل فاعل فعل محذوف. أجيب بمنع أنها لا تضاف إلا للفعلية، وبأن ذلك في الشرطية لا الظرفية كما هنا. وقيل: يحتمل على بعد أن الخيل بمعنى الفرسان، وضمير كوائبها للأفراس المدلول عليها بذكر الخيل: أي قوم إذا الفرسان جالوا في كوائب الأفراس، فوارس الخيل، ثابتون عليها لا مائلون عن ظهورها، ولا عاجزون كان أيديهم مغلولة.

البيت لزباد بن مقفد ينظر: المحتسب ٢٩١/١، والبحر المحيط ٤٤٧/٤، والصحاح واللسان «قزم» والدر المصون ٣٨٩/٣.

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُمْ وَأَنْصِتُوا﴾: ظاهره وجوب الاستماع، والإنصات وقت قراءة القرآن في صلاة وغير صلاة، وقيل: كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت، ثم صار سنة في غير الصلاة أن ينصت القوم إذا كانوا في مجلس يقرأ فيه القرآن، وقيل: معناه: وإذا تلا/ ٢٦٧ ب عليكم الرسول القرآن عند نزوله، فاستمعوا له، وقيل: معنى «فاستمعوا له»: فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه.

﴿وَأَذْكُرْ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٢٥﴾﴾

﴿وَأَذْكُرْ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ﴾: هو عام في الأذكار من قراءة القرآن، والدعاء، والتسبيح، والتهليل، وغير ذلك، ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾: متضرعاً وخائفاً، ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾: ومتكلماً كلاماً دون الجهر؛ لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص، وأقرب إلى حسن التفكير، ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾: لفضل هذين الوقتين، أو أراد الدوام، ومعنى بالغدو: بأوقات الغدو، وهي الغدوات، وقرىء: «والإيصال»، من أصل إذا دخل في الأصل، كأقصر وأعتم<sup>(١)</sup>، وهو مطابق للغدو، ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾: من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾: هم الملائكة - صلوات الله عليهم - ومعنى (عند): دنو الزلفة، والقرب من رحمة الله - تعالى - وفضله؛ لتوفرهم على طاعته، وابتغاء مرضاته، ﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾: ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره، وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين.

عن رسول الله - ﷺ -: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْأَعْرَافِ جَعَلَ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِبْلِيسَ سِتْرًا، وَكَانَ آدَمُ شَفِيعًا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٦٢٢)

٦٢٢ - تقدم تخريجه وهو حديث فضائل القرآن سورة سورة.

وينظر حديث (٣٤٦).

قال الحافظ: ذكرت أسانيد في تفسير آل عمران، وسيأتي في آخر الكتاب. انتهى.

(١) قوله: «كأقصر وأعتم» أقصر: أي دخل في القصر أي العشي، وأعتم: دخل في العتمة، أي وقت العشاء. أفاده الصحاح (ع).